جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

أحسن الوجوه
في حديث القرآن الكريم
عن الوجوه

الدكتور
مصطفى أحمد سليمان على
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الخامس
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

المقدمة

الحمد لله الذى أنشا بقدرته جميع المخلوقات ، وأبدع بحكمته فى تصوير جميع الذوات فأعطى كل شيء خلقه وهداه من المحيا إلى الممات ، وصلى الله وسلم وبارك على أفضل من خلق الله فى الأرض والسماوات ، والذى ختم به الرسالات ، ومحى به الشرك والظلمات ، صلوات ربى وتسليماته عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه على الهدى والآيات ثم أما بعد .. ،،

فلقد خلق الله الإنسان وحسنه وجمله وسواه وعدله ونفخ فيه من روحه ، ومن بديع خلقه له أن سواه بيده ، وركب أعضاءه وأركانه بحكمته ، فجعل لكل إنسان وجهاً يعرف به ويرجع إليه حتى يميز عن غيره مهما تشابهت الأبشار والهيئات ، وتقارب الناس فى الصور والصفات وجعل هذا الوجه أعلى الجسد مكاناً وأشرفه رتبة ومقاماً وخصه بأن يكون مجمع الحواس فشق فيه سمعه وبصره ولسانه الذى يكون به نطقه وذكره فتبارك الله أحسن الخالقين .

فلما كان لهذا العضو هذه المكانة والتي لا تتحقق للجسد بدونه الحياة ولا السلامة أكثر الله الحديث عنه فى كتابه فذكر من أحوال هذا الوجه وأخباره ما يجعل السامع والقارئ فى شوق إلى تفسير هذه الأحوال ومعرفة مكنونات أسرار هذه الأخبار خاصة أنها قد تنوعت وتعددت فشملت أحوال وجوه بنى أدم جميعاً ليس فى الدنيا فقط ، بل فى الآخرة أيضاً حتى يستقر العبد فى الجنة أو النار ، ومن عجيب أخبار هذه الوجوه أنها دالة على عمل أصحابها ، ومآل ومصير ذواتها فوجوه أهل الصلاح دالة على صلاحهم ، ووجوه أهل الفساد كذلك ، فأهل قيام الليل مثلاً وجوههم مشرقة بنور صلواتهم وقراءتهم وذكرهم، ووجوه أهل الكبر والنفاق وسوء الأخلاق تعلوها الظلمة والسواد ، وسخط الله وبغض العباد . وإذا نظرنا فى القرآن الكريم وجدنا أن الله تعالى قد ذكر وجوه الخلق بأحوال وأخبار تزيد على الثلاثين وصفاً وخبراً كلها تحتاج إلى دراسة وشرح ، فمن هذه الوجوه ما أمر الله بغسلها عند الوضوء ومسحها عند التيمم

وتوجهها وتوليتها إلى البيت الحرام فى الدعاء والصلاة ، بل وأمرنا بإقامتها ونصبها عند كل مسجد وإسلامها وإخلاصها لربها ، بل وجعل الناس يوم القيامة فريقين ووجوههم دالة على مصائرهم وعواقبهم فأهل الإيمان هم أهل الوجوه المبيضة والمسفرة الضاحكة المستبشرة والناعمة الناضرة والتى إلى ربها ناظرة وهم الذين كانوا فى الدنيا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وأهل الكفر والمعاصى تجئ وجوههم يوم القيامة أيضاً مسودة وخاشعة عاملة ناصبة وباسرة عليها غبرة ترهقها قترة ومحشورة إلى الجحيم ومسحوبة إلى النار والعذاب الأليم فإذا وقفوا عليها تلفح وجوههم النار فإذا دخلوها فمتقلبة فيها ومشوية بماء الحميم ، هذا بخلاف الحديث عن الوجوه المتقية التى يتوقى أصحابها النار بها ، والمنكبة والمساءة والمطموسة وهى المعكوسة خلقاً وخلقاً إلى غير ذلك مما يطول المقام بذكره هنا و الذى يعرف فى موضعه من هذه الدراسة لأجل ذلك كله اعتزمت بعد أن استخرت الله تعالى على جمع أخبار هذه الوجوه وأحوالها كما جاءت فى كتاب الله تعالى فى مصنف منفرد بها يرجع إليه عند معرفة شرحها وتفسيرها ومعرفة لطائفها وأسرارها وقد أسميت هذا البحث " أحسن الوجوه فى حديث القرآن الكريم عن الوجوه.

مرتباً على حسب حروف المعجم حتى انجو من تكرار الأبواب والفصول والمباحث تبعاً لاختلاف المفسرين فى معرفة صاحب هذا الوجه وزمانه ومكانه ، وهل هذا الوصف خاص به فى الدنيا أم عند الموت أم فى الآخرة ؟ وهل يكون حال هذا الوجه كالابيضاض والاسوداد مثلاً فى الجنة أو النار أو قبل ذلك فى عرصات القيامة أو هو عند الموت وساعة الاحتضار ؟ لذلك آثرت هذا الترتيب فراراً مما اختلف فيه إلى ما اتفق عليه بادئاً بأعظم هذه الوجوه وأكرمها وأشرفها قدراً وأعلاها ذكراً ألا " وهو وجه الله تعالى " فالوجوه الباسرة فالخاشعة فالخالية مختتماً ذلك بالحديث عن الوجوه الناعمة والله تعالى أسأل أن يبيض وجوهنا فى الدنيا والآخرة حتى نكون من الناظرين إليه الوافدين عليه فهو أكرم مسئول وأعظم مأمول .

" خطة البحث "

لقد اشتمل هذا البحث على مقدمة و ثلاثة وثلاثين مبحثاً انـدرج تحتهـا مائة و خمسة و ثلاثون مطلبا وقد روعى فى عرض هذه المباحث أن تكون مرتبة على حسب حروف المعجم عدا ما يتعلق بالمبحث الأول والذى اختص بالحـديث عن وجه الله تعالى ؛ لأنه أعظم الوجوه وأشرفها فلا ينبغى تقـديم غيـره مـن الوجوه عليه لأجل مراعاة الترتيب أو غيره ، وعليه جاءت هذه المباحث مرتبـة حسب هذه القاعدة فكان مبتدئها بالمبحث الأول وهو وجه الله تعـالى فالمبحـث الثاني الوجوه الباسرة فالثالث الخاشعة فالرابع الخالية فالخامس العانية فالسادس القائمة فالسابع المبيضة فالثامن المتقلبة فالتاسع المتقيـة فالعاشـر المحشـورة فالحادى عشر المساءة فالثاني عشر المسحوبة فالثالث عشر المسـفرة فـالرابع عشر المسلمة فالخامس عشر المسودة فالسادس عشر المشوية فالسـابع عشـر المصكوكة فالثامن عشر المضروبة فالتاسع عشر المطموسة فالعشرون المغبـرة فالحادى والعشرون المغسولة فالثاني والعشرون المغشـية فالثالـث والعشـرون المكبوبة فالرابع والعشرون الملفوحة فالخامس والعشرون الممسوحة فالسـادس والعشرون المنقلبة فالسابع والعشرون المنكبة فالثامن والعشرون المنكرة فالتاسع والعشرون الموجهة فالثلاثون الموسومة فالحادى والثلاثـون المولية فالثـاني والثلاثون الناضرة فالثالث والثلاثون الناعمة ، ثم كانت الخاتمة بعد ذلك مشـتملة على أهم نتائج هذا البحث وتوصياته ، ثم ذيلت هذا البحث بفهرسين أولهما قـد اشتمل على موضوعات هذا البحث و ثانيهما على مصادره ومراجعه التى استقيت منها معارفه ومسائله والله أسأل أن يرزقنى التوفيق مع التحقيق ، والعون مـع السداد والتدقيق إنه سبحانه الرب المجيب وهو السميع القريب.

المبحث الأول : وجه الله

المطلب الأول : الورود

(لقد تعددت العبارات وتنوعت فى التعبير عن وجه الله ــ جل وعز ــ فأحياناً تكون بصيغة " وجه الله " مضافاً إلى لفظ الجلالة وذلك فى خمس مرات كقوله تعالى " فأينما تولوا فثم وجه الله " البقرة (١١٥) ، وقوله " وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ " البقرة (٢٧٢)، وقوله " ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ " الروم (٣٨) ، وقوله " وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ " الروم (٣٠) ، وقوله " إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا " الإنسان (٧٦) ، وأحياناً يأتى مضافاً إلى لفظ الربوبية وذاك فى ثلاثة مواضع وهى قوله تعالى : " وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ...الآية" الرعد (٢٢) ، وقوله : " وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " الرحمن (٢٧) ، وقوله " وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى " الليل (١٨ ، ١٩) ، وفى ثالثة يأتى مضافاً إلى ضمير الغائب وذاك فى ثلاثة مواضع أيضاً وهى قوله تعالى : " وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ " الأنعام (٥٢) ، وقوله " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ " الكهف (٢٨) ، وقوله " لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ " القصص (٨٨).

وعلى هذا فقد ذكر وجه الله فى القرآن كله بكل ما تقدم من صيغ الإضافة إحدى عشرة مرة [١] .

---

(١) أنظر المعجم المفهرس ص٨٣٤ – ٨٣٥ والدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٩٠٦ وجه .

المطلب الثاني : المعنى

وجه الله من الصفات الخبرية التى اختلف الناس فى المراد بها كاليد والعين ونحو ذلك مما أثبته الله لنفسه فى كتابه ، أو أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فيما ورد عنه من صحيح الآثار أو حسان الأخبار وحاصل ما ذكره أهل العلم فى تلك المسألة أربعة أقوال :

الأول :- حمل هذه الصفات ومنها وجه الله على حقيقتها مع التنزيه المطلق لله فالله له وجه هو أعلم به تعالى هذا الوجه غير ذاته لكن الجزم بحقيقة هذا الوجه لا يمكن تقريره ، ومن هنا فهؤلاء يثبتون ما أثبته الله لنفسه دون كم ولا تكييف .

الثاني : حمل الوجه على حقيقته مع التجسيم والتشبيه وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة الذين شبهوا الله بخلقه وأخذوا بظاهر هذه الصفات ونسبوها إليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالله عندهم له يد كأيدينا ، ووجه كوجوهنا ، وعين كأعيننا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

الثالث : حمل الوجه على المجاز ولكن أصحاب هذا القول قد اختلفوا أيضاً فى بيان المراد من هذا المجاز فقيل الوجه بمعنى الذات أى ويبقى ذات ربك عبر بالجزء وأراد الكل . وهؤلاء قد دخلوا تحت المعطلة والنفاة لهذه الصفات إذ إن عين مذهبهم يثبت على أن صفاته تعالى عين ذاته فوجهه تعالى وبصره وسمعه ما هى إلا الذات فلا سمع ولا بصر ولا وجه وإنما هى صفات عبر بها عن ذاته .

وقيل : وجه الله أى : ثوابه ونعمه وإحسانه وجوده فمعنى قوله تعالى " يريدون وجهه " الكهف " أى ثوابه وأجره ، وقيل : الوجه بمعنى القبلة والجهة

فقوله تعالى " فثم وجه الله " أى جهته وقبلته إلى غير ذلك من المعانى التى تندرج تحت القول بالمجاز والتى ذكرها ابن القيم فى الصواعق المرسلة ورد عليها بما يقارب خمسة وعشرين وجهاً

الرابع :- إمرار هذه الصفات وتقريرها مع السكوت عن حملها على أى وجه وعدم الخوض فى كونها حقيقة أو مجازاً والاكتفاء بتلاوتها كما جاءت فى كتاب الله تعالى وتفويض علم حقيقتها وكنهها إلى منزل هذا الكتاب العزيز وهذا المسلك هو أقوم المسالك وأهدى السبل وأرشد ما ورد من مذهب السلف من الصحابه والتابعين رضى الله عنهم وما ورد عن بعضهم أنه أولها وفسرها بما يتوافق مع بعض الأقوال المتقدمة فهذا لا يتعارض لمن دقق النظر مع مسلكهم هنا ، وقد عرض ذلك كثير من العلماء فى مصنفاتهم عند عرضهم لتلك المسألة وأزالوا هذا التعارض فى كلامهم وردوا على من احتج بهذه النقول عنهم وأبانوا عن حقيقة مذهب هؤلاء السلف .(١)

* **أقول** :-

وعندى أن القول الأخير هو المعتمد من مذهب أهل السنة والسلف الصالح وهو إمرار هذه الصفات كما وردت فى الكتاب والسنة دون تأويلها .

ولا خوض فيها وأن هذا من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله وقد قال سبحانه "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم الجوزية ص ٤٠٧ وما بعدها والأسماء والصفات للبيهقى ص٣٨٣ والأسماء والصفات لابن تيمية جـ٢ ص٧٧ وشرح الطحاوية فى العقيدة السلفية لصدر الدين على بن أبى العز الحنفى ص٥٧ وما بعدها .

تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" آل عمران (٧) .

وما أجمل قول الراسخين فى العلم كما حكاه عنهم بعد أن أرشدهم إليه ودلهم عليه " والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا "

فالأولى والأحكم والأرشد والأسلم الإيمان بهذه الصفات والاعتقاد بأنها من صفات الله العلا التى أثبتها الله لنفسه ولا يثبت الله لنفسه إلا كل كمال ، ولا ينفى عن نفسه إلا كل عيب ونقص فنحن كذلك نثبت ما أثبته الله لنفسه ، وننفى ما نفاه عنها مع التفويض وإيكال علم حقيقة ذلك كله إلى الله . والله أعلم .

المطلب الثالث : قبس من السنة

الحديث الأول :

قال رسول الله : " جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه فى جنة عدن [١]

قال الكرمانى : (هذا الحديث من المتشابهات فإما مفوض وإما متأول)[٢]

الحديث الثاني :-

عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال : إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه [٣] .

الحديث الثالث :

عن عتبان بن مالك الانصارى ثم أحد بنى سالم قال : غدا على رسول الله فقال : لن يوافى عبد يوم القيامة : لا إله إلا الله يبتغى به وجه الله إلا حرم الله عليه النار [٤] .

---

(١) الحديث أخرجه النجارى عن عبدالله بن قيس كتاب تفسير القرآن باب قوله " ومن دونهما جنتان برقم ٤٨٧٨ ص ١٠٣٢ – ١٠٣٣ ومسلم فى كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم جـ ١ ص ٩١ .

(٢) فتح البارى لابن حجر جـ ١٧ ص ٤٤٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام إن الله لا ينام جـ١ ص ٩٠ .

(٤) اخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب العمل الذى يبتغى به وجه الله ص ١٣٠٧ برقم ٦٤٢٣ .

الحديث الرابع :

قال رسول الله : (إن الرجل إذا قام يصلى أقبل الله عليه بوجهه حتى ينقلب أو يحدث حدث سوء) [١]

الحديث الخامس :-

قال رسول الله : إن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت[٢] .

فهذه جملة من الأحاديث التى تعد من المتشابهات لورود لفظ الوجه فيها وإطلاقه على الله تعالى والتى قد أمسك السلف عن الخوض فيها ولم يصنعوا شيئاً سوى تلاوتها فى آياتها وإمرارها كما سمعوها وحفظوها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله .

وعلى هذا فالخوض فى معرفتها يعد من الجهل بقوله تعالى " والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا "

وإذا كان الراسخون قد فوضوا علم حقيقتها إلى الله تعالى فما بالك بمن دونهم فى الدرجات ومن بعدهم فى المراتب والغايات . والله أعلى وأعلم .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه جـ١ ص ٣٢٧ برقم ١٠٢٣ . و ذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير جـ ١ ص ٣٣٣ برقم ١٦١٤ وقال حسن .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ١٤٨ برقم ٢٨٦٣ وقال هذا حديث حسن صحيح غريب وابن حبان فى صحيحه جـ ١٤ ص ١٢٤ برقم ٦٢٣٣ وأحمد فى المسند جـ٢٨ ص ٤٠٥ وابن خزيمة فى صحيحه جـ١ ص ٢٤٤ برقم ٤٨٣ والالبانى فى التعليقات الحسان جـ٩ ص ٦٦ برقم ٦٢ وقال صحيح .

المبحث الثاني : الوجوه الباسرة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن هذه اللفظة والتى جاءت وصفاً للوجوه لم تأت فى القرآن إلا مرة واحدة وهو الموضع الذى معنا غير أنه قد جاءت بصيغة الماضى فى قوله تعالى (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) سورة المدثر ٢٢ ، لكن ذلك لم يأت كصفة للوجوه أو كحال من احولها وعلى هذا فالوجوه الباسرة لم يجر لها ذكر إلا فى الموضع الذى معنا من سورة المدثر . والله تعالى أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : أما من حيث الاشتقاق : فإن وصف الوجوه بأنها باسرة هو وصف باسم الفاعل ، والمصدر منه البسر بالإسكان بعد الفتح وهو العبوس والاقتضاب يقال وجه باسر أى عابس كالح ، والفعل منه بسر بالفتح يقال بسر الرجل إذا أستعجل الشيء قبل أوانه ، ومنه البسر وهى القروح الممتلئة قيحاً قبل نضجها وفى كل معناه العذاب الذى يجلب الهم والغم على الوجه فيظهر أثره على جهة العبوس [١] (وأما الفاقرة : فهى الراهبة والمصيبة التى تنزل فتقصم فقار الظهر من ثقلها ، وكثيراً ما تستعمل الدواهى فى أسماء يوم القيامة كالحاقة والصاخة والقارعة مما ينزل بالإنسان ولا دفع له عنه) [٢] .

---

(١) معانى القرآن للفراء جـ٣ ص ٢١٢ ومعانى القرآن للزجاج جـ٥ ص ١٩٨ ولسان العرب جـ٤ ص ٥٨ .

(٢) انظر بصائر ذوى التمييز جـ٤ ص ٢٠٩ وعمدة الحفاظ ج ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ومعانى القرآن للفراء جـ٣ ص ٢١٢ .

ثانياً : وأما المعنى : فهذا خبر من الله تعالى عن صنف من الخلق يأتون يوم القيامة ووجوههم عابسة كالحة كارهة للعذاب قبل أن ينزل بهم ، يوقنون أنهم ستنزل بهم داهية شديدة تقصم فقار ظهورهم من ثقلها وتمكنها ، وما أيقنوا بذلك إلا لما شاهدوه من عدل الله بالكافرين ، وإحسانه وجوده على المؤمنين فهم يستحضرون ما سينزل بهم من العذاب فينعكس ذلك على وجوههم فتصبح شاحبة عابسة تعلوها الذلة والصغار وهذا الذى ذكرنا من معنى الآيتين هو المنقول عن مجاهد وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم [١] .

المطلب الثالث : إشكال ورده

قدمنا فى اشتقاق لفظ باسرة أنه من البسر وهو استعجال الشىء قبل أوانه ، ومنه البسر بضمتين وهو ما يكون من قيح فى القرح قبل نضجها ، وعلى هذا فالباسر هو من يظهر العبوس فى غير أوانه وقبل زمانه ، فكيف يتفق هذا المعنى من حيث اللغة مع تفسير الآية ؟ وهى قد ذكرت أن العبوس يتأتى منهم فى يوم القيامة وذلك فى قوله " يؤمئذ " إذاً فالعبوس حاصل فى هذا اليوم وليس قبله ، وقد أزال هذا الأشكال الراغب الاصفهانى بقوله قيل : (إن ذلك إشارة إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النار فخص لفظ البسر تنبيهاً أن ذلك مع ما ينالهم من بعد ، يجرى مجرى التكليف ، ومجرى ما يفعل قبل وقته ويدل على ذلك قوله عز وجل (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) القيامة (٢٥) [٢] .

وعلى هذا الذى ذكره الراغب يكون عبوسهم من توقع ما يعتريهم فى نار جهنم ، وكأن أوان العبوس وإن كان فى يوم القيامة على جهة العموم فإنه حاصل عند دخولهم النار على جهة الخصوص فهذا زمانه ووقته الحقيقى وما قبله كالمقدمة له . والله أعلم .

---

(١) انظر الكشاف جـ٤ ص ٦٥٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٨ ص ٨١٩ .

(٢) المفردات الراغب الاصفهانى ص ٤٣ مادة بسر .

المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه

الظاهر من الآيتين أن حكاية خبر أصحاب هذه الوجوه عقب خبر أصحاب الوجوه الناضرة تلميح يصل إلى حد التصريح بأن أصحاب الوجوه الباسرة كانوا على النقيض فى الأقوال والأفعال فى مقابل عمل أصحاب الوجوه الناضرة وفعلهم. وقد قدمنا هناك فى المبحث السابق أن أصحاب الوجوه الناضرة هم أصحاب النظر إلى وجه الله يوم القيامة من المؤمنين لا سيما فى دار الكرامة وهى الجنة فنستطيع أن نقول أن أصحاب الوجوه الباسرة العابسة الكالحة هم كل من سيحرم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى من الكفرة والفجار .

قال ابن كثير : (هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة بأسرة)[1] وإذا كانت وجوه المؤمنين لما نظرت إلى وجه ربها امتلأت بشراً وسروراً ، وتنضرت فنورت فاستنارت ، ونورت من نور وجه ربها ، فإن من حرم هذا النور صار فى ظلمة ، وعبس وجهه وكلح واعتراه الهم والغم لما جرى على وجهه من الحرمان ، وتوقع نزول الداهية العظيمة به بدخوله فى نار جهنم قال الكلبى (الفاقرة هى أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه)[2] فكلام الكلبى هنا مطابق لما ذكرنا من أن أصحاب هذه الوجوه هم من سيحرمون ويحجبون عن النظر إلى وجه الله تعالى

والله أعلم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٨ ص ١٧٩ .

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ٣٠ ص ٣٧٧ .

المبحث الثالث : الوجوه الخاشعة

المطلب الأول : الورود

لقد ذكر الله هذه الوجوه وصفاتها وأحوالها وأحوال أصحابها فى موضع واحد من كتابه العزيز وذلك فى سورة الغاشية فى سبعة آيات منها تحدث فيها وأخبر عن زمان هذا الخشوع ومكانه وصفته ، ومصير هؤلاء الخاشعين ، وشرابهم وطعامهم فى خبر مثير ووصف خطير .

قال تعالى : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً . تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ . لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ " سورة الغاشية من (١ : ٧) .

ومن هنا يعلم أنه لا ورود لخبر هذه الوجوه إلا هنا فى موضع سورة الغاشية، فلم يأت ذكر لهذه الوجوه فى غير هذا الموضع من كتاب الله العزيز ، غير أن الله قد ذكر فى معرض حديثه عن موقف الظالمين يوم القيامة وبيان مصيرهم أنهم يعرضون على النار فى ذلة وخشوع واستسلام وخضوع وذلك فى قوله تعالى : " وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ " الشورى الآيتان (٤٤ ، ٤٥) .

نجد أن هذا الموضع ليس صريحاً فى وصف الوجوه بلفظ الخشوع ، بل يصلح أن يكون الخشوع مضروباً عليهم فى جميع أحوالهم وأعضائهم وأركانهم ، وإن كان هذا الوصف بالوجوه أليق وأدل وأخص ؛ لأنها المنوط بالتعبير والإفصاح عن أحوال أصحابها [١].

---

(١) انظر : المعجم المفهرس ، ص ٨٣٥ .

المطلب الثاني : شرح صفات هذه الوجوه ومعانيها

الملاحظ فى الآيتين الثانية والثالثة من سورة الغاشية أن الله وصف هذه الوجوه بثلاثة أوصاف أولها : أنها خاشعة ، ثانيها : أنها عاملة ، ثالثها : انها ناصبة وهذه الأوصاف لا شك أنها تحتاج إلى شرح ودراسة حتى تفهم معانيها وتعرف خبرها وما فيها على النحو التالى :

الوصف الأول :

لقد اختلف المفسرون قديماً وحديثاً فى بيان معنى الخشوع الذى وصف الله به تلك الوجوه فى قوله " وجوه يؤمئذ خاشعة " على أقوال ، أجملها لك حتى يسهل استيعابها وفهمها .

القول الأول :

قاله قتادة " وجوه يؤمئذ خاشعة " أى ذليلة فى النار [١]

وهذا هو المفهوم أيضاً من قول سعيد بن جبير : إنها تخشع بعد ذل من عذاب الله فلا تتنعم "[٢] ، وهذا معناه أن هذا الخشوع والخضوع سيكون يوم القيامة كما هو ظاهر قوله تعالى فى بيان مصير هذه الوجوه "تصلى ناراً حامية" ، وأما صفة هذا الخشوع فقد بينه صاحب المعارج بقوله " خاشعة " أى خاضعة خائفة ساكتة منكسرة الأبصار تنظر إلى الأرض من الذلة والضعة وهذا الذى ذكره هو المستفاد من معنى الخشوع فى أصل اللغة [٣].

فقد دار لفظ الخشوع حول معانى (السكون – الخضوع – والذل والانكسار ، وفرق بعضهم بين الخشوع والخضوع فقصر الخضوع على البدن

---

(١) الدر المنثور جـ٦ ص ٦١١ ، ٦١٢ وتفسير الماوردى جـ٦ ص ٢٥٨ وتفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٤١ .

(٢) تفسير الماوردى جـ٦ ص ٢٥٨ .

(٣) انظر : معانى التفكر ودقائق التدبر جـ ١٣ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

فقط ، وجعل الخشوع فى الأبصار والأصوات آخذاً من قوله تعالى " وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا " طه (١٠٨) وقوله " خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ " الشورى (٤٥) . والتخشع تكلف الخشوع وتصنعه [١]

القول الثاني :

قال ابن عباس رضى الله عنهما " تخشع ولا ينفعها عملها " [٢]

والظاهر من هذا الكلام أن ابن عباس لم يفسر الخشوع ، ولعل قوله " ولا ينفعها عملها " ما يشير به إلى إزالة ما أبهم فى الأثر ، وكأنه يقول لما كان خشوعها مصطنعاً متكلفاً فيه لا يقصدون من ورائه إلا الرياء والسمعة والثناء الحسن ، أو أن خشوعهم كان على غير الهدى والسنة كخشوع أهل الرهبنة أو أهل البدع لما كان الأمر كذلك لم ينفعهم عملهم ولا خشوعهم ، ولعل هذا هو مقصود الماوردى بقوله " أن تكون خاشعة لتظاهرها بطاعته بعد اعترافها بمعصيتها " [٣] فقوله لتظاهرها " بطاعته " يتوافق مع ما قدمناه من أن مقصود ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ خشوعهم كان متكلفاً ومصطنعاً بغض النظر عن زمان هذا الخشوع ومكانه أكان ذلك منهم فى الدنيا أم يكون فى الآخرة بعد اعترافهم بمعاصيهم وتذللهم بين يدى الله ظانين أن خضوعهم هذا وذلهم نافع لهم ومفيد فى نجاتهم .

القول الثالث :

قال السمرقندى (خاشعة أى خائفة) [٤]

وهذا يدل على أن خشوعهم حاصل منهم يوم القيامة ؛ لأنه محل الفزع والخوف لأهل الكفر والمعاصى ؛ إذ لو كان خشوعهم وخوفهم فى الدنيا لساقهم

---

(١) انظر مادة خشع فى لسان العرب جـ٨ ص ٧١ والمصباح المنير ص ٦٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤ ص ٢٤١ .
(٣) النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٨ .
(٤) بحر العلوم جـ٣ ص ٥٧٤ .

ذلك إلى الإيمان والصلاح والتوبة بعد الحوبة ولكان خشوعاً محموداً وليس مذموماً كما هو الحال فى الآية .

الترجيح :-

بالنظر إلى هذه الأقوال الثلاثة المتقدمة يتبين للناظر أنها جميعاً ليس بينها تعارض ولا تضاد فى المعنى ، فحمل الخشوع على الخضوع والسكون لا ينفك عن قول من قال إنه التظاهر بالطاعة فلا يصح إطلاق لفظ الخشوع على المتظاهر بالطاعة إلا إذا خضع وسكن وظهر من حاله التذلل والتخشع وهذا يسوقه حتماً إلى إظهار الخوف والوجل كما هو فى القول الثالث ، وعلى هذا فالأرجح أن يحمل لفظ الخشوع على كل ما تقدم دون تخصيص معنى أو ترجيحه على الآخر ؛ وذلك لأن حال هؤلاء المذكورين فى الآية يدل على اجتماع ذلك كله فيهم خاصة إذا وقفوا أمام رب العالمين فأمر بهم إلى الجحيم ..... والله أعلم .

الوصف الثاني :

قوله تعالى " عاملة " لقد ذكر المفسرون فى معنى هذا الوصف الذى وصف الله به وجوه أهل النار ثلاثة أقوال :

القول الأول :

إنها عاملة فى الدنيا بالمعاصى والشهوات والإنكباب على الملذات المحرمة والمتع الفانية .

وهذا قول عكرمة والسدى[١] وهو المفهوم من كلام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية[٢] ، وذكره ابن عجيبة وصدره بصيغة التضعيف [٣] .

---

(١) انظر : النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٨ وزاد المسير جـ٤ ص ٤٣٤٥ ، ٤٣٥ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤ ص ٢٤٢ .

(٣) انظر : البحر المديد جـ٨ ص ٣١٢ .

* **أقول** :

وهذا القول ينطبق على عصاة المؤمنين وضعفاء الدين فضلاً عن غيرهم من أهل الملل الباطلة والنحل الفاسدة الذين يعملون بالمعاصى والسيئات ، وينكبون على المحرمات من المطعومات والمشروبات وغيرها مما تثقل به موازين سيئاتهم فى الاخرة ، وفى هذا المعنى جاء قول النبى صلى الله عليه وسلم " إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة " وقال أبو هريرة أقرءوا "فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا" الكهف (١٠٥) [١] .

القول الثاني :

" هم الذين عملوا كثيراً ولكن عملهم كان على غير ملة الإسلام كاليهود والنصارى والمشركين عامة وأهل الكفر والإلحاد الذين لا يؤمنون برب ولا دين فأعمالهم عليهم مردودة فى الدنيا لا ينتفعون بها يوم القيامة وهذا قول حكاه " عطاء عن ابن عباس " [٢] .

وفى هذا المعنى قوله تعالى : " وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا " الفرقان (٢٣) ، وقوله " مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ " إبراهيم (١٨) ، وقوله " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " النور (٣٩) . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أعمال كل من أعرض عن الإسلام ولم يرتضه ديناً ، ولم يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً فأعماله فى الآخرة ضائعة وإن كانت فى الدنيا كثيرة

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه – كتاب التفسير باب " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً " ص ٩٨٩ برقم ٤٧٢٩ .

(٢) انظر زاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

وشائعة وفى الحديث (أن عائشة رضى الله عنها قالت : " قلت يا رسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه قال لا ينفعه إنه لم يقل يوماً يا رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين " [١] .

قال القاضى عياض رحمه الله تعالى (وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ، لكن بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم) [٢] .

* **أقول** :-

وعلى هذا فإنه لا عبرة بعمل العامل إذا ما مات على كفره سواء أكان من اليهود والنصارى أو من غيرهم من عبده الأوثان والأصنام ، أو من أهل الإلحاد بغض النظر عن قلة العمل أو كثرته . والله أعلم .

القول الثالث :

إنها عاملة فى النار حيث تكلف بأعمال شاقة فى جهنم بجوار ما هم فيه من العذاب والعقاب ، وهذا قول (قتادة بن دعامة السدوسى ومقاتل بن سليمان والضحاك بن مزاحم) [٣] .

وهذا الوارد عن ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : (تخوض كما تخوض الإبل فى الوحل [٤] .

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه – كتاب الإيمان – باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل جـ١ ص ١١٠ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى جـ٣ ص ٨٧ .

(٣) انظر النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٨ وزاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

(٤) السراج المنير جـ٤ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

وقال سعيد بن جبير عن قتادة (تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله تعالى فأعملها وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقال وحمل الأغلال والوقوف حفاة عراة فى العرصات فى يوم كان مقداره ألف سنة) (١) .

قال الحسن : (لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب له ، فأعملها وأنصبها فى جهنم) (٢).

* **أقول** :

فهذه جملة من الآثار تكشف عن حقيقة عمل أصحاب هذه الوجوه الخاشعة التى طالما استكبرت على أن تعمل لله فى الدنيا ، فكان الجزاء من جنس العمل ، فقضى الله عليهم أن يعملوا فى النار عملاً شاقاً يناسب ما كانوا عليه من المعاصى والأوزار مع العذاب والنكال الذى استحقوه بمخالفة العزيز الجبار .

قال ابن عجيبة (أى تعمل أعمالاً شاقة فى النار ، تتعب فيها من جر السلاسل والأغلال ، والخوض فى النار خوض الإبل فى الوحل ، والصعود والهبوط فى تلال النار ووهادها) (٣) .

* **أقول** :

والظاهر من قوله تعالى " وجوه يؤمئذ خاشعة عاملة ناصبه " أن ذلك حاصل فى يوم القيامة وليس فى الدنيا كما هو فى القولين الأول والثاني ، وسيأتى مزيد بسط وتفصيل بعد الحديث عن معنى قوله ناصبة " عند الكلام عن الترجيح .

---

(١) السراج المنير جـ٤ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

(٢) السراج المنير جـ٤ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

(٣) البحر المديد لابن عجيبة جـ٨ ص ٣١٢ .

الوصف الثالث :

قوله تعالى " ناصبة "

وقد اختلفت أقوال أهل التفسير فى المراد بانتصاب هذه الوجوه وحالها الذى تكون عليه ، وهل هذا حاصل فى الدنيا أم فى الآخرة وذلك فى أقوال نفصلها هكذا ".

القول الأول :

وخلاصته أن هذه الوجوه ناصبه ، تعبة ، قائمة فى العذاب لا راحة لها ولا انقطاع لها من العمل الشاق فى النار فانتصابها يكون فى جهنم جزاء ما صنعته فى الدنيا ، وهذا قول ابن عباس وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومقاتل [١] .

وهذا هو الذى عناه قتادة بقوله : " تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله تعالى فأعملها الله وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة فى العرصات فى يوم كان مقداره ألف سنة " [٢] .

وإلى هذا القول ذهب ابن الجوزى[٣] والسمر قندى[٤] .

وعلى هذا القول يكون ارتباط قوله تعالى " عاملة ناصبه " بقوله بعد ذلك " تصلى ناراً حامية " ظاهراً فى أن كل ذلك حاصل لهم وواقع عليهم فى جهنم ، ويكون ارتباط الآيتين قوى المناسبة بين الصلة .

---

(١) انظر : الدر المنثور جـ٦ ص ٦١١ ، ٦١٢ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤ ص ٢٤١ ، والسراج المنير جـ٤ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ وزاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

(٢) السراج المنير جـ٤ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

(٣) انظر زاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

(٤) انظر بحر العلوم جـ٣ ، ص ٥٧٤ .

القول الثاني :

وحاصله " أن هذه الوجوه قد نصبت أصحابها فى المعاصى ، وانغمسوا فى الشهوات والملذات المحرمة حتى أنستهم الآخرة وما فيها من عذاب ونكال . قال ابن عباس " هم الذين أنصبو أنفسهم فى الدنيا على معصية الله تعالى على الكفر مثل عبده الأوثان والرهبان وغيرهم لا يقبل الله تعالى منهم إلا ما كان خالصاً له " [١] .

وقد عرض هذا القول أيضاً الماوردى ولم يعزه لأحد [٢]

* **أقول** :-

وتفسير النصب وحمله على أنه كان فى الدنيا بالعمل فى المعاصى إلى حد التعب والإعياء كما قال صاحب معارج التفكر وهو يشرح معنى النصب [٣] . يستلزم أن يحمل وصف هذه الوجوه بأنها عاملة على معنى العمل فى الدنيا فى المعاصى والسيئات حتى يتعانق الوصفان ويكون زمنهما واحداً وهو أن ذلك كان من أصحاب هذه الوجوه فى الدنيا ولا يصلح أن تكون عاملة فى النار ناصبه فى المعاصى فى الدنيا ؛ لأن ذلك يجعل النظم القرآنى مفككاً وأسلوب الآيات منقصاً بعضه عن بعض وهذا يقدح فى إعجاز القرآن وبلاغته .

القول الثالث :

وحاصله أن هذه الوجوه ناصبه بين يدى الله يوم القيامة مستجيرة بعفوه وهذا قول حكاه الماوردى ولم ينسبه [٤] .

---

(١) السراج المنير جـ٤ ص ٦٠٢ ، ص ٦٠٣ وزاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

(٢) انظر النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٨ .

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر جـ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٤) انظر النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٨ .

المطلب الثالث : زمان هذه الصفات

الزمان والترجيح :

الناظر فى قوله تعالى : " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ " يرى أن الله وصف هذه الوجوه بثلاث صفات متتابعة دون أن يفصل بينها بعاطف يفيد الاختلاف فى الزمان أو المكان ، وإنما عطف بعضها على بعض بصيغة تجعلها تعود إلى موصوف واحد ، ومن هنا كان الأولى بالقبول عندى والأرجح بعد عرض كل هذه الأقوال أن تحمل هذه الأوصاف الثلاثة على أنها أوصاف ذم لأناس شغلوا عن طاعة الله ، وتكبروا على شرعه ودينه فجازاهم الله فى الآخرة من جنس عملهم فى الدنيا .

فتكبر هذه الوجوه فى الدنيا أورثها ذلاً فى الآخرة ، وركونها إلى الدعة والراحة فى دنياها بالقعود عن القيام بما أفترضه الله عليها من العمل بطاعته والانشغال بمرضاته أورثها عملاً شاقاً فى النار تنتصب له وتقوم عليه مستمرة ودائمة على ذلك لا يحول عنها ولا يزول ، وعلى ذلك فالأوصاف الثلاثة حاصلة فى الآخرة فخشوعها وعملها ونصبها حاصل يوم القيامة فى الموقف والعرصات وفى النار والدركات بسبب ما اقترفوه فى الدنيا من المعاصى والسيئات ، وهذا الذى رجحته هو الذى ذهب إليه ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير [1] وشهدت له الآيات والكلمات وذلك من خلال أدلة ثلاثة أجملها لك هكذا :

الأول :-

أن قوله تعالى وجوه يؤمئذ خاشعة قد أجمع أهل التفسير على أن هذه الآية وما بعدها من آيات إنما تتحدث عن يوم القيامة وما يكون فيه من حال أهل الشقاء وأهل السعادة ، فكان المناسب لأوصاف أصحاب هذه الوجوه أن تحمل

(١) انظر الدر المنثور جـ٦ ص ٦١١ ، ابن ابى حاتم جـ١٠ ص ٣٤٢٠ .

على أنها واقعة فى الآخرة ، ومتحققة يوم القيامة فما خشوعها وعملها ونصبها إلا ذكر لحالها ومصيرها ومآلها فى نار ربها فقوله تعالى " وجوه يؤمئذ خاشعة " تصريح فى وقوع أوصاف هذه الوجوه يوم القيامة وليس فى الدنيا كما سبق فى بعض الأقوال .

الثاني :-

إن حمل هذه الأوصاف على أنها حاصلة فى الآخرة يحافظ على نظم القرآن وأسلوبه وبلاغته وإعجازه ؛ إذ يجعل المعنى مترابطاً متناسقاً يأخذ بعضه بحجز البعض ؛ وذلك بجعل زمان الأوصاف الثلاثة زماناً واحداً بخلاف ما سبق عرضه من الأقوال والتى فى بعضها أن الخشوع فى الدنيا ، والعمل والنصب فى الآخرة ، أو أن الخشوع والعمل فى الدنيا والنصب فى الآخرة ، وهذا يتعارض مع ما درج عليه أسلوب القرآن ونظمه من توحد الأوصاف والضمائر وعودها على أقرب مذكور سواء أكان هذا المذكور زماناً أم مكاناً أم ذاتاً إلى غير ذلك ، وإذا كان الله يحدثنا فى هذه الآيات عن أصحاب هذه الوجوه وحالهم يوم القيامة ، فحمل أوصافهم على أنها حاصلة فى الدنيا فيه ما فيه من الفصل بين الأوصاف وأصحابها ، فكيف يسوغ فى المعنى أن يكون المتحدث عنه زمن فى الآخرة وأن أوصافه حادثة فى الدنيا .

من هنا كانت المحافظة على أسلوب القرآن ونظمه هنا ، وفى غير هذه الآيات محافظة على إعجازه وبلاغته .

قال الزمخشرى عند تفسيره لقوله تعالى فى شأن كليم الله موسى عليه السلام: " أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي " طه (٣٩) : (فإن قلت : المقذوف فى البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل ؟ قلت: ما ضرك لو قلت المقذوف والملقى هو موسى فى جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر ،

فيتنافر عليك النظم الذى هو أم الإعجاز ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر) [١] فما أشبه ما أسقطه الزمخشرى على ما رجحناه هنا من كون الأولى حمل هذه الأوصاف على زمن واحد حتى لا يتفكك النظم القرآنى .

الثالث :-

أن الله يحكى بعد هذه الآيات التى معنا حال السعداء وأهل النعيم فى الآخرة وذلك فى قوله " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ " ولا شك أن ذلك كله حاصل فى الآخرة ، فكيف يحمل زمن أوصاف الوجوه الخاشعة على الدنيا والحديث عنها واقع فى مقابلة الحديث عن أصحاب الوجوه الناعمة والتى تنعم بجنة ربها فى الآخرة ، فلما كان حديث السورة منصباً على مقابلة حال هؤلاء بحال هؤلاء ، كان الأليق بالمعنى والأولى بالقبول أن يكون ذلك كله حاصلاً فى الآخرة واقعاً يوم القيامة ؛ فالتفريق بين حال هؤلاء وحال هؤلاء فى الزمان لا يبعث على اكتمال الصورة فى ذهن المستمع واستحضار هيئة الفريقين ؛ إذ كيف تتم المقارنة بين حالهما وهؤلاء أعنى أصحاب الوجوه الخاشعة يحكى الله ما كانوا عليه فى الدنيا بينما هؤلاء أعنى أصحاب الوجوه الناعمة يحكى الله عما آل إليه مصيرهم من النعيم المقيم الذى لا ينفك عنهم أبداً ، فالحاصل من كل ما تقدم أن المقابلة بين أصحاب الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة مع توحد النظم والأسلوب للآيات كل ذلك شاهد ومرجح على كون ذلك كله حاصلاً يوم القيامة . والله أعلم .

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التاويل جـ٣ ص ٦١ .

المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه

قد ذكر المفسرون فى بيان أصحاب هذه الوجوه أقوالاً هاك بيانها :

القول الأول :

أنهم اليهود والنصارى خاصة المتعبدين منهم فى الأديرة كالرهبان وغيرهم وهذا (قول ابن عباس والسدى) [(١)] ويستشهد لهذا القول بما حكاه أبو عمران الجونى حيث قال (مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه براهب فوقف ، ونودي الراهب فقيل له : هذا أمير المؤمنين فاطلع فإذا إنسان من الضر والاجتهاد وترك الدنيا ، فلما رآه عمر بكى ، فقيل له إنه نصرانى ، فقال قد علمت ولكنى رحمته ذكرت قول الله (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً) فرحمت نصبه واجتهاده وهو فى النار) [(٢)] .

* **أقول** :-

فإسناد الخشوع والعمل والنصب إلى المتعبدين من اليهود والنصارى ظاهر بمقتضى هذه الرواية ، بل صرح السمرقندى بأنها فى الرهبان خاصة وذلك فى قوله: (يقال نزلت فى رهبان النصارى عاملة فى الدنيا ، ناصبة فى العبادة أشقياء فى الدنيا والآخرة) [(٣)] .

وتصديره الكلامين بقوله : " يقال " يأبى أن تكون الآيات خاصة فيهم ؛ إذ هى صيغة تمريض وتضعيف .

---

(١) انظر ابن ابى حاتم جـ١٠ ص ٣٤٢٠ برقم ١٩٥٣ وتفسير السمعانى ج ص ٥١٤ .

(٢) الدر المنثور جـ٦ ص ٦١٢ ، وعزاه لابن المنذر وعبد الرازق والحاكم ورواه الحافظ بن كثير عن ابن بكر البرقانى جـ ٨ ، ص ٢٤١ والأثر أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب التفسير جـ٢ ص ٥٦٧ برقم ١٠٦٣ وقال (هذه خيانة فى وقتها فإن ابا عمران الجونى لم يدرك زمان عمر ووافقه الذهبى على ذلك.

(٣) بحر العلوم جـ٣ ص ٥٧٤ .

القول الثاني :

قال مقاتل بن سليمان هم الكفار[١] وحكاه الماوردى وعزاه إلى يحيى بن سلام[٢]

* **أقول** :-

وكون أصحاب هذه الوجوه من أهل الكفر فهذا عام يدخل تحته القول الأول ؛ إذ إن كل ملة بعد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ملة باطلة وأصحابها باطل عملهم ، ومن يتمسك بها يصح إطلاق لفظ الكفر عليهم ولا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلا قال تعالى " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " آل عمران (٨٥) .

بقى استدلال أصحاب هذا القول على أن الوجوه فى الآيات إنما هى وجوه الكافرين ، وقد تحصل لى من خلال كلامهم دليلان **أولهما** : أن الأوصاف التى ذكرتها هذه الآيات لا تنطبق إلا على الكافرين قال صاحب روح البيان (المراد بأصحاب الوجوه هم الكفار بدلالة ما بعده من أوصاف) [٣] .

وعلى هذا فهو قد قصر وصف هذه الوجوه بالخاشعة والعاملة والناصبه على الكافرين ؛ لإن ذلك هو الأليق بحالهم فى النار ، وهذا ما صرح به الصابونى فقال : (هذه الآية فى الكفار يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال ، وخوضهم فى النار خوض الإبل فى الوحل ، والصعود والهبوط فى تلالها ودركاتها كما قال تعالى " إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ " غافر (٧١ ، ٧٢) وهذا جزاءهم[٤]) .

---

(١) فتح القدير جـ٥ ص ٥٥٣ .

(٢) انظر النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٨ .

(٣) روح البيان جـ١٠ ص ٤١٢ .

(٤) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٥٢٤

فجميع ما ذكرته الآيات من صفات الوجوه وعاقبة أصحابها من دخول النار، وبيان سقياهم من حميمها ، وذكر طعامهم الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع كل ذلك لا ينطبق إلا على أهل الكفر والإلحاد ولأنهم الأولى به والأليق بحالهم .

ثانيهما :

ما ذكره مقاتل بن سليمان فى قوله (يعنى الكفار ؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله) [١] .

وقال الصابونى أيضاً (وهذا جزاء تكبرهم فى الدنيا على عبادة الله وانهماكهم فى اللذات والشهوات) [٢] .

* **أقول** :-

وحمل تكبرهم على أنه السبب فى تخصيص الكافرين بهذه الآية قد يعكر عليه انطباق هذا الوصف على بعض المسلمين ، ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فليس التكبر خاصاً بالكافرين فقط اللهم إلا إذا حملنا لفظ التكبر على عدم اعترافهم بوجود الله مع قيام الحجة ووضوح البرهان القاطع ، والدليل الساطع على وحدانيته سبحانه، فمن خلال الآيات المنزلة على الرسل والأنبياء خاصة ما نزل على النبى العدنان صلى الله عليه وسلم ، والآيات المنصوبة فى الكون الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه وحكمته خاصة ما هو مشاهد ومحسوس فى هذا الكون الفسيح فتكبرهم من هذا القبيل يصح قصره عليهم ودليله فى التنزيل العزيز " إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ " الصافات (٣٥) . وقوله فى شأن الكافرين " وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ

---

(١) فتح القدير جـ٥ ص ٥٥٣ .

(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٥٢٤ .

وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ " الأنعام (٩٣) ، وقوله فى بيان عاقبة من استكبر عن توحيد الله وعبادته " وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا " النساء (١٧٣) . والآيات فى هذا المقام كثيرة .

والحاصل أن هذا الفريق قصر هذه الوجوه على أنها وجوه الكافرين فقط ؛ لأن الاستكبار عن قول لا إله إلا الله والإعتراف بالوحدانية لم يقع فى الدنيا إلا منهم .

القول الثالث :

إنهم الخوارج ، إن أصحاب هذه الوجوه هم أهل البدع من هذه الأمة كالخوارج ونحوهم ممن يتعبون أنفسهم زهداً وورعاً ، وينتصبون فى العبادة والذكر وقراءة القرآن وهم على غير الهدى النبوى قد أحدثوا فى الدين وابتدعوا وأقاموا على بدعهم حتى ماتوا ، أو كانوا على الهدى ولكنهم ما أخلصوا فى عبادتهم ، بل رائوا بها وابتغوا بها غير وجه الله ، وأحبوا الثناء والشهرة وأن يذكر عملهم عند الناس ، وقد جاءت الأحاديث بهلاك الفريقين فى الآخرة ، فأما أصحاب البدع كالخوارج فقد ذكر ابن تيمية فى الفتاوى أنه يجوز أن تحمل الوجوه فى الآيات التى معنا على هؤلاء فقال (وربما تؤولت فى أهل البدع كالخوارج)[1] .

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم الخوارج فى السنة وذكر أمارتهم والدلائل الكاشفة عنهم بما جعل أصحاب هذا القول ينزلون الوجوه الخاشعة العاملة الناصبه عليهم من هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم " إن بعدى من أمتى ، أو سيكون بعدى من أمتى قوم يقرءون القرآن ، لا يجاوز حلوقهم

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ١٦ ص فصل فى تفسير قوله تعالى " هل أتاك حديث الغاشية "

يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيه ، هم شر الخلق والخليقة " [١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : (سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة قوم يحسنون القيل ، ويسيئون الفعل يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه ، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم ، قالوا يا رسول الله : مَا سِيمَاهُمْ ؟ قال : " قَالَ التَّحْلِيقُ ") [٢] .

ولكن يعكر على هذا القول أن هذه الأوصاف الواردة فى هذه الأحاديث والتى حملتها الأمة على الخوارج ومن نهج نهجهم تجعل آيات سورة الغاشية قد نزلت فى قوم لم يكونوا موجودين عند نزولها ، وإنما هى تصف حال من سيأتى بعد ممن تنطبق عليه هذه الأحاديث ، كما أن هذا القول يجعل وصف الوجوه بالخشوع والعمل والنصب حاصلاً منهم فى الدنيا مع كثرة عبادتهم وزهدهم وقد أسلفنا أن الأرجح حمل هذه الأوصاف على أنها حاصلة يوم القيامة ، وأما الأحاديث الدالة على هلاك أهل الرياء والسمعة وعدم قبول أعمالهم مهما كثرت وعظمت ، ومهما تعبوا فى الإتيان بها على الوجه الأكمل فى الظاهر فكثيرة منها :-

ما رواه الحاكم فى المستدرك بسنده . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقضى بينهم ، وكل أمة جاثية فأول من يدعون رجل جمع القرآن ، ورجل يقتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله : للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي قال : بلى يا رب – قال : فماذا عملت فيما علمت . قال :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب الخوارج شر الخلق والخليقة جـ١ ، ص٤٢٥–٤٢٧ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في سننه- كتاب السنة- باب في قتال الخوارج ٤/ ٢٤٤ برقم٤٧٦٥ .

كنت أقوم به أناء الليل وأطراف النهار فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة له كذبت فيقول الله عز وجل : أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ، ويؤتى بصاحب العمل فيقول ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى . قال : فماذا عملت فيما أتيتك ؟ قال كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ، ويؤتى بالرجل الذى قتل فى سبيل الله فيقال له فيما قتلت ؟ فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة له كذبت ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبته فقال : يا أبى هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " [1] .

* **أقول** :-

فها أنت ذا قد رأيت أن أصحاب هذه الأعمال من قراءة القرآن وقيام الليل والصدقة والجهاد قد عملوا فيها حتى أصابهم النصب والتعب ومع ذاك كانوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ، وعلى هذا فإن من جعل أهل البدع والخوارج هم أصحاب الوجوه الخاشية قد أستند إلى هذا الحديث ونحوه ، ولكن يعكر على هذا القول أن خشوع هؤلاء الوارد ذكرهم فى الحديث السابق وعملهم ونصبهم وقع فى الدنيا وقد رجحنا سلفاً أن أصحاب الوجوه الخاشعة قد حمل خشوعهم وعملهم ونصبهم على أنه واقع يوم القيامة . والله أعلم .

---

(١) أحكام الحاكم فى المستدرك فى كتاب الزكاة جـ١ ص ٥٧٩ ، ٥٨٠٠ برقم ١٥٢٧ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص وقال صحيح وأخرجه الترمذى فى سننه – كتاب الزهد باب ما جاء فى الرياء والسمعة جـ٤ ص ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ برقم ٢٣٨٢ وقال هذا حديث حسن غريب .

*** تعليق فى ترجيح** :

الناظر فى هذه الأقوال الثلاثة المتقدم ذكرها يراها جميعاً لا تخلو من الاعتراض والطعن وذلك من جهتين :

أولهما :

أنها حملت لفظ الخشوع والعمل والنصب على ما كان منهم فى الدنيا ، وقد أقمنا الدليل بعد الدليل على أن هذه الأوصاف الثلاثة واقعة يوم القيامة وحين وقوع العذاب عليهم فى نار جهنم .

ثانيهما :-

إن القول بأن أصحاب هذه الوجوه هم اليهود والنصارى أو أصحاب البدع والخوارج ، وكذا قول من قصرهم على أهل الكفر كل ذلك تخصيص بلا مخصص وليس فى الآيات ما يجعلها قاصرة على طائفة دون طائفة وصنف دون آخر .

والأولى عندى حمل الآيات على العموم فيدخل تحته كل ما ذكروه وغيره كأهل الغفلة واللهو واللعب الذين رفضوا التكليفات الشرعية وتأولوا الآيات القرآنية ، وردوا صحيح السنة النبوية متمسكين بضعيف الشبه العقلية، وكذا أهل الانكباب على الشهوات والملذات الذين لا يراعون المحرمات من المطعومات والمشروبات وغيرها مما تطول به الجمل والعبارات ، ويعين على هذا الترجيح أمران ، أولهما : سكوت الآيات عن تحديد المتحدث عنهم وترك ذلك لفكر السامع حتى تتحقق له الخشية ويعتريه الخوف والوجل خشية أن يكون منهم ، فيقيس ما ورد فى الآيات من صفات على ما يفعله من أوزار وسيئات فتعظم من الله رهبته وتتجدد فيه رغبته فيسوقه ذلك إلى التقويم والتعديل والتوبة والإنابة إلى الله الجليل . ثانيهما : ما فى ألفاظ " وجوه وخاشعة وعاملة وناصبة" من التنكير والإبهام الموحى بالعموم والإطلاق ، ولو أنها أتت بصيغ التعريف لأفادت التعيين فإذا انتفى ذلك ثبت نقيضه . والله أعلم .

المطلب الخامس : المسكن والمستقر

قال تعالى : " تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً "

ولنا مع هذه الآية ثلاث وقفات كلها تجتمع فى أن الآية دالة على مصير هذه الوجوه الخاشعة وكاشفة عن مآلهم ، وظاهرة فى بيان مستقرهم ومسكنهم ، والمنزل الذى سينزلونه ويقيمون فيه .

الوقفة الأولى :

وهى تتعلق بلفظ " تصلى " وهو الخبر الرابع من أخبار هذه الوجوه وهو حال من الضمير العائد على الوجوه ، والصلاء بالفتح والكسر هو دخول النار والاكتواء بحرها والاحتماء بلهيبها ، ومعنى اصطلائها شويها كما تشوى الشاة على النار مبالغة فى تعذيبها ، فلفظ الصلاء بالمد وهكذا الاصطلاء يوحى بتقلب هذه الوجوه فى النار مرة بعد مرة حتى يتم اكتوائها وشوائها ؛ لأن هذه الوجوه كم تكبرت عن السجود لربها ، بل ومنها ما كثر خشوعها وتذللها لكن عن رياء وافتخار ، ومن هنا يعلم أن معنى قوله تعالى " تصلى " ظاهر فى بيان مسكنهم ومستقرهم ؛ إذ إن الاصطلاء هو كناية عن دخولهم النار ومقامهم فيها وتعذيبهم بها إلى درجة تؤثر في هذه الوجوه كما تشوى الشاة على النار فبئس المقام والمستقر والمسكن [1] .

الوقفة الثانية :

وهى تتعلق بقوله تعالى " ناراً " وأول ما يطالعك فى هذا اللفظ التنكير الذى هو بادٍ فى هذا اللفظ وهو دال على التفخيم والتعظيم والتهويل فهى نار عظيمة تناسب عظم ما ارتكبته هذه الوجوه ، وثانى ما يطالعك أن هذه النار ليست

---

(١) انظر مفردات الفاظ القرآن ص ٢٩٣ . وعمدة الحفاظ جـ٢ ص ٣٥٢ والتحرير والتنوير جـ١٥ ص ٢٩٦.

كأى نار من نيران الدنيا، بل هى نار حامية قد بلغت النهاية فى الحر والصلاء ولا أدل على ذلك من قول الله تعالى : " نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ " الهمزة (٦ ، ٧) ، وإخباره صلى الله عليه وسلم بأن" ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قيل : يا رسول الله إن كانت لكفاية ؟ قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهم مثل حرها " (١).

بل لقد صرح صلى الله عليه وسلم أنها أسود من نار الدنيا بسبعين ضعفاً حيث قال : " أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى اشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً " (٢).

إلى غير ذلك من الأخبار والآثار الكاشفة عن صفة هذه النار ، وما أعده الله فيها للكفرة والفجار.

فأى حر يكون حرها ، وأى سواد يكون سوادها ، بل وكيف يكون حال من دخلها وأحرق بنيرانها . فاللهم لا تجعل للنار فى أجسادنا نصيباً وألطف بنا حتى تنجينا من دخولها والإصطلاء بعذابها .

الوقفة الثالثة :-

وهى فى قوله تعالى " حامية " وهذا مشعر بشدة حرها وفيه تصريح بأنها قد بلغت النهاية فى الحرارة والإحراق ولا أدل على ذلك من قوله صلى الله

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة برقم ٣٢٦٥ ومسلم برقم ٢٨٤٣ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط جـ ١ ، ص ١٥٥ برقم ٤٨٥ وقال : لم يرو هذا الحديث عن مالك إلا معن تفرد به إبراهيم بن المنذر والهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١٠ ، ص ٣٨٧ برقم ١٨٥٧٦ وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

عليه وسلم " إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد " (١) .

بقى فى هذه الوصفة أن نجيب عن هذا التساؤل ، لم كان وصف النار بإنها حامية وهو وصف بأقل أحوالها ، بل وفى ذكر لفظ النار ما يغنى عنه ؟ وقد أجاب عن ذلك الماوردى بأربعة أجوبة فقال :

الأول :

أن المراد بذلك أنها دائمة الحمى ، وليست كنار الدنيا التى ينقطع حميها .

الثاني :

أن المراد بالحامية أنها حمى يمنع من ارتكاب المحظورات وانتهاك المحارم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم " وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه ، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه " (٢)

الثالث :

معناه تحمى نفسها عن أن تطاق ملامستها أو ترام مماستها كما يحمى الأسد عرينه .

الرابع :

أنها حامية من الغيظ والغضب مبالغة فى شدة الانتقام ، وقد بين الله ذلك بقوله " تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ "الملك (٨) (٣) .

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى المسند جـ ١٢ ، ص ٢٨٠ برقم ٧٣٢٧ وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ٢٠ ، ص ١٢٠ وقال: على شرط الصحيحين .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه برقم ٥٢ ومسلم فى كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم ١٥٩٩ .

(٣) النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٩ .

* **أقول** :

فعلى الجواب الأخير يكون حرها وحميها على سبيل المجاز ، بخلاف الأجوبة المتقدمة فإن ذلك واقع من النار على سبيل الحقيقة سواء أكان حميها لنفسها كالثالث أم لغيرها كالأول والثاني ، وإن كان بعض هذه الأجوبة أولى من بعض خاصة الجواب الأول والذى يفيد أنها مستمرة ودائمة على هذا الحمى ، وتلك الحرارة الشديدة التى لا يعلم قدرها إلا الله ، ويساعد على ذلك مجىء التعبير عن الحمى بصيغة اسم الفاعل فى قوله " ناراً حامية " والتى تفيد الدوام والاستمرار ، خاصة أن قوة نار الدنيا تضعف وتتضآل حتى تخمد على حسب طول الزمن وقصره فلا يستمر إحراقها ولهيبها ولا يبقى حرها على درجة واحدة مع طول فترة إيقادها واشتعالها ، بخلاف نار جهنم أعاذنا الله منها فإن بقائها على حالها واستمرارها على حرها ليس مرتبطاً بالعوامل الزمنية ولا المكانية لما جعله الله سبحانه وتعالى فيها من قدرة على البقاء والاستمرار إلى درجة أن تقول كما حكى القرآن عنها ذلك " هَلْ مِنْ مَزِيدٍ " ق (٣٠) .

والخلاصة :

أن هذه الوجوه الخاشعة تعمل وتنصب فى النار ، وتتعب من جر السلاسل والأغلال فى النار ، وصعود ما فيها من تلال وجبال لتصطلى بحرها وتكتوى بنارها مستمرة على ذلك إلى أن يشاء الله تعالى لا ينقطع عنهم حرها ، ولا يزول عنهم إحراقها .

المطلب السادس : السقيا والشراب

قال تعالى " تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ "

والظاهر من هذه الآية ثلاثة أمور:

أولها :

أن الله اثبت لهم فى هذا الخبر أن لهذه الوجوه الخاشعة والمراد أصحابها سقياً وشرباً وذلك فى قوله" تسقى ".

وثانيها :

أن هذا السقاء وذلك الماء هو من عين معروفة لأهل النار ، كلما أكلهم العطش الشديد وردوا عليها مجبرين غير مخيرين ، وهذا ما يوحى إليه مجيء صيغة السقيا على وزن المفعول وليس على وزن الفاعل كما هو الحال فى قوله تعالى "تصلى" ، فإنه قال هنا " تسقى " ولم يقل تستسق أى أنها مع شدة عطشهم لا يرغبون فى هذا الشراب لما فيه من العذاب ، ولكنهم يدفعون إليه دفعاً ، ويجبرون عليه جبراً وهذا هو المشار إليه فى قوله تعالى " يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ" الحج (١٩،٢٠)، وقوله أيضاً "وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ" محمد (١٥)، ولك أن تلاحظ ما دلت عليه هاتان الآيتان من التعبير بقوله "يصب" وكذا " وسقوا " فكأنهم يذهبون إلى هذه العين ، فإذا نظروا إلى حرها وغليانها تمنعوا ظانين أنهم مخيرون فيسقون منها عنوة قال السدى: (يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته ، فإذا ادناه من وجهه يكرهه فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه، فيفدغ دماغه، ثم يفرع الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه ، فذلك قوله "يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ")[1].

---

(١) الأثر رواه ابن ابى حاتم جـ٨ ص ٢٤٨١ برقم ١٣٨٢٣ ، وذكره ابن كثير فى تفسيره جـ٥ ص ٢٣٧ .

ثالثها :

أن هذه العين شديدة الحرارة والغليان فليس ماؤها يرتوى منه الشارب ، وإنما يزيده عطشاً وحرماناً ، وإليك قطافاً مما ذكره المفسرون فى معنى هذه الآية: " تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ "

قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسدى " قد انتهى حرها وغليانها ، وقال قتادة " إناء طبخها منذ خلق الله السموات والأرض [١] .

وقال ابن الجوزى " متناهية الحرارة قد أوقدت عليها جهنم منذ خلقت ، فرفعوا إليها ورداً عطاشا [٢] .

وحاصل ما تقدم فى معنى الآية أن أصحاب هذه الوجوه الذليلة إذا دخلوا النار فأكلوا من الزقوم والضريع والغسلين ونحوه عطشوا عطشاً شديداً فيسألون الماء كما فى قوله تعالى " وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ " الأعراف (٥٠) ، فإذا يئسو من ذلك سألوا الملائكة والزبانية مستغيثين من هذا العطش الشديد قال تعالى " وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " الكهف (٢٩) ، وقال : "ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ" الواقعة من (٥١ : ٥٤) ، وقال هنا " تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ " أى قد بلغت النهاية فى الشدة والحرارة ، كما قال تعالى " يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ " الرحمن (٤٤) ، فلا يحولون عنه ولا ينقطع عنهم أبد الآبدين حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٤٢ والدر المنثور جـ٦ ص ٦١١ .

(٢) زاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

المطلب السابع : الطعام و الغذاء

قال تعالى : "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ"

والملاحظ أن الله تعالى فى هاتين الآيتين قد نفى عن أصحاب هذه الوجوه ثلاثة أمور وأثبت رابعا ، فأول ما نفاه أن يكون لأصحاب هذه الوجوه الخاشعة طعام نافع لهم ولأجسادهم وأركانهم وأعضائهم يسد جوعهم ويملأ حرمانهم ، وثانى ما نفاه أن هذا الطعام لا يسمن أصحابه إذا أكلوه ، بل يزيدهم جوعاً وحرماناً وثالث ما نفاه أن هذا الطعام لا يغنيهم عن طلب غيره من الطعام ، وهذا معناه أنه طعام يضر ولا ينفع ويجيع ولا يشبع ، وأما ما أثبته فى هاتين الآيتين هو أن لهم طعاماً ضاراً يزيدهم حرماناً وجوعاً ألا وهو طعام الضريع الذى وصفه الله بقوله " لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ " ، وقد ذكر أهل التفسير فى معنى هذا الضريع أقوالاً كثيرة أجملها لك فى ثمانية أقوال :

الأول :

أنه نبات تعرفه قريش من شوك يكون رطباً فى الشتاء ، يابساً فى الصيف تنفر منه الإبل ولا تنتفع به ؛ لأنه من شوك وهو سام أيضاً (قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة) [١] .قال مجاهد : (الضريع نبت يقال له الشبرق [٢] يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس وهو سم) [٣] .

الثاني : إنه شجر من نار :

قاله عبد الرحمن بن زيد وابن عباس من طريق الوالبى [٤] .

---

(١) انظر النكت والعيون جـ٦ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ وزاد المسير جـ٤ ص ٤٣٥ .

(٢) على وزن زبرج .

(٣) صحيح البخارى – كتاب التفسير – باب لتركبن طبقاً عن طبق ص ١٠٥٢ .

(٤) زاد المسير فى علم التفسير جـ٤ ص ٢٣٥ والنكت والعيون جـ٦ ص ٢٦٠ .

الثالث : أنه واد فى جهنم :

حكاه (الشوكانى) [١] ولم يعزه إلى أحد ، والمعنى عليه: ليس لهؤلاء طعام إلا ما يأتيهم من الوادى المسمى فى النار بالضريع ، وعلى هذا فالضريع اسم لهذا الوادى وليس للطعام ، بل هو للمكان الذى يأتى منه هذا الطعام .

الرابع :

قال الخليل : (الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر) [٢].

الخامس :

الضريع الحجارة قاله (سعيد بن جبير) [٣] .

السادس : الزقوم :

ذكره ابن عطية وعزاه إلى الحسن البصرى وجماعة من المفسرين لم يذكرهم ووجهه بقوله : (لأن الله تعالى قد أخبر فى هذه الآية أن الكفار لا طعام لهم إلا من ضريع ، وقد أخبر أن الزقوم طعام الأثيم ، فذلك يقتضى أن الضريع الزقوم)[٤]....

قلتُ وهذا ليس مرشحاً لحمل الضريع على الزقوم؛ لأن الله ذكر أيضاً الغسلين وذكر أنه طعام الخاطئين فقال " فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ " الحاقة (٣٥ : ٣٧) ، فلماذا حملتَ الضريع على الزقوم ولم تحمله على الغسلين أيضاً والعلة واحدة فالكل مخطئ والكل آثم ؟ والعجيب أن ابن عطية صدر به الأقوال عنده وكأنه يرجحه على غيره بدلالة توجيهه له ودفاعه عنه ، فتدبر وأفهم .

---

(١) انظر فتح القدير جـ٥ ص ٥٥٤ .

(٢) حكاه الشوكانى فى فتح القدير جـ٥ ص٥٥٤ وابن عطية فى المحرر الوجيز جـ٥ ص٤٧٣ .

(٣) انظر النكت والعيون جـ٦ ص ٤٦٠ وزاد المسير جـ٤ ص ٢٣٥ .

(٤) انظر المحرر الوجيز جـ٥ ص ٤٧٣ .

السابع : إنه لا طعام أصلاً :

لأن الله سبحانه وتعالى نفى عنه فوائد الطعام المرجوة منه كمنح القوة للبدن ، ودفع الجوع عنه وهذا القول جوزه الزمخشرى فى أحد قوليه فقال : (أريد أن لا طعام لهم أصلاً ؛ لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس ؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن ، وهو منهما بمعزل . كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس ، تريد : نفى الظل على التوكيد) [١] .

القول الثامن :

أنه طعام فى النار يأكله ويتغذى عليه أهلها ليس له اسم معروف ولا صفة غير ما ذكره القرآن هنا قال ابن عطية : (قال جماعة من المتأولين الضريع طعام أهل النار ولم يرد أن يخصص شيئاً مما ذكرنا)[٢] أى لم يخصصوه بتسمية معينة كالحجارة أو الشجر أو الزقوم أو غيره وهو الذى عناه من ذكره (بأنه الطعام الذى يتضرع عند أكله أهل النار ، ويطلبون من الله الخلاص منه وعزاه بعضهم إلى ابن بحر)[٣] .

وعلى هذا فالضريع بمعنى مضروع أى: فعيل على زنة مفعول ، فالتسمية منصبة عليه بطريق المجاز والمراد فى الحقيقة آكلوه ؛ لأنهم المتضرعون إلى الله من أكله ، وقد حكى هذا القول أيضاً الشوكانى عن ابن كيسان فقال : (هو طعام يضرعون عنده ، ويزلون ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمى بذلك ؛ لأن آكله يتضرع إلى الله فى أن يعفى عنه لكراهته وخشونته)[٤] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص ٤٧٣ .

(٢) انظر المحرر الوجيز جـ٥ ص ٤٧٣ .

(٣) زاد المسير جـ٤ والنكت والعيون جـ٦ ص ٢٦٠ .

(٤) فتح القدير جـ٥ ص ٥٥٤ .

الترجيح :-

وأرجح هذه الأقوال عندى هو آخرها فى الذكر وإن كان أولها فى الرتبة وهو قول من قال إن الضريع هو طعام أهل النار دون تسمية وتحديد بنوع معين من النباتات أو الجمادات أو غيرها مما ذكرناه آنفاً ، وهذا القول هو الأولى بحمل الآية عليه ، وذلك لثلاثة أمور :

أولها :

أنه قول عام يندرج تحته كل الأقوال المتقدمة فهو يشمل قول من ذهب إلى أن الضريع نبات شوكى تنفر الإبل من أكله ، أو هو حجارة فى جهنم ، أو هو شجر من شجرها ، أو هو نبات سام إلى غير ذلك مما يعد طعاماً لأهل النار فى الآخرة فالقول بأن الضريع طعام يأكله أهل النار يشمل هذا الذى ذكرناه وغيره .

ثانيها :

أن كل ما تقدم من الأقوال لا دليل على أرجحيتها إلا مجرد تشابه فى الأسماء من حيث اللغة ، فالضريع الذى ذكرته الآية يوافق فى الاسم بعض ما كانت تطلقه العرب على بعض النباتات والأشجار التى تخرج فى صحاريهم وأوديتهم ولا شك أن التشابه فى الاسم لا يعنى التشابه فى الطعم ولا الرائحة ولا اللون ، وعلى هذا ففرق كبير بين ضريع أهل النار وبين ما كانت تعرفه العرب من النبات والأشجار مما يطلق عليه لفظ الضريع .

وعلى فرض أن طعام الضريع الذى هنا قد شابه ما كانت تعرفه العرب من الضريع عندهم فهى مشابهة فى الاسم فقط ، لكن مضمون هذا الطعام مختلف كل الاختلاف عن ضريع أهل الدنيا كما هو الحال فى أسماء فاكهة أهل الجنة والتى تشبه أسماء فاكهة الدنيا مع اختلاف المذاق واللون ونحوه .

ثالثها :

أن القرآن وصف هذا الطعام بأنه لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وهذا يدل على أنه يختلف عن ضريع الدنيا والذى كانت تعرفه العرب يخرج فى أراضيهم ؛ إذ لو كان هو هو ما أحتاج فى معرفته لهذا الوصف ، ولكان اسمه كافياً فى التعرف على كنهه وحقيقته ، ولكن لما زاد القرآن على الاسم ووصفه بأنه لا يسمن ولا يغنى من جوع دل ذلك على أن ضريع أهل النار هو طعامهم وهو مختلف كل الاختلاف عن الطعام المسمى بالضريع فى الدنيا .

والحاصل من كل ما تقدم أن القول بأن طعام الضريع والذى هو طعام أصحاب الوجوه الخاشعة هو طعام لا يشبه طعام أهل الدنيا مهما خبث طعمه وريحه ، وأنه طعام أهل النار دون تسمية أو تعيين بنبات أو جماد أو غير ذلك وأن هذا هو القول الأرجح والأليق بحمل الآية عليه .

*** إشكال ورده** :

ذكر الله هنا فى طعام أهل النار الضريع ، وذكر فى موضع ثان الغسلين، وفى ثالث الزقوم فأى طعام من هذه الأطعمة الثلاثة هو طعامهم ؟ وهل هى مسميات لمسمى واحد أم مختلف ؟

والجواب عن هذا الإشكال يرجع : (إلى أن العذاب فى النار أنواع ، وأن المعذبين فيها طبقات ودركات فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين لكل طائفة منهم جزء مقسوم ، فعلى قدر ذنوبهم ومعاصيهم يكون نوع الطعام الذى يأكلونه ، كما أن منهم من يشرب الحميم ، ومنهم من يشرب الصديد ، ومنهم من يشرب من عين آنية كما هو الشأن فى شراب أصحاب الوجوه الخاشعة هنا) [١] فلا تعارض ولا تناقض بين أطعمة أهل النار وأشربتهم .

---

(١) انظر الكشاف جـ٤ ص ٤٧٣ ، وزاد المسير جـ٤ ص٤٣٧ والبحر المديد جـ٨ ص٣١٣ .

المطلب الثامن : تنبيه و تحذير

ذكر كثير من المفسرين هنا جملة من الأحاديث فى تفسير وبيان المراد بالضريع تنبه أيها القارئ إلى ضعفها وغرابة متونها .

الحديث الأول :

عن ابن عباس (ليس لهم طعام إلا من ضريع) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شيء يكون فى النار شبه الشوك ، أمر من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حراً من النار سماه الله الضريع إذا طعمه صاحبه لا يدخل البطن ولا يرتفع إلى الفم فيبقى بين ذلك ولا يغنى من جوع)[١] .

الحديث الثاني :

عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم) [٢] .

* **أقول** : وإذا كانت هذه الأحاديث قد أبانت عن معنى الضريع وصفته وكنهه ، فلماذا عدل المفسرون عنها فى تفسير الآية ولجئوا إلى الاجتهاد واللغة فى شرح معنى الضريع ؟ فهلاً كانوا أخذوا بها بدل هذا الزحام الذى أحدثه كثرة الأقوال وتشعبها فى بيان المراد بالضريع ، هذا تساؤل قد يخطر على بال القارئ

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور جـ٦ ص ٦١٣ ، وعزاه إلى ابن مردويه ووهن إسناده .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه جـ٤ ص ٧٠٧ برقم ٢٥٨٦ – وابن أبى شيبة فى المصنف برقم ٣٥٢٦٦ وذكره الألبانى فى ضعيف الترمذى برقم ٢٥٨٦ وضعيف الترغيب والترهيب برقم ٢١٦٠ .

غير المدقق ، والذى لا علم له بحال الأسانيد والمتون لكنه إذا عرف أن هذه الأحاديث وغيرها فى معنى الضريع واردة بأسانيد ضعيفة وواهية أيقن أن ترك أئمة أهل التفسير لها هو المناسب لحالها ، المطابق للصواب فى تفسير معنى الضريع ، ومن هنا يعرف أن اختلافهم فى سياق المراد من طعام أهل النار هنا راجع إلى أن هذه الأحاديث ليست ثابتة حتى يأخذوا بها ويتركوا غيرها ، فكن على حذر من الإعجاب بمثل هذه الأحاديث فضلاً عن الاستدلال بها عند الترجيح . والله أعلم .

المطلب التاسع : احذر هذا التفسير

وإذا كنت قد عرفتَ فى المطلب السابق وتعرفتَ على التفسير الإجمالى الصحيح للآيات فعليك بالحذر من الإعجاب مما ذكره بعض المفسرين من تفسيرٍ غريبٍ وتأويلٍ عجيبٍ لمعنى الغاشية والنار الحامية وشراب أهل النار وطعامهم فقد فسر بعضهم هذه الآيات بقوله (الغاشية : هى الدنيا غشيت القلوب بظلمات محبتها ومودتها بحظوظها وشهواتها ، "وجوه يؤمئذ خاشعة" بذل طلبها ، "عاملة" بالليل والنهار فى تحصيلها ، "ناصبة" فى تدبير شئونها لا راحة لطالبها أبداً حتى يأخذ الموت بعنقه، "تصلى ناراً" القطيعة والبعد ، "تسقى من عين" حر التدبر والاختيار ليس لكلامها طعام لقلوبهم وأرواحهم إلا من ضريع شبهاتها أو حرماتها لا يسمن القلب عن هزال طلبها، بل كلما زاد منها شيئاً زاد جوعه إليها ، ولا يغنى الروح من جوع منها)[1].

فهذا تفسير غريب وتأويل عجيب طافح بكل ما هو غريب عن معانى القرآن السامية ، ومبانيه العالية ، ولغاته الصافية ، فاحذر على فهمك من هذا التفسير الذى يخرج عن حقائق الألفاظ إلى مجازها بلا قرينة ولا دليل ولا برهان .

---

(١) البحر المديد جـ٨ ص ٣١٣ .

المبحث الرابع : الوجوه الخالية

المطلب الأول : الورود

المستعرض لآيات القرآن الكريم يجد أن الحديث عن هذه الوجوه الخالية لم يجر لها ذكر إلا فى الحديث عن وجه نبى الله يعقوب عليه السلام وذلك فى قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام " اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ " يوسف (٩) ، وما عدا هذا الموضع فلم يذكر هذا الوجه فى القرآن كله على الإطلاق .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الوجوه الخالية ليس لها ذكر إلا مرة واحدة [١] . والله أعلم

المطلب الثاني " الاشتقاق والمعنى "

أولاً : الاشتقاق :

فإن الفعل " يخلو " فى قوله " يخل لكم " مضارع من خلا يخلو خلواً وخلاء ، فالخلو محسوس ومعقول ويقع فى الزمان والمكان ، فمن الأول : قوله تعالى " بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ " الحاقة (٢٤) ، وقوله " وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي " الأحقاق (١٧) فالقرون الخوالى هى المواضى ، وخلا الزمان ومضى أى انتهى وانصرم ومن الثاني : خلا المكان أى فرغ من جميع الأشياء ، والخلو بالكسر: الفراغ يقال رجل خلو أى قد فرغ باله من جميع الهموم والأحزان وامرأة خلوه أى لا زوج لها ، ويقال للسفينة أيضاً : خلية أى لا ركبان لها ، وخلية النحل المكان الذى تعسل فيه ، وخلا فلان بفلان أى اجتمع به فى مكان ليس معه فيه أحد.

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٣٤ .

والأصل فى الخلو الترك يقال خلا فلان عن فلان أى تركه ومنه قوله "فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" التوبه(٥) أى اتركوهم[١] . وعلى هذا فجميع مشتقات مادة خلا يخلو خلواً وخلاء تدور حول الفراغ والترك والمضى .

ثانياً : المعنى :

وحتى يتضح معنى خلو الوجه فى الآية علينا أن نعرف أن الكلام هنا قد جاء على لسان إخوة يوسف – عليه السلام – حيث اقترح بعضهم على بعض حلاً لمشكلتهم والتى تكمن فى شعورهم بظلم أبيهم لهم ، وتمييز يوسف عليهم ، وإهمالهم وعدم التوود إليهم واشتغاله بمحبة أخيهم وقضاء حوائجه ومصالحه دونهم ، ومن هنا كان اجتماعهم للتشاور فى كيفية إرجاع أبيهم له وخلوصه إليهم وإقباله عليهم والانشغال بأمرهم ، لذلك كان الاقتراح بالتخلص من سبب انصراف أبيهم عنهم ألا وهو ذلك الصبى الصغير المعروف بـ " يوسف " والذى استحوذ على قلب أبيه فلم يدع فيه مكاناً لمحبة غيره ، فاقترح بعضهم قتله والتخلص منه بالكلية أو طرحه فى مكان بعيد لا يعرف فيه ولا يفطن إليه عنده ، فإذا حدث ذلك فإنه سيخلو لهم وجه أبيهم والميل إليهم بمحبته وبشره وسروره ووصول بره وعطائه إليهم ، فالتعبير بخلو الوجه هنا استعارة من فراغ الإناء وخلوه وهو كناية عن المحبة والإقبال عليهم بعد ترك يوسف ونسيانه لقتله أو نفيه [٢] .

وعلى هذا فالعلاقة بين الاشتقاق والمعنى واضحة جلية ؛ إذ إن أصل الخلو مستعمل فى الترك والانصراف والتفرغ وهذا هو المراد والمقصود من قوله " يخلو لكم وجه أبيكم " أى : إننا إن قتلنه أو طرحناه فى أرض بعيدة وغاب عن أبيه انصرف عن الاشتغال به وترك الحديث عنه ، فضلاً عن الاهتمام بقضاء

---

(١) انظر لسان العرب جـ١٤ ص ٢٣٧ وعمدة الحفاظ جـ١ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ومجمل اللغة جـ١ ص ٢٩٨ .

(٢) انظر بحر العلوم جـ٢ ص ١٨١ وروح المعانى جـ٦ ص٣٨٣ وعمدة الحفاظ جـ١ ص ٥٣٢ .

مصالحه وشئونه فإذا حدث ذلك تفرغ لنا وانشغل بأمرنا فخلا وجهه لوجوهنا ؛ إذ لا يوجد معنا غيرنا ممن انشغل به فيما مضى عنا ، وبغير هذا لن يخلو لكم وجه أبيكم ولن تكونوا من بعده قوماً صالحين أبداً .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الناظر فى الآية الكريمة يتبين له جليلاً أن صاحب هذا الوجه (هو نبى الله يعقوب عليه السلام وهو والد يوسف وإخوته وإن لم يرد ذكره صريحاً فى هذه الآية إلا أن ذلك يفهم من طريقين :

الأولى :

قوله فى الآية " أبيكم " وهو المعروف أنه يعقوب عليه السلام .

الثانية : أنه المتقدم ذكره فى قوله تعالى " وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " يوسف (٦) وهو الحديث الذى جرى بين يعقوب وولده يوسف عليهما السلام [١] .

ومن هنا يعلم أن صاحب الوجه الخالى هنا هو ذلك النبى الذى هو من نسل نبى الله إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعاً سلام الله ، فهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وولده يوسف الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام[٢]. وهذا وصف نبوى شريف يدل على معدن يعقوب عليه السلام وأصله والذى يرجع إلى نفاسته فى الحسب والنسب والنبوة التى هى أشرف المقامات وأعلاها بعد الرسالة ؛ لأنها توهب ولا تكتسب . والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢١٢ وما بعدها والمحرر الوجيز جـ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء باب " أم كنتم شهداء ص ٧٠٩ برقم ٣٣٨٢ .

المطلب الرابع : الأسباب والزمان

الناظر فى الآية الكريمة يرى أن جملة " يخل لكم وجه أبيكم " هى الجواب للأمر فى قوله " اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضاً " فهى إذن علة مترتبة على ما سبق من الشرط ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن أسباب خلو هذا الوجه وزمانه متعلق بما مضى فى الآية وهذا إجمال هاك تفصيله :

أولاً : فأما الأسباب فمرجعها إلى سببين ذكرتهما الآية :

أولهما :

التخلص من يوسف عليه السلام بالقتل ، بل هو المرجح عندهم وهذا هو المستفاد من تقديمه على السبب الآخر ، ولما كان القتل أشد عليهم خاصة إذا كان متعلقاً بالتخلص من هذا الصبى الذى تمتلئ عليه القلوب شفقة ورحمة وتفيض العيون بالدموع عليه عطفاً ورقةً ، ولذلك كان التعبير بالاسم الظاهر لازماً هنا دون ضمير الغيبة حيث قالوا " اقتلوا يوسف " ولم يقل " اقتلوه " ؛ إذ الكلام كله فى حقه وهذا يكشف عن حجم وقدر ما كانت تحتويه قلوبهم عليه غيظاً وحسداً وبغياً وغضباً فكأنهم يقولون " اقتلوا الذى نعرفه وتعرفونه وهو المعروف بيوسف فإن فى قتله راحة لكم وصلاحاً فى أمركم " .

ثانيهما :

نفيه وطرحه خارج أرضه التى يعيش فيها وإبعاده إلى أرض لا يوصل إليها ولا يعرف فيها حتى لا يرد إلى أبيه مرة آخرى ، وان لم يكن فى الآية ذكر لنوع الأرض التى سيطرح فيها إلا أن السياق يرشح أن تكون هذه الأرض غير أرضه التى ولد فيها ويعيش عليها ؛ لأنه لو كانت هى الأرض المقصودة لكان فساد خطتهم متحققاً وذلك بمعرفة أهلها ليوسف وأبيه عليهما السلام .

هذه هى الأسباب التى ظن أخوة يوسف أن فيها النجاة من غيظهم وغضبهم وجفاء أبيهم والتى توهموا أن بفعلها ستحصل لهم محبة أبيهم والتفرغ

لهم والانشغال بهم . وسياق القصة بعد ذلك يشهد بأن الأمر قد انقلب عليهم وأنهم قد خابوا فى سعيهم ، وضلوا فى كيدهم فما خلا الوجه وما صفى ، بل على العكس قد علاه الحزن والجفى فمن الذى يقول إن الشر يأتى بالخير ، وأن الظلم يأتى بالعدل إلا واهم أو جاهل وإذا سمعت الله بعد ذلك يقول " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ . قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ . قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " يوسف (٨٤ – ٨٦) تستشعر ما كان عليه هذا الأب من الهم والغم والكرب العظيم الذى انعكس على وجهه وعينيه وعلى لسانه بالتأسف والتحسر ، وإذا نظرت فى قوله " يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ " ظهر لك مقدار ما كان يملأ قلبه من الحب ليوسف فما نسيه ولا ترك ذكره وانظر إلى قولهم " قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " وفى هذا دلالة عظيمة على أن ما قدمناه من تعلق هذا الأب بولده حتى إنه ما نسيه قط فإذا ضممت إلى ذلك قوله " فَهُوَ كَظِيمٌ " اكتملت الصورة فى ذهنك وأيقنت أن الوجه ما خلا أبداً ولا حلى لهم ، بل على العكس كانت العبوسة تملأه والحزن يعلوه والكرب يشمله ، فهل يصلح أن تكون هذه الأوصاف كلها فى وجه ويكون صاحبه بعد ذلك ضحوكاً مستبشراً ، بالإضافة إلى ابيضاض عينيه وذهاب بصره والذى يكشف عن طول بكائه وحزنه ، فهل يصلح أن يكون مع هذا كله إقبال عليهم وحب لهم وهم الذين جلبوا له الهم كله بإبعاد ولده عنه [1] ، إنه الوهم الذى عاشوه وقت الاقتراحات ، والسراب الذى ظنوه رياً وهم فى الفلوات ، والتعاسة التى حسبوها سعادة ستنالهم وتملأهم فى الخلوات والجلوات هيهات هيهات .

(١) انظر مجمع البيان جـ٥ ص ٢١٢ وفى ظلال القرآن جـ٤ ص ١٩٧٤ والجامع لأحكام القرآن جـ٥ ص ٢٢٣ .

ثانياً :

وأما زمان هذا الخلو الذى ترتب على الشرط فى الأمر المصدر به الآية فيفهم منه ومن قوله تعالى " وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ " أى من بعد يوسف أو قتله أو طرحه أن هذا زمان يبدأ من هنا أى لن يتحقق زمان حب أبيكم لكم وانشغاله بأمركم وإقباله عليكم إلا بعد قتل يوسف أو طرحه ، فلا قبل هذا الزمان ولا قبيله ولا بعيد وقوع هذا الحدث مباشرة وإنما بعد وقوعه بزمن ليس قصيراً فيفهم من البعدية فى قوله " من بعده " أن ذلك يتحقق بعد ذهاب حزن أبيه على قتله أو طرحه وليس بعد ذلك بزمان قليل أو فى أثنائه ؛ إذ لا يستساغ فى العقل أن يصفو وجه أبيهم لهم بعد قتله أو طرحه ؛ لأنه زمن الحزن والبكاء على المحبوب[1] .

وعلى هذا يستفاد من قوله " مِنْ بَعْدِهِ " أن زمن صفاء وجه أبيهم لن يتحقق فى التو والحال ، وإنما سيكون ذلك فى الاستقبال ، وبعد ذهاب الحزن على من ذهب من أحب الأولاد والعيال ، والله تعالى هو الكبير المتعال .

(١) انظر المحرر الوجيز جـ٣ ص ٢٢٢ وغرائب القرآن جـ٤ ص ٦٨ .

المبحث الخامس : الوجوه العانية

المطلب الأول : الورود

لم يرد ذكر هذه الوجوه العانية فى القرآن كله إلا فى قوله " وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا " طه (١١١) ، فهذا موضع لا ثانى له فى القرآن[١] .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولا : أما الاشتقاق :-

فالفعل عنت ماضى مضارعه يعنو ، يعنى ، يقال : أرض لم تعن ولم تعنى أى: لم تنبت ، كما يقال: حثت التراب عليه وحثيث عليه التراب ، وأصل المادة من العناء وهى الذلة والحقارة التى تعلو وجه الأسارى ، والعانى هو الأسير ، والعناة : من كانوا فى الأسر والعنوه : الغلبة يقال : أخذتُ الأرض عنوة أى بغلبة وقهر ، والعانى الخاضع يقال: أخذت منه الشىء عنوة أى خاضعاً ذليلاً مستسلماً حين أخذه منه ، أو حكاية عن غلبة الآخذ [٢] .

وعلى هذا فالمادة كلها تدور حول العناء ومعناه الذل والانكسار ، والعنوة ومعناه الغلبة والخضوع ، واسم الفاعل منه العانى وهو الأسير ؛ لما يعترى وجهه من الذل والخضوع .

ثانياً : وأما المعنى :

فإن الوجوه العانية يوم القيامة قد اختلف المفسرون فى معناها على أقوال :

أولها : أن عنت بمعنى ذلت قاله ابن عباس وقتادة .

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٨٣٥ .

(٢) انظر معانى القرآن جـ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ومعانى القرآن للزجاج جـ٣ ص ٣٠٦ والتحرير والتنوير جـ٨ ص ٣١١ ، ٣١٢ .

ثانيها : خشعت قاله مجاهد ، والفرق بين الذل والخشوع واضح وإن تقاربا فى المعنى ، فالذل أن يكون ذليل النفس ، والخشوع أن يتذلل لذى طاعة .

ثالثها : استسلمت وخضعت قاله عطية العوفى .

رابعها : عملت وانتصبت بين يدى الله قاله الكلبى .

خامساً : ركعت وسجدت قاله ابن عباس وطلق بن حبيب [١] .

* **أقول** :-

وحمل "عنت الوجوه" على كل ما تقدم أولى ويجمعها حمل العناء على معنى الخضوع والذل ويكون بقية المعانى داخلة تحت هذا المعنى فهى خاضعة ذليلة بين يدى ربها قد أجهدها العناء والعمل والانتصاب بين يديه لطول وقفتهم قال تعالى "وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" الحج (٤٧) ، وقد أخذ هذا الخضوع أشكالاً متعددة فمنهم الراكع الساجد ، ومنهم الخاشع الذليل ، ومنهم المستسلم كاستسلام الأسير لآسره ، أو أن كل ذلك يعترى كل الخلق يوم القيامة حين يشاهدون أهوال يوم القيامة وعظائم أمورها .

وعلى هذا فحمل عناء الوجوه يوم القيامة للحى القيوم على الخضوع والذل والاستسلام بأى نوع من أنواع هذا الخضوع هو الأولى بقبوله لعمومه من ناحية ، ولدخول بقية المعانى تحته من ناحية أخرى .

والله أعلم .

---

(١) انظر الدر المنثور جـ٤ ص ٥٧٤ والنكت والعيون جـ٣ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ وجامع البيان جـ٢ ص ٥٢١ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

وفى أصحاب هذه الوجوه العانية قولان قد ذكرهما أهل التفسير :

أولهما :

أنهم العصاه من الخلق وخاصة المجرمين منهم والذين سبق ذكرهم قبل هذه الآية التى معنا حيث قال الله " وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا " طه (١٠٢) ، حتى وصل الحديث عنهم هنا بقوله " وَعَنَتِ الْوُجُوهُ "

وهذا القول هو الذى اختاره الزمخشرى[١] وكذا الطاهر بن عاشور وغيرهما[٢] .

وعلى هذا فآل فى قوله " الوجوه " هى المفيدة للعهد الذكرى أى الذى سبق ذكره عند السامع وهم المجرمون كما سبق وهى عوض عن المضاف إليه المحذوف فى قوله " وعنت الوجوه " أى وجوههم .

والمعنى: لقد خضعت وجوه هؤلاء المجرمين وذلت لربها واستسلمت بما يفعل بها فليس لها اليوم أن تتأبى على ربها كما كانت تفعل فى دنياها .

ونظائر هذه الوجوه العانية على هذا القول فى القرآن كثيرة كقوله تعالى "فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ" الملك (٢٧) وقوله " وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ " القيامة (٢٤) وقوله " وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ " عبس ٤٠ فهذه الوجوه كلها هى وجوه العصاه من أهل الإجرام والكفر خاصة .

ثانيهما :

أن أصحاب هذه الوجوه العانية هم كل الخلق يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم ، وطائعهم وعاصيهم فالجميع خاضعون لرب العالمين خضوعاً يتناسب

---

(١) انظر : الكشاف جـ ٣ ، ص ٨٦ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير جـ ٨ ، ص ٣١٢ .

مع هول ما هم فيه وعظم ما هم عليه وقد قال الله تعالى "وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا" طه (١٠٨ ، ١٠٩) .

وقال " رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا " النبأ (٣٧،٣٨) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خضوع الخلق لربهم يوم القيامة فلا كلام ولا حركة ولا سكنة إلا بإذن الله الواحد القهار حتى يقول الله تعالى " لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " غافر (١٦) .

وعلى هذا فاللام فى قوله " الوجوه " فى الآية التى معنا هى المفيدة للجنس والعموم حتى يستغرق جميع الخلق والمعنى : لقد خضعت واستسلمت وجوه الخلق إلى ربها وذلت لعظمته ودانت لجبروته وعزته [١] .

ومن هنا يعلم أن أصحاب هذه الوجوه العانية إما أن يكون أهل الإجرام من العصاة خاصة ، وإما أن يكون كل الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، والأولى عندى حملها على العموم مع كون ذلك حاصلاً فى المجرمين والعصاة بصورة أشد وأفظع وأذل وأخضع وأحقر وأوضح، وهذا هو المفهوم من كلام ابن كثير[٢] وابن عطية [٣] والثعالبى [٤] وغيرهم وهو المطابق لظاهر الآية والذى ينطق بالعموم دون تخصيص كما نص عليه البيضاوى [٥].

---

(١) انظر تفسير الكشاف جـ٣ ص ٨٦ والتحرير والتنوير جـ٨ ص ٣١٢ وأنوار التنزيل جـ٤ ص٤١ وإرشاد العقل السليم جـ٤ ص ٤٩٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٥ ص ١٨٦ .

(٣) انظر المحرر الوجيز جـ٤ ص ٦٥ .

(٤) انظر الجواهر الحسان جـ٢ ص ٣٦٠ .

(٥) أنوار التنزيل جـ٤ ص ٤١ .

المبحث السادس : الوجوه القائمة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن يجد أن الوجوه القائمة قد ورد ذكرها فى أربعة مواضع ثلاثة منها : جاءت خطاباً لرسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم وذاك فى قوله تعالى " وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " يونس (١٠٥) .

وقوله " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " الروم (٣٠) .

وقوله " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ " الروم (٤٣) .

وموضع واحد كان الخطاب فيها موجهاً للناس جميعاً وذاك فى قوله تعالى "قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" الأعراف (٢٩) [١] والذى هو سنقتصر على بحثه فى تلك الدراسة لعمومه ودخول غيره تحته .

وعلى هذا فليس لهذه الوجوه ذكر إلا فى هذه المواضع الأربعة . والله أعلم .

---

(١) انظر : المعجم المفهرس ص ٨٥٣ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

القائم : مصدر من الفعل قام يقوم وجمعه قيام ومنه قوله تعالى " جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " المائدة (٩٧) ، وفعله قام أو قوم أعلت عينه ، والقيام أنواع وأشكال فمنه ما كان على سبيل التسخير كقوله تعالى " مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ " هود (١٠٠) ومنه على سبيل الاختيار كقوله " أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " الزمر (٩) ، ومنه ما كان بمعنى مراعاة الشيء وحفظه كقوله " أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " الرعد (٣٣) ، ومنه ما كان معناه العزم على الشيء كقوله " إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ..... الآية" المائدة (٦) . ويدخل فيه الدوام والاستمرار على فعل الشيء كالآية التى معنا " وأقيموا وجوهكم " أى استمروا وداوموا على العبادة ولا تنقطعوا عنها [١] .

ثانياً : المعنى :

قد ذكر أهل التفسير فى معنى إقامة الوجه فى قوله تعالى " وأقيموا وجوهكم " أربعة أقوال:-

(١) انظر المفردات فى غريب القرآن ٤٣١ وعمدة الحفاظ جـ٣ ص ٥٣٢ .

أولها : إذا حضرت الصلاة فى أى بقعة عند أى مسجد فى الأرض فصلوا حيث تكونون دون تفضيل مسجد على آخر . قاله ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة.

ثانيها : توجهوا حيث كنتم فى الصلاة فى أى مسجد إلى الكعبة قاله مجاهد والسدى وابن زيد .

ثالثها : اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره من الأنداد والشركاء قاله الربيع بن أنس .

رابعها : أقصدوا المساجد فى أى وقت للصلاة لأداء الجماعة فيها ذكره الماوردى[1].

* **أقول** :-

وأولى الأقوال عندى بالصواب فى معنى إقامة الوجوه عند كل مسجد أن يكون المعنى توجهوا فى الصلاة عند كل مسجد إلى الكعبة فيكون ذلك أمراً بالتوجه إلى بيت الله الحرام بطريق التلميح وليس بطريق التصريح بخلاف ما جاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى " فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ " البقرة (١٤٤) فهذا كالمقدمة لما سينزل بعد ذلك فى سورة البقرة ، وكأنها إرهاص بهذا الحدث الجليل وهو تحويل القبلة ، وأما القول بأن إقامة الوجه هنا معناه الإخلاص وصدق التوجه إلى الله ، أو قصد المساجد لأداء الجماعة، أو إفراد الله وحده بالسجود له فكل ذلك داخل تحت ما رجحناه من حمل الآية على التوجه إلى المسجد الحرام ؛ لأن فيه إخلاصاً وإفراداً وقصداً . والله أعلم .

والى هذا الترجيح جنح الرازى فى تفسيره وضعف ماعداه [2] .

---

(١) انظر : جامع البيان جـ١١٢ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ وزاد المسير جـ٢ ص ١١٢ والنكت والعيون جـ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) انظر التفسير الكبير جـ١٤ ص ٢٢٦ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

المتدبر فى هذه الآية يرى أنها صرحت بأن أصحاب الوجوه القائمة على الصلاة والعبادة والدعاء ثلاثة أصناف :

الصنف الأول :

هم المصلون المتوجهون فى صلاتهم إلى الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم سواء أكانت هذه الصلاة فى مساجد أقوامهم وبلادهم أم هى مساجد عرضت لهم فى أسفارهم أو تحركاتهم فى أى بقعة من أرض الله تعالى فهؤلاء المتوجهون فى صلاتهم إلى الله تعالى أو إلى القبلة فى مكة بغض النظر عن مكان توجههم .

الصنف الثاني :

هم أهل الدعاء والرجاء الذين يكثرون من دعائهم فى سجودهم خاصة إذا كان هذا فى بيوت الله ومساجده يدل على ذلك قوله فى الآية " وادعوه " أى ادعوه عند كل مسجد فهى أماكن ومواطن يستجاب فيها الدعاء والرجاء ، فأصحاب هذه الوجوه القائمة مستمرون على الدعاء والتضرع والطلب من الله بالمغفرة والرحمة ومصالح الدين والدنيا .

الصنف الثالث :

هم أهل الإخلاص من المصلين والداعين يدل على ذلك قوله فى الآية " مخلصين له الدين " وعلى هذا فلفظ " مخلصين " يعود على الفريقين على أهل التوجه فى الصلاة وكذا أهل التوجه فى الدعاء أى ليكن توجهكم فى الحالتين بإخلاص سواء كنتم داعين أو مصلين ، وعلى هذا فالإخلاص شرط فى العبادتين فمن صلى ولم يخلص أو دعى كذلك فما صلى ولا دعى وهو قمن ألا يستجاب له[1].

والحاصل أن أصحاب هذه الوجوه القائمة ثلاثة أصناف متوجهون فى الصلاة، أومتوجهون فى الدعاء، أو هم المخلصون فى العبادتين ويصلح الجميع كما هو ظاهر.

---

(١) انظر : محاسن التأويل جـ٥ ص ٣٥ وزهرة التفاسير جـ٦ ص ٢٨١٣ .

المبحث السابع : الوجوه المبيضة

المطلب الأول : الورود

بالنظر إلى آى القران الكريم نجد أن هذا اللون مع هذا الوجه أعنى " الوجوه المبيضة " لم يجر له ذكر إلا فى قوله تعالى " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " آل عمران ١٠٦، ١٠٧. [١]

غير أن بعض المفسرين : (قد ذكر لهذا اللفظ نظائر فى القرآن كقوله تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ " عبس ٣٨ وقوله " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ " الغاشية ٨ وقوله "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ" القيامة ٢٢ واعتبر أن كل ذلك يصب فى معنى البياض المذكور هنا فى سورة آل عمران .

إلا أن ذلك من باب الحمل على المعنى لا على اللفظ فهو من باب المشترك المعنوى وإن اختلف التعبير عنه بألفاظ كثيرة .

وعلى هذا فما ذكرناه من كون لفظ الابيضاض لم يجر له ذكر مع هذه الوجوه إلا فى هذا الموضع هو الأصل المعول عليه [٢] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١٧٣ .

(٢) انظر تفسير الرازى جـ٨ ص ٣١٧ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

فالفعل " تبيض " مضارع أصلها تبيضض بضاضين تحركا معاً فأدغم الأول فى الثاني تخفيفاً وتسهيلاً عند النطق ، والماضى منه إبيض بالهمز المكسورة ، ولذلك قيل فى مضارعه " تبيض " بكسر التاء أيضاً مراعاة للهمز فى الماضى مع أن الفتح هو الأصل ؛ لأنه هو الموافق للقراءة وهو ما عليه أكثر العرب ، والبياض فى اللون ضده السواد ويكون فى الإنسان والحيوان والنبات ، والأبيضان : هما الماء والحنطة من باب التغليب كما أن الأسودين: التمر والماء ، وقد يستعمل البياض فى غير اللون يقال : بيض الإناء بالفاكهة أى ملأه ، كما يقال: لمن فرغ الإناء مما فيه أيضاً بيض الإناء فهو على هذا من الأضداد ، وقد أنث الفعل هنا تبيض مراعاة للجمع فى لفظ الوجوه ، وقد يذكر مراعاة للمفرد [(١)] .

ثانياً : وأما المعنى :

فقد اختلف المفسرون فى حمل إبياض الوجوه فى الآية على قولين :

القول الأول : إن إبياض الوجوه فى الآية محمول على الحقيقة فهو بياض حسى مشاهد لأهل الموقف يوم القيامة وهو ظاهر قول الزمخشرى .

حيث قال : (فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمنه) [(٢)] وإليه ذهب الفخر الرازى ورجحه [(٣)]

---

(١) انظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج جـ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ومعانى القرآن للفراء جـ١ ص ٢٢٨ ولسان العرب جـ٧ ص ١٢٢ وما بعدها ومجمل اللغة جـ١ ص ١٤٠ .

(٢) الكشاف جـ١ ص ٣٩١ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٣١٧ .

وكذا الطاهر بن عاشور [١] وبه جزم أبو حيان والآلوسى أنه قول الجمهور[٢].

وقال الإيجى : (والأصح أنهما علامتان حقيقيتان) [٣] .

القول الثاني : إن بياض الوجوه محمول على المجاز كناية عن فرحها وسرورها واستبشارها بثواب ربها وهذا القول نسبة الفخر الرازى إلى أبى مسلم الأصفهانى[٤] .

بل صرح البغوى أنه قول أصحاب المعانى كالزجاج والفراء والأخفش وغيرهم ممن ألف فى معانى القرآن [٥] والمعنى على هذا القول " اذكر أيها السامع يوم تمتلئ وجوه المؤمنين فرحاً وبشراً وسروراً كأنها ابيضت وأشرقت مما رأته من ثواب ربها وكرم خالقها " .

والأرجح القول الأول وهو حمل البياض فى الآية على حقيقته من اللون المعروف والنور المحسوس وذلك لأمرين :

أولهما : أنه قول جمهور أهل التفسير كما سبق ذكره فهو القول المرتضى عند أرباب التفسير .

ثانيهما : أن إبياض هذه الوجوه يكون فى الآخرة ويوم القيامة ، والمعروف أن يوم القيامة يوم الأعاجيب والغرائب من الأفعال التى يبديها الله لعباده فى الموقف العظيم ، فما المانع من أن تبيض وجوه المؤمنين على الحقيقة تعظيماً لشأنهم وتفخيماً لحالهم ، ولماذا نصير إلى المجاز ولا يتعذر الحمل على الحقيقة ، ومن هنا كان القول بحمل البياض على اللون المعروف هو الأقيم والأحسن والله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير جـ٣ ص ٤٤ .
(٢) البحر المحيط جـ٣ ص ٣٩٢ وروح المعانى جـ٢ ص ٢٤١ .
(٣) جامع البيان للإيجى جـ١ ص ٢٨٠ .
(٤) التفسير الكبير جـ٨ ص ٣١٨ .
(٥) تفسير البغوى جـ١ ص ٣٤٠ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

قد ذكر أهل التفسير هنا أقوالاً فى من تبيض وجوههم يوم القيامة منها ما تساعد عليه الآية ، ومنها ما لا مستند له من عقل ولا نقل وإنما هو مجرد الرأى والاستنباط من ذلك :

أن أصحاب الوجوه المبيضة : (هم المؤمنون قاله أبى بن كعب ، وقيل : المخلصون ، وقيل المهاجرون والأنصار ، وقيل أهل القناعة ، وقيل أهل السنة والجماعة قاله ابن عباس)[1] .

* والأرجح عندى من هذه الأقوال القول الأول وهو أن أصحاب الوجوه المبيضة هم المؤمنون بالله ورسوله وأهل طاعته وذلك لأمرين :-

أولهما : أننا لو نظرنا فى الآيات لوجدنا أن أهل الابيضاض يقابلهم أهل الاسوداد فقد نصت الآية على أن أصحاب الوجوه المسودة هم أهل الكفر ، فأفاد ذلك بالمفهوم أن المقابل لهم الوجوه المبيضة وهم المؤمنون وهو الذى ينطق به ظاهر الآيات .

ثانيهما : أن كل ما ذكر من الأقوال بعده لا ينفك عن هذا القول ، بل يدخل تحته دخولا أولياً فلا يكون المخلص مخلصاً إلا إذا آمن ، وكذا أهل القناعة والجهاد ولا يكون المرء متسنناً ويقال عليه أنه من أهل السنة إلا إذا كان من أهل الإيمان الخالص ، ومن أبرز من مثل هذا الإيمان وتحقق فيه المهاجرون والأنصار ، وعلى هذا فلفظ الإيمان أعم من كل ما ذكر بعده لذلك كان هو الأليق بحمل أصحاب الوجوه المبيضة عليه فيدخل تحته كل ما بعده من الأقوال .

---

(١) انظر البحر المحيط جـ٣ ص ٣٩٢ ومعالم التنزيل جـ١ ص ٣٣٩ وجامع البيان للإيجى جـ١ ص ٢٨٠.

قال البغوى فى معنى قوله تعالى " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " (يريد وجوه المؤمنين ، وتسود وجوه الكافرين) [١] .

وهذا تصريح من البغوى بصحة هذا القول على غيره لذلك قد أختاره فى تفسير الآية والله أعلم .

المطلب الرابع : زمان الإبياض

لقد تعددت أقوال أهل التفسير فى تحديد وقت وزمان إبياض وجوه المؤمنين مع اتفاقهم على أن ذلك كله حاصل يوم القيامة ؛ لأنه المنطوق به فى الآية وذاك فى قوله تعالى " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " ، ثم كان الخطاب بعد ذلك لمن اسود وجوههم بقوله " فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " وهذا الخطاب لا يكون إلا فى يوم القيامة العظيم فإذا انضم إلى ذلك قوله " وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون " أى فى جنته ودار كرامته مع ما يضاف إلى ما تقدم أن سباق هاتين الآيتين فى أهل الكتاب والذين توعدهم الله بقوله "أولئك لهم عذاب عظيم" ، بأن بقوله " يوم تبيض " أن هذا العذاب العظيم زمنه يوم ابياض وجوه المؤمنين واسوداد وجوه الكافرين وعلم بذلك كله أن هذا الإبياض حاصل يوم القيامة بالسباق والسياق واللاحق .

بقى تحديد وقت البياض فى يوم القيامة وهو المختلف فى تحديده كما سبق . ومجمل ما ذكروه هنا أن ذلك حاصل عند : (خروج المؤمن من قبره يوم البعث ، وقيل عند اخذ كتابه بيمينه فيسر بما فيه من الحسنات فيبيض وجهه ، وقيل عند الميزان إذا ثقلت موازينه بالحسنات ، وقيل عندما تؤمر كل أمة أن تتبع

---

(١) انظر تفسير البغوى جـ١ ص ٣٣٩ .

ما كانت تعبد فيتبع المؤمن ربه يوم القيامة ويعرفه فإذا عرفه سجد له فيبيض عند ذلك السجود وجهه ذكره الكلبى وقيل غير ذلك) [١] .

قال الآلوسي تعقيباً على هذه الأقوال وغيرها مما ذكره هناك : (ولا يبعد أن يقال إن فى كل موقف من هذه المواقف يحصل شيء من ذلك إلى أن يصل إلى حدٍ الله أعلم به) [٢]

* **أقول** :-

وإن كان كلامه صحيحاً إلى حد كبير إلا أن الأصح عندى فى هذه المسألة أن يقال إن القرآن وإن كان قد صرح بالزمن الكلى الشامل لكل ما تقدم ذكره من المواقف والمواقيت يوم القيامة كوقت البعث والميزان وتطاير الصحف إلا أنه سكت عن توقيت وزمن هذا الابيضاض فى هذا اليوم فدل ذلك على أمرين :

أولهما : أن هذا الزمن مبهم لا يعرف وليس فى الآيات ما يدل على إزالة هذا الإبهام فالأولى السكوت عما سكت عنه القرآن،والخوض فى مثل هذا تخرص ورجم بالغيب. **ثانيهما** : لما ثبت أن الآيات قد سكتت عن تحديد وقت الإبياض فى هذا اليوم ، كان المصير إلى السنة الصحيحة هو المعتمد عليه فى إزالة ما أبهمه القرآن فمثل هذا الأمر الغيبى لابد فيه من نص صحيح ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلا فالإعراض عن ذلك هو الأليق بحال المؤمن ، ولما لم يكن هنا نص من السنة فى التحديد والتوقيت كان لزاماً علينا أن نفوض علم ذلك وحقيقته إلى الله تعالى ، ولنقف عند ما وقف عنده القرآن ، ولنسكت فيما سكت عنه ولنكتفى بالزمان العام وهو أن هذا الابياض واقع للمؤمنين يوم القيامة دون البحث عن التفصيل الذى لا دليل عليه والله أعلم .

---

(١) انظر بحر العلوم جـ١ ص ٢٣٦ وحدائق الروح والريحان جـ٥ ص ٥٥ وروح المعانى جـ٢ ص ٢٤١.

(٢) انظر روح المعانى جـ٢ ص ٢٤١ .

المطلب الخامس : المآل والمصير

لقد ذكرت الآية الثانية مآل ومصير هذه الوجوه المبيضة وهو أنهم صائرون إلى رحمة الله وهى الجنة حتى يدخلوها وذاك فى قوله تعالى " وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون " فالرحمة هنا : تحمل على معنيين :

أولهما : الجنة التى قد نالوها برحمة الله وفضله وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وعلى هذا يكون التعبير بالرحمة عن الجنة من باب التعبير بالحال وإرادة المحل أى أن حالهم صائر إلى رحمة الله التى محلها ومستقرها الجنة .

ثانيهما : أن الرحمة بمعنى الثواب وهو تعبير بالمجاز؛ إذ إن استعمال الرحمة فى مقام الثواب أمر معنوى بخلاف استعمال الجنة فهو على سبيل الحقيقة [1] .

وعندى أن الحمل على الحقيقة أولى فتفسير الرحمة بالجنة هو المتبادر إلى ذهن السامع ؛ لأنها هى مستقر رحمة الله بخلاف الثواب والأجر، كما أن لفظ الرحمة إذا أطلق على الجنة كان أدعى إلى امتلاء النفس بالطمأنينة والبشر لحصولها على غاية ما تريد فى الآخرة ، أما استعمالها فى الثواب فليس فيه شىء من ذلك فقد يحصل المرء على الثواب ولكنه لا يؤهله إلى دخول الجنة والتنعم بها .

ومن هنا كان المعنى الأول هو الأرجح خاصة أنه فى مقابل عذاب من اسودت وجوههم والمقابلة كاشفة وناطقة عما خفى واستتر والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير الرازى جـ٨ ص ٣٢٠ وروح المعانى جـ٢ ص ٢٤٢ وجامع البيان جـ٧ ص ٩٦ والبحر المحيط جـ٣ ص ٢٩٦ .

المبحث الثامن : الوجوه المتقلبة

المطلب الأول : الورود

لقد ورد خبر تقلب الوجوه فى القرآن الكريم فى موضعين

أحدهما : فى حق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وذاك فى قوله تعالى " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ " سورة البقرة ١٤٤ .

ثانيهما : ما جاء فى بيان تقلب وجوه الكافرين الملعونين فى جهنم وذاك فى قوله تعالى " يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا " سورة الأحزاب ٦٦ .

وعلى هذا فأول الوجهين تقلبه فى الدنيا ، وثانيهما تقلبه فى الآخرة وليس لتقلب الوجوه بعد ذلك ذكر فى القرآن الكريم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً :

أما الاشتقاق : فإن التقلب تفعل وهو مصدر من الفعل قلب بالتخفيف ، وقلب بالتشديد أى صرفه عن وجهه وحوله يقال قلب الرجل الثوب أى حوله إلى جهته الأخرى ، ومنه سمى القلب قلباً لكثرة تحوله وتغيره وتقلبه ، وتقليب الأمور تقديرها والنظر فيها ، وتقليب الأشياء تقديرها من حال إلى حال ، وانقلاب الوجوه كتقلبها وهو تحولها من جهة إلى أخرى [1] .

---

(١) انظر مادة قلب فى مختار الصحاح ص ٢٢٨ والمصباح المنير ص ٢٩٥ والمفردات للراغب الاصفهانى ص ٤٢٦ والتحرير والتنوير ص ٢٦ ، ٢٧ .

وعلى هذا فمادة التقلب والانقلاب والقلب كلها تدور حول معانى التغيير والتحويل والتصريف .

ثانيهما :

وأما معنى التقلب : فهو يختلف باختلاف الوجه المتقلب فإن كان هو وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى قوله تعالى " قد نرى تقلب وجهك فى السماء " فهو مقلب محمود وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر من مكة إلى المدينة كان يحرص على إيمان اليهود فأمره الله أن يصلى إلى بيت المقدس وأحب هو قبلة البيت الحرام وقد حكى ابن عباس – رضى الله عنهما – ذلك فقال "لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك) إلى قوله (فول وجوهكم شطره) [١] وفى رواية أخرى عن ابن عباس قال " كان النبى إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله "فلنولنيك قبلة ترضاها" الآية [٢] . وعلى هذا فالرواية فصلت معنى تقلب وجهه – صلى الله عليه وسلم – تبعاً لما فى قلبه من حب التوجه إلى الكعبة لذلك كان عقب الصلاة يكثر من الدعاء، ويقلب نظره إلى السماء رجاء أن يحقق الله مأموله فى التوجه من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام ؛ لأنه هو المتوجه الذى يرضاه ، ولهذا قال الله " فلنولينك قبلة " ترضاها حتى أمره الله أن يولى وجه قبل المسجد الحرام ، وأما تقلب وجوه الكافرين فى النار فهو تقلب مذموم غير مرغوب فيه ومعناه كما ذكره المفسرون .

---

(١) ذكره ابن كثير فى التفسير جـ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٩ .

(٢) رواه ابن حردوية فى تفسيره كما نقله عنه ابن كثير فى التفسير جـ١ ص ٢٢٩ .

أن الله تعالى قد أخبر فى هذه الآية عن حال أولئك الكافرين وأهل الاستكبار إذا ما دخلوا النار ماذا يقولون ، حكت الآية أنهم إذا دخلوا النار فإن وجوههم تتقلب فى عذابها وتمس من نيرانها فلا يجدون عذراً لهم يعتذرون به إلى الله إلا أن يقولوا " ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فى معصيتك فأضلنا هؤلاء السبيل والصراط المستقيم " ، ثم إنهم وهم فى خضم العذاب يتوجهون إلى الله بالدعاء طالبين منه عز وجل أن يضاعف العذاب لهؤلاء السادة والكبراء ، ويطلبون من ربهم كذلك أن يلعنهم لعناً كبيراً [١] .

وعلى هذا فإن تقلب وجوه هؤلاء فى النار فيه ما فيه من تكرار العذاب عليهم، وتمكن البارئ منهم الذى يقلب الشيء بين يديه ، ثم إن الآية كاشفة عن حال التابعين والمتبوعين والضعفاء والأقوياء فى أسلوب بديع منيع يجعل السامع يتخيل المشهد الجهنمى هذا كأنه يراه رأى العين بالإضافة إلى نظام التخاطب والتحاور بين هؤلاء المعذبين وبين معذبهم وهو الله تعالى .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الظاهر من هذه الآيات الثلاث أنهم هم الذين عصوا الله ورسوله على اختيار منهم ، وخالفوا أمر ربهم ورسولهم عناداً وجحوداً يدلك على هذا قولهم " يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول " فيتمنون أن لو كانوا مطيعين فى الدنيا لله ورسوله .

يظهر بمفهوم المخالفة أنهم كانوا عاصين ، ولكن قد يقول قائل هل كل عاص لله ورسوله يكون مع هؤلاء حيث تقلب وجوههم فى النار ؟ والعصيان لا ينفك عنه بشر مهما كان ، إذ العصمة من المعاصى ليست إلا لأنبياء الله ورسله ؟ والجواب عن ذلك أن العصيان هنا عصيان خاص مرتبط بالكفر ارتباطاً وثيقاً

(١) انظر : المحرر الوجيز جـ٤ ص٤٠١،٤٠٠ والجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص٥٣٧ ،٥٣٨.

يظهر لك ذلك جلياً إذا سمعت الآية الثانية حيث يقول الله تعالى (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرءانا فأضلونا السبيلا " فيفهم من ذلك أن هؤلاء العاصين كان عصيانهم مرتبطاً باتباعهم وطاعتهم لسادتهم وكبرائهم فى الكفر والعناد ، فيؤخذ من كل ما تقدم أن أصحاب كل هذه الوجوه المتقلبة فى النار هم كل من خالف الله ورسوله ولم يطعهما، بل أطاع غيرهما من السادة والكبراء وأهل الشرف والقدر عنده .وعلى هذا فهؤلاء هم الإتباع الأذناب الذين لا ينظرون ولا يتفكرون فيما يلقى على مسامعهم من كلام أهل الباطل فهم يعجبون بكلام كل ناعق مادام سيداً وكبيراً وعظيماً ، فلا كلام مع كلامه ، ولا رأى مع رأيه وإن كان المتكلم الله جل فى علاه أو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فالميزان عند هؤلاء بالقائل وليس بالقول ، ولما كان تعظيمهم لساداتهم وكبرائهم أعظم من تعظيمهم لربهم ورسولهم كان كلام هؤلاء عندهم مقبولاً ومرضياً ومعمولاً به ومحكياً ومعجبين به بكرة وعشا [١] خاصة إذا علمت أن الآيات السابقة على هذه الآيات الثلاث تقصر الأمر على من لعنهم الله من أهل الكفر استمع إلى قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا " سورة الأحزاب (٦٤، ٦٥ ، ٦٦) فالسياق مع السباق واللحاق يشهد لما ذكرناه هنا من قصر الأمر على التابعين للسادة والرؤساء فى الكفر وهو العصيان المقصود فى الآيات التى معنا. والله أعلم .

* بقي أن تعرف أن صاحب الوجه المتقلب فى السماء وهو التقلب الثاني هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم هذا هو مفهوم من سياق الآيات وسباقها ولحاقها فمثله لا يحتاج إلى التدليل عليه ، والروايات فى قصة تحويل القبلة ناطقة

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٢٨٨٢ ، ٢٨٨٣ .

بذلك وأكبر شاهد على ما نقول هو الآيات التى معنا خاصة ما فيها من ضمائر الخطاب الخاصة به صلى الله عليه وسلم ككاف الخطاب والتى ذكرت فى قوله تعالى " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ " والآية التى بعدها ست مرات ، بالإضافة إلى تاء الخطاب أيضاً والتى ذكرت مرتين إلى غير ذلك من أساليب خطابه صلى الله عليه وسلم والتى تكشف بما لا يدع مجالاً للشك أن صاحب هذا الوجه المتقلب هو محمد بن عبد الله رسول الله ، بل خاتم رسل الله صلى الله عليه وعلى أصحابه واتباعه ومن ولاه .

المطلب الرابع : الحكمة من هذا التقلب

وتختلف الحكمة فى هذا التقلب باختلاف الوجه المتقلب

أولاً :

فأما تقلب وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد كان لأمرين كشفت عنهما الروايات الواردة فى قصة تحول القبلة .

أولهما : حب رسول الله صلى الله عليه وسلم للكعبة والبيت الحرام والذى ملك عليه كل هواه حتى جعله يدعو ربه عقب صلواته ، ويكثر النظر إلى السماء رجاء أن يستجيب الله له فيحقق الله رجاءه يدلك على ذلك قول الله تعالى (فلنولينك قبلة ترضاها) أى تهواها وتتمناها قال البراء بن عازب رضى الله عنه: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر من تقلب وجهه فى السماء ، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به فأنزل الله " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ

قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ " البقرة الآية ١٤٤ (١).

وقال قتادة فى قوله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) قال هو يؤمئذ يصلى نحو بيت المقدس وكان يهوى قبلة نحو البيت الحرام فولاه الله قبلة كان يهواها ويرضاها (قول وجهك شطر المسجد الحرام) قال تلقاء المسجد الحرام (٢) .

فظهر من كل ما تقدم أن سبب التقلب راجع إلى حب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتعلقه بقبلة إبراهيم – عليه السلام – والتى تقع فى موطنه الأول مكة المكرمة لذلك تمنى على الله أن يعود إلى سيرته الأولى فى التوجه إليها .

ثانيهما : ما قرره مجاهد بن جبر فى قوله (قالت اليهود يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا قال فكان يدعو الله ويستعرض القبلة فنزلت (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) وانقطع قول يهود يخالفنا ويتبع قبلتنا و ذلك فى صلاة الظهر)(٣) فالظاهر من هذا الأثر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يضايقه ما يصله من كلام اليهود فأحب أن يتنقل فى التشريع عن مشابهة اليهودى ومتابعتهم ولو فى القبلة وأحب لأمته ألا تكون تبعاً لأهل الكتاب فى صلاتهم وعبادتهم ، وتلك حكمة عظيمة من وراء تقلب وجه رسول الله فى السماء حتى ولاه الله إلى المسجد الحرام .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصلاة باب التوجه نحو القبلة حيث كان برقم ٣٩٩ وابن ماجه فى سننه برقم ١٠٧ واللفظ له .

(٢) الأثر رواه ابن حرير فى التفسير جـ ص وذكره السيوطى فى الدر المنثور جـ١ ص ٢٨٤ وزاد نسبته إى عبد بن حميد .

(٣) انظر : تفسير الإمام مجاهد بن جبر ، ص ٢١٦ ، ت د / محمد عبد السلام أبو النيل – الناشر دار الفكر الإسلامى الحديثة ، ط الأولى ، ١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م .

ثانياً :

وأما تقلب وجوه الكافرين فى النار فيرجع أيضاً إلى حكم منها :-

الأولى :

ما فى تقلب وجوههم فى النار من تعميم العذاب على جميع صفحة الوجه وجانبيه حتى لا يبقى مكان فيه إلا وأخذ قسطه من العذاب قال الطاهر بن عاشور:

(تقلب ملائكة العذاب وجوههم فى النار بغير اختيار منهم ، أو يجعل الله ذلك التقلب فى وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء فى المشوى لتصبح على سواء، ولو كان لفح النار مقتصراً على أحد جانبى الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة)[١] .

الثانية :

ما يترتب على هذا التقلب (من تغيير ألوان وجوههم من الخضرة إلى السواد والعكس تبعاً أيضاً لتبديل جلودهم ليذوقوا العذاب أكثر وأكثر) [٢] .

الثالث :

ما فى تقلب وجوههم من جهة إلى أخرى من زيادة فى تحقيرهم وإهانتهم كما لا يخفى أن كل ذلك يزيد أيضاً من تشنيعهم وتضييع كرامتهم إن كان قد بقى لهم فى النار شيء منها ، وهذا يستنبط من تخصيص الوجه بالتقلب إذ هو عنوان كرامة الإنسان وعزه وضد ذلك كله) [٣] فإذا ما تقلب الوجه فى النار غمه وكسره فالإهانة فى ذلك ظاهرة . والله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير جـ١١ ص ٢١٧ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص ٥٣٦ .

(٣) انظر الوسيط فى التفسير للشيخ محمد سيد طنطاوى جـ١١ ص ٢٥٠ .

المطلب الخامس : صور هذا التقليب

وقد تعرض الزمخشرى لبيان هذا التقليب ، وكيفياته وقد آثرت أن انقل نص كلامه لنفاسته حيث قال : (ومعنى تقليبها : تصريفها فى الجهات كما ترى البضعة تدور فى القدر إذا غلت فيترامى بها الغليان من جهة إلى جهة ، أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها ، أو طرحها فى النار مقلوبين منكوسين) [(١)] .

* **أقول** :

ولا مانع عندى من إن يشمل هذا التقلب ويحتوى على هذه الصور الثلاث التى ذكرها الزمخشرى – رحمه الله – فيحتمل أن يقصد بتقليبها تصريفها فى الجهات المختلفة ، أو تغيير هيئاتها ، أو إلقاءها فى النار منكوسة معكوسة خاصة إذا عرفت أن تقليب الوجوه قد يستلزم البدن كله من باب الملازمة والمتابعة ويكون ذلك أنكى فى العذاب وأشد فى العقاب وإن كان الاحتمال الأول هو الأظهر والأولى بالقبول لموافقته لأصل اللغة كما قدمنا عند بيان الاشتقاق من أن التقليب معناه التصريف والتقليب من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال ، ويتأيد ذلك أيضاً بظاهر السياق من معنى التقليب وهو التفعل وهو أقرب إلى التصرف فى وجوههم وأبدانهم صعودا ونزولا ويمينا ويسارا إلى غير ذلك من وجوه التصريف . والله أعلم .

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٥٤٥ .

المطلب السادس : زمن هذا التقلب

قد سبق أن تقلب هذه الوجوه يختلف باختلاف أصحابها ، فإذا كان المتقلب هو وجه رسول الله كما هو الحال فى قوله تعالى " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ " فإن زمنه كما هو ظاهر فى الآية هو الحياة الدنيا من ناحية ، ومن ناحية آخرى هو فى المدة التى كانت عقيب هجرته فى بدء استقراره فى المدينة ، وقد اختلفت الروايات فى تحديد بدء زمن التقلب فقيل : هى ستة عشر شهرا ، أو قيل : سبعة عشر شهراً [١] أو ثمانية عشر شهراً على حسب اختلاف الروايات فى ذلك إذا كان تقلب وجه النبى صلى الله عليه وسلم فى السماء رجاء أن يصرف الله وجهه من التوجه فى الصلاة إلى المسجد الأقصى منه إلى المسجد الحرام فى السنة الأولى والثانية للهجرة هذه هى الفترة التى استمر النبى يدعو ربه ويسأله عقب الصلوات بالتصريح ، أو بمجرد النظر إلى السماء وهو يعلم أن الله يعلم ما فى قلبه وخاطره وضميره وهى مدة ليست قليلة إذا عرفت المداومة والاستمرارية على هذا الطلب فلم يكن مرة أو مرتين أو عشرة ، وإنما كان مرات كثيرة تزيد على الألف وهذا يدلك على أن زمن هذا التقلب قارب العام والنصف [٢]

وأما تقلب وجوه الكافرين التابعين لرؤساهم وكبرائهم فى الكفر فالذى تنطق به الآيات أن زمنه حاصل فى الآخرة ، بل ساعة تقلب وجوههم وهم فى النار يتعذبون فيها ، بل ويذوقون أشد أصناف العذاب وأنواعه .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب تفسير القرآن باب يقول السفهاء من الناس ص٩٢٦ برقم٤٤٨٦ .
(٢) انظر تفسير بن كثير جـ١ ص ٢٢٥ .

يشير إلى ذلك قوله " يوم تقلب وجوههم فى النار " أى إن اللعنة ستلحقهم والسعير سيشملهم ويحيط بهم من كل جهة وذلك فى يوم تقلب فيه وجوههم فى النار ، وعلى هذا فزمن هذا التقلب محدداً فى الآية بأنه اليوم الذى تصرف فيه وجوههم وتبدل من جهة إلى جهة ومن هيئة إلى هيئة كما تقلب بضعة اللحم داخل القدر حين غلايانه [١] . والله أعلم .

(١) انظر : تفسير النسفى جـ٣ ص ٤٥٧ والكشاف جـ٣ ص ٥٤٥ .

المبحث التاسع : الوجوه المتقية

المطلب الأول : الورود

لم يرد ذكر هذه الوجوه المتقية فى القرآن كله إلا فى قوله تعالى " أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ " سورة الزمر (٢٤) .

فهذا موضع لا ثانى له فى القرآن على الإطلاق ، وعلى هذا فلم يذكر هذا الوجه إلا مرة واحدة فقط [١] .

والله أعلم

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :-

فالفعل يتقى فى الآية مضارع ماضيه وقى وأصله من الاتقاء وهو : تكلف الوقاية وهى الصون والدفع ، ويتعدى الفعل وقى بنفسه فيقال: وقى نفسه ضرب السيف ، ويتعدى بالباء فيقال: وقاه بترسه ، ومن الثاني الآية التى معنا " أفمن يتقى بوجهه " ، والوقاية أيضاً : حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء ، والتقوى : المصدر من اتقى وهى جعل النفس فى وقاية مما يخاف ، ثم نقل هذا المعنى إلى الشرع وصار تعريفها : حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحظور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات .

ثم إن الفعل "يتقى" فى الآية أصله من الاتقاء على وزن الافتعال فقد تعدى فى الآية إلى مفعوله بالباء فصار قوله تعالى " سوء العذاب " هو المفعول بهذا

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٨٣٤ .

الفعل، وقد كان هو المفعول الثاني، فلما صيغ على وزن افتعال فصار: يتقى اكتفى بمفعول واحد بدل الاثنين وصار المفعول الثاني هو المفعول به لهذا الفعل [١] .

وعلى هذا فالفعل يتقى إما أن يكون أصله اتقى فمصدره الاتقاء ، أو من الفعل وقى ومصدره الوقاية فمادة هذا الفعل من التقوى والاتقاء والوقاية كلها تدور حول معانى الدفع والمنع والحفظ وصيانة الوجه عما يخافه المتقى ويحذره من النار ونحوها.

ثانياً : وأما المعنى :

فالاتقاء بالوجوه فى الآية من سوء العذاب قد اختلف أهل التفسير فى معناه : فمنهم من ذهب إلى أن صفة اتقاء هذا الضال العذاب بوجهه هى أن يرمى به فى جهنم مكبوباً على وجهه فذاك اتقاؤه إياه قاله مجاهد ، وقال آخرون : هو أن ينطلق به إلى النار مكتوفاً ، ثم يرمى به فيها فأول ما تمس النار وجهه وهذا قول يذكر عن ابن عباس وهذا الوجه قد ضعفه ابن جرير ، وقيل : إن هذا المتقى وهو الكافر يسحب على وجهه إلى النار يوم القيامة حتى يلقى فى جهنم ، وقيل : بل صفة هذا الاتقاء أنه إذا دخل النار كانت هذه النار أول ما تمس وتصيب إنما هو وجهه قبل أعضائه وذلك بإلقائه على وجهه فيها [٢] .

وقيل : إن معنى الآية حمل الاتقاء على سبيل الكناية ، وإذا كان الإنسان يتقى بيديه عند الشعور بالخطر كل ما يضر وجهه من الألم والعذاب فإن هذا المتقى بوجهه سوء العذاب لن يمكّن من دفع النار عن وجهه بأعضائه فصار كغير المتقى إلا أن يلقى على وجهه فلا يتمكن من أن يمنع النار عن وجهه غير

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٥٦٨ وعمدة الحفاظ جـ٤ ص ٣٣٤ وبحر العلوم جـ٣ ص ١٨٣ والتحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٢) انظر جامع البيان للطبري جـ٢١ ص ٢٨١ والنكت والعيون جـ٥ ص ١٢٣ .

أن يستقبلها به فظاهر الكلام أنه متق لكنه ليس بمتق ، فنفى الشيء احياناً يكون من قبيل إثباته والعكس ، فلا اتقاء فى الآية ولا دفع ولا منع للنار عن الوجه كقوله تعالى " وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " الكهف (٢٩) [١] .

والحق عندى أن اتقاء هذا المتقى سوء العذاب بوجهه لا مانع عندى من حمله على الحقيقة دون الكناية والمجاز ؛ وذلك بالقائه فى النار على أى صفة تجعله لا يتمكن عن دفع العذاب عن وجهه فيصير وجهه هو الذى تستقبله النار أول ما تستقبل من جسده فلا يستطيع دفع النار عنه تنبيه على زوال كل الموانع والدوافع عن هذا الوجه كما جاء فى قوله تعالى " وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ " إبراهيم ٥٠ ، وقوله " لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ " (الأنبياء ٣٩ ، ٤٠) .

فهذه نصوص صريحة فى عدم قدرتهم على دفع النار عن وجوههم أو الفرار منها وهذا حقيقة فى وقايتهم وتوقيهم من النار بوجوههم . والله أعلم .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

من يسمع كلمة "يتقى" يظن لأول وهلة وقبل أن يستمع إلى ما بعدها أن صاحب هذه الكلمة هو من جعل بينه وبين غضب الله وقاية ، لكنه إذا أمعن النظر بعدها أيقن أن صاحبها هالك ، وأن معناها على نقيض ما يعلمه منها فهى ليست من التقوى التى معناها فعل المأمورات واجتناب المنهيات ، وإنما معناها الهلاك والخسران لمن أطلقت عليه فهو الذى يتقى بوجهه النار ولهيبها وحرها يوم القيامة؛ ولذلك اختلفت أنظار المفسرين فى تعيين أصحاب هذه الوجوه المتقية يوم

(١) انظر التفسير الكبير جـ٢٦ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ والتحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٩٣ .

القيامة : فقال بعضهم : إنهم القاسية قلوبهم الذين مضى ذكرهم فى قوله تعالى " فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " الزمر (٢٢) ، فقد توعدهم بعذابين أحدهما: فى الدنيا وهو قسوة القلب التى ما رمى بها إلا شقى؛ ولذا استحق هؤلاء أن يحرموا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم : "من لا يرحم لا يرحم"(١).

وثانيهما : عذاب فى الآخرة لا يجد من أعضائه وأركانه ما يدفعه به عنه فلا يتوقى هذا العذاب إلا بوجهه وهو المراد فى الآية (٢) .

وقال بعضهم: إن صاحب هذا الوجه هو الضال الذى سبق ذكره فى قوله تعالى " ومن يضلل الله فما له من هاد " (٣) الزمر ٢٣ ، وقال آخرون: إنه الكافر يلقى فى النار مغلولاً فتمس النار وجهه بعذابها قال مقاتل : إن الكافر يرمى به فى النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفى عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار فى الحجر وهو معلق فى عنقه من أجل الأغلال .

ويقويه فى الآية قوله تعالى " وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون" وذاك بحمل الظلم على الكفر كما هو المعهود عند إطلاقه قال تعالى " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (٤) لقمان (١٣) وقوله " والكافرون هم الظالمون " البقرة ٢٤٥ .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته برقم ٥٩٩٧ ، ومسلم فى كتاب الفضائل باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم ٢٣١٨ .

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٦ ص ٤٤٨ .

(٣) انظر جامع البيان جـ٢١ ص ٢٨١ تفسير الرازى جـ٢٦ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(٤) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ٥ ص ٦٢٣ والجامع لأحكام القرآن جـ٨ ص ٢١٣ وجامع البيان للإيجى جـ٣ ص ٥٠١ .

وعندى أن صاحب هذا الوجه يراد به كل من كتب الله عليه الشقاء من أهل النار والعذاب فيها والبقاء فى حرها ولهيبها وهذا هو المفهوم من كلام السخاوى حيث ذكر : (أن ذلك فى شأن المعذبين بالأغلال) [١] .

كما أن سياق الآية وظاهرها يقوى ذلك من جهة أن معناها قاصر على المقارنة بين حال المتقى العذاب بوجهه ، وبين حال من حذف ذكرهم فى الآية (إذ إن معنى الآية افمن يتوقى سوء العذاب بوجهه بربطه بالأغلال كمن أمن هذا العذاب حتى دخل الجنة فهو يتنعم فيها حيث يشاء ايستوى هذا بهذا) [٢] إذاً فكل من يدخل الجنة ويتنعم فيها يكون مقابلاً لمن يدخل النار ويتوقاها بوجهه ، وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه أصحاب النار على العموم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) انظر المحرر الوجيز جـ٤ ص ٥٢٨ والكشاف جـ٤ ص ١٢٠ .

المبحث العاشر : الوجوه المحشورة

المطلب الأول : الورود

لقد ورد ذكر الوجوه المحشورة فى القرآن الكريم مرتين ، الأولى فى سورة الإسراء عند الحديث عمن كتب الله عليهم الضلال حيث قال تعالى " وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا " سورة الإسراء ٩٧ ،

الثانية : فى سورة الفرقان عند الحديث عن أشر الخلق وأضلهم وذلك فى قوله تعالى " الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا " الفرقان ٣٤ .

وليس هناك ذكر لهذه الوجوه المحشورة فى بقية آي القرآن الكريم [١] .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

فأما اشتقاق الفعلين الواردين فى آيات المبحث على صيغة المضارع فى قوله تعالى " ونحشرهم " وقوله " يحشرون " فمرجعهما إلى الفعل حشر فى الماضى يحشر بضم الشين من باب نصر ينصر ، وبكسرها من باب ضرب يضرب أى حشر يحشر بكسر الشين والوجهان جائزان والاسم المحشر بفتح الشين وكسرها .

والثاني أفصح وهو اسم المكان الذى يكون فيه جمع الخلائق يوم القيامة، والمصدر الحشر ، ومنه قوله تعالى " هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ " الحشر (٢) ، وهى أرض بنى النضير ، وأما ثانى

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٨٣٥ .

الحشرين فهو أرض الشام والتى تكون محشر الخلائق يوم القيامة ، والحشر : الجمع ، والحشر أيضاً الإخراج والإجلاء كقوله تعالى " لأول الحشر " ، ويوم الحشر : هو يوم القيامة .

وحشر البهائم والوحوش : موتها كما قال عكرمة وقيل جمعها للقصاص من بعضهم وهو الأظهر ، والحاشر : اسم من أسماء النبى – صلى الله عليه وسلم وقد جاء فى الحديث أنا محمد ، وأحمد ، والماحى يمحو الله بى الكفر ، والحاشر أحشر الناس على قدمى ، والعاقب [١] .

فحشر الوجوه على هذا تدور المادة فيه حول الإخراج والجمع فى مكان واحد للعرض والحساب .

ثانياً : المعنى :

وأما المعنى فإن حشر الوجوه فى القرآن يراد به سوقها وطردها إلى حيث يكون جمعها واجتماعها وهذا المعنى هو الأليق بالآيتين اللتين معنا واللتان تحكيان أن الله يحشر صنفاً من الناس على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، بل قد صرح فى موضع سورة الفرقان أن هؤلاء هم أشر الخلق وأضل الناس سبيلاً[٢].

* وقد وردت جملة من الأحاديث فى كيفية الحشر على الوجوه منها :

أن رجلاً قال : يا نبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ، قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، قال قتادة : بلى وعزة ربنا [٣] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب ما جاء فى أسماء رسول الله برقم ٣٥٣٢ ومسلم فى كتاب الفضائل باب فى أسمائه صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٥٤ .

(٢) انظر بصائر ذوى التميز جـ٢ ص ٤٦٨ .

(٣) صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن باب قوله " الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ، ص ١٠٠٢ برقم ٤٧٦٠ والحديث رواه مسلم فى كتاب صفة القيامة باب يحشر الكافر على وجهه جـ٢ ص ٥٢٣ كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه واللفظ للبخاري.

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم " إنكم محشورون رجالاً وركباناً ويُجَرُّون على وجوههم [١] .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم ، قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب [٢] وشوك [٣] .

* **أقول** :-

ويؤخذ من مجموع هذه الأحاديث ما يلى :

أولاً :

أن حشر الوجوه فى الآيتين معناه سوقها ومشيها وجمعها للموقف والحساب .

ثانياً :

أن حشر هذه الوجوه ومشيها على الحقيقة لا على المجاز كما ادعاه بعضهم وجعله من باب التمثيل الوارد فى قوله تعالى " أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " سورة الملك ٢٢ ، بدلالة استفهام الصحابة بقولهم : كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ أى كيف يمشى على وجهه ، والوجه ليس محلاً للمشي فى الدنيا إنما ذلك خاص بالقدمين ، لكن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الذى أمشاه فى الدنيا على قدميه قادر على أن يمشيه على وجهه فى الآخرة " .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٣٠٥ برقم ٣١٤٣ وقال هذا حديث حسن .

(٢) حدب : أى كل ما ارتفع من الأرض ، انظر : فتح البارى ، جـ ١ ، ص ١٠٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٣٠٥ برقم ٣١٤٢ وقال هذا حديث حسن .

وعلى هذا يكون مشى وجوه الكافرين يوم القيامة مشياً حقيقياً بمهارة وإتقان إلى درجة أنه يتوقى الشوك والأمكنة المرتفعة والملتوية غير المستقيمة .

ثالثاً :

أن هذه الأحاديث دالة على أصناف الناس فى المحشر وأنهم ليسوا على صنف واحد فى الحشر والمشى .

قال ابن حجر : (ويؤخذ من مجموع الأحاديث أن المقربين يحشرون ركباناً ، ومن دونهم من المسلمين على أقدامهم ، وأما الكفار يحشرون على وجوههم) [١] .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

(قد دلت الآيتان اللتان تحدثتا عن هذه الوجوه المحشورة على أن أصحاب هذه الوجوه هم الكفرة الذين كذبوا بآيات الله ورسوله حيث قال الله تعالى " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا " الفرقان (٣٢ ، ٣٤) فمرجع الضمير فى قوله " عَلَى وُجُوهِهِمْ " مع الوصف المستفاد من اسم الموصول فى قوله " الذين يحشرون " يكشف عن أن المتحدث عنهم إنما هم الكفرة وهم أشر الخلق وأضل سبيلاً ، كما أن آيات سورة الإسراء ذكرت أن أصحاب هذه الوجوه هم من أضلهم الله بسوء أعمالهم فحشرهم على وجوههم يوم القيامة ؛ لأنهم كانوا عمياً لا يرون الحق ، وبكماً لا ينطقون به ، وصماً لا يسمعونه ، ثم كان بعد ذلك التصريح بأن الله عاقبهم على ذلك بدخول جهنم سبب

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ١٠ ص ٤٥٠ .

كفرهم بآيات الله حيث قال "ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا" . فإذا انضم إلى هذا ما ذكرناه عند الحديث عن المعنى فى المطلب السابق من الروايات والآثار الصحيحة أن الذى يحشر على وجهه هو الكافر ازداد الأمر تأكيداً ، وكان القطع بأن أصحاب هذه الوجوه هم الكفرة هو الذى تنطق به الآيات والأحاديث الصحيحة فلا معدل عن ذلك كله)[١].

بقى أن نذكر هنا الحكمة فى حشر الكافر على وجهه والتى أبان عنها وفصل القول فيها الحافظ ابن حجر حيث قال : (والحكمة فى حشر الكافر على وجهه : أنه عوقب على عدم السجود لله فى الدنيا بأن يسحب على وجهه فى القيامة إظهاراً لهوانه ، بحيث صار وجهه مكان يده ورجله فى التوقى عن المؤذيات) [٢] .

وقد يتساءل البعض ولما لم يكن جزاء هؤلاء الذين رفضوا السجود لرب العالمين فى الدنيا أن يسجدوا فى الآخرة ، ولا يقبل منهم عقوبة لهم ؟

والجواب عن ذلك . أن هؤلاء الذين أبوا السجود فى الدنيا وقد كانت أركانهم وأعضاؤهم مسخرة لهم ، ومهيأة للقيام بهذا العمل ولا يمكنهم تطويع أركانهم وأعضائهم للقيام بهذا السجود فى الآخرة ؛ لأنهم لا تحكم لهم على أعضائهم ، بل إن الأمر كله لله فى هذا اليوم العظيم فإن هم أرادوا السجود لا يقدرون عليه ؛ لأنهم لا سيطرة لهم على أركان السجود فى أجسادهم قال تعالى " يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ " القلم (٤٢ – ٤٣) . لذلك كله كانت العقوبة بحشرهم على وجوههم هى الأليق بحالهم والأجزى فى عقابهم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٦ ص ١٣ وفتح البارى جـ١٠ ص ٤٤٩ – ٤٥٢ .

(٢) فتح البارى جـ١٥ ص ٢٩ .

المطلب الرابع : العقوبة والجزاء

بالنظر إلى الآيات التى تحدثت عن هذه الوجوه المحشورة يتضح لنـــا أن الله عز وجل عاقب هؤلاء الكافرين بثلاث عقوبات جزاء لهم على كفرهم .

العقوبة الأولى :

حشرهم على وجوههم إلى جهنم وهذا يحمل على معنين :

إما الإسراع بهم إلى النار ، من قول العرب : قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا ، وإما بسحبهم على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فـــى هوانـــه وتعذيبه [١] .

العقوبة الثانية :

أنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً ، وفى معنى هذه الأوصاف الثلاثة أقوال ثلاثة : **أولها** :- أنهم من شدة تحيرهم وذهولهم بما يشاهدونه من أهوال القيامة شابهوا أصحاب هذه الصفات أى أنهم يحشرون متحيرين قد اعتراهم الهم والغـــم فهاموا على وجوههم يمشون كمشية الأعمى يتكلمون بما لا يفهمون من فرط ما اعتراهم من الكرب والهول .

ثانيها :-

أو أنهم يحشرون عمياً ؛ لأنهم لا يرون ما يسرهم ، بكمـــاً لا يتكلمـــون بحجة مقبولة ، صماً لا يسمعون إلا ما فيه خزيهم والتهكم بهم ، فعبر عن عـــدم انتفاعهم بما يرون وما يتكلمون به ، وما يستمعون إليه بالعمى والـــبكم والصـــم على سبيل المجاز أيضاً كالقول الأول .

---

(١) انظر النكت والعيون جـــ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

ثالثها :

أن هذه الأوصاف الثلاثة على حقيقتها فبعد خروجهم من قبورهم يسلبهم الله قوة هذه الحواس وخواصها فلا يبصرون ولا يتكلمون ولا يسمعون ، ثم يرد الله إليهم هذه الحواس فيرون النار بأعينهم ولذلك قال الله " وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا " الكهف (٥٣) ، فإذا رأوها رد الله إليهم الكلام والنطق قال الله " وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا " الفرقان (١٣) . عند ذلك يسمعون حثيث النار وتغيظها عليهم قال تعالى " إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا " الفرقان (١٢) [١] .

وهذا هو القول الأرجح عندى لموافقته ظاهر الآية فى وصفهم بقوله " عمياً وبكماً صماً " فحمل هذه الأوصاف على الحقيقة ليس متعذراً يوم القيامة قياساً على مشى هؤلاء على وجوههم وليس على أرجلهم وأقدامهم ، فما المانع أن يجتمع كل ذلك فيهم فيحشرون على وجوههم وقد أعماهم الله وأبكمهم وأصمهم ، ولماذا نلجأ إلى المجاز والحمل على الحقيقة غير مستبعد ، ومن القواعد التفسيرية فى هذا المقام لا يكون الحمل على المجاز إلا إذا تعذر الحمل على الحقيقة ولا متعذر . والله أعلم.

العقوبة الثالثة :

أن الله ذكر فى عقابهم أنه كلما خبت النار زاده الله سعير وذلك فى قوله " كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا " الإسراء (٩٧) ، وفى مرجع التاء قولان :-

أولهما :

أنها ترجع إلى النار التى عبر عنها فى الآية بقوله " إلى جهنم " فى موضع الفرقان وقوله " ذلك جزاءهم جهنم " فى موضع الإسراء ، والمعنى

(١) انظر الكشاف جـ٢ ص ٦٦٨ والنكت والعيون جـ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

كلما انطفأ شررها ، وخف حرها ، وسكن لهيبها زادها الله بعد ذلك سعيراً حيث يرجعها على حالتها التى كانت عليه من الحر واللهيب الشديد .

ثانيهما :

أن مرجع التاء منصرف إلى الأركان والأعضاء والجلود والمعنى " كلما سكنت جلودهم من شدة الاحتراق ، وفنيت وهدأت أنفاسهم من شدة العذاب ، وضاعت أصواتهم من كثرة الاستغاثات أعاد الله لهم ذلك كله حتى يزدادوا عذاباً ونكالاً قال تعالى " كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا " النساء (٥٦) ، وإنما صنع الله بهم ذلك جزاء وفاقاً لهم على إنكارهم إعادة أجسادهم بعد فناءها ، والبعث والحياة بعد الموت ، فكان جزاؤهم أن يعيد الله ما احترق من جلودهم ، وأن يحيى ما فنى من أعضائهم وأركانهم وهذا يدلك على شدة عذابهم وأليم عقابهم [١] .

(١) انظر المحرر الوجيز جـ٣ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ والكشاف جـ٢ ص ٦٦٨ .

المبحث الحادي عشر : الوجوه المساءة

المطلب الأول : الورود

بالنظر إلى آيات القرآن الكريم كله تكشف لى أنه لا ذكر للوجوه المساءة إلا فى قوله تعالى " فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ " الملك (٢٧) .

وعلى هذا فلا ثانى لهذا الموضع فى القرآن ، ولا ذكر لهذه الوجوه إلا فى موضع واحد فقط [١] . والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :-

فإن الفعل سيئت : هو ماضى مبنى إلى مفعوله وأصله ساء يسوء سواء وهو يتعدى بنفسه كقولهم ساءه الأمر ، ويكون لازماً كما فى الآية هنا، وقولهم أيضاً : ساء الأمر والظروف والأحوال . والمصدر منه السوء وهو القبح فى كل شىء وهو بخلاف السرور وضده ؛ لأن فعل المساءة دائماً يستعمل فى الحزن والهم والغم بخلاف فعل المسرة؛ إذ يقال سره الأمر فإن أريد الحزن قيل: ساء الأمر ، والسوء : كل ما يغم الإنسان من أمور الدنيا والآخرة كفقد مال ونفس وحلول النقم ونحو ذلك .

ومنه السيئة : وهى ضد الحسنة وهى الفعلة القبيحة التى يظهر أثرها على العبد خاصة فى وجهه ، وأصل السيئة من سيوئة قلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فقيل سيئة [٢] .

وعلى هذا فإن الفعل سيئت أصله من السوء وهو ماض مضارعه يسوء ومصدره السوء والسواء .

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٨٣٥ .

(٢) انظر الوجوه والنظائر للعسكرى جـ٤ ص ٣١٦ ، ٣١٧ والتحرير والتنوير جـ١٤ ص٥٠ .

ثانياً : وأما المعنى :

فإن مادة هذا الفعل كلها تدور حول المساءة التى تلحق وجوه الكافرين ، والقبح الذى يعلو تلك الوجوه وما يلحقها من القترة والغبرة كما جاء فى قوله تعالى "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ " عبس (٤٠ – ٤٢) وهذه المساءة التى عبر عنها فى الآية التى معنا بلفظ " سيئت " هى الكلمة التى تصيب وجوه الكافرين أيضاً كما جاء فى قوله تعالى " تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ " المؤمنون (١٠٤) .

فالمعنى فى قوله تعالى " سيئت وجوه الذين كفروا " أى لقد بان على هذه الوجوه أثر العذاب فقبحت لما اعتراها من الكلح والحزن والذل والانكسار ، ولما علاها من الغبرة والقترة فانعكس ذلك كله على هذه الوجوه فأسود لونها وقبح منظرها وأظلمت حتى كأنها قطعة من ليل مظلم حالك سواده [1] .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الناظر فى قوله تعالى " فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ " .

يظهر له بجلاء أن أصحاب هذه الوجوه هم أهل الكفر الذين كذبوا بالبعث خاصة ، وأنكروا وقوع العذاب عليهم فى الدنيا والآخرة بدلالة قوله تعالى فى الآية " وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا"، وهم الذين تقدم ذكرهم فى قوله تعالى " وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " الملك (٢٥) .

قال ابن كثير فى شرح هذه الآية وما بعدها : (ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه " وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص ٤٣٩ ومعانى القرآن للزجاج جـ٥ ص ١٥٧ ومحاسن التأويل جـ١ ص ٢٩٤ .

صَادِقِينَ " أى متى يقع هذا الذى تخبرنا به من هذا البعث الذى هو الاجتماع والحياة بعد الموت بعد هذا التفرق ،فلما قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً؛لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون مالهم هناك من الشر أى:فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب.) (١)

وعلى هذا فهؤلاء الكفار هم من كذب بوقوع القيامة وحصول البعث ووقوع العذاب والحساب فيه، ولهذا لما رأوا القيامة وحلول العذاب بهم سيئت وجوههم وعلاها من الذل والصغار ما الله به عليم ، ومن هنا يعلم أن ما حكاه الله فى هذه الآية من الظلمة على وجوه الكافرين قاصر على هؤلاء فقط دون غيرهم بخلاف وجوه المؤمنين الناعمة المبيضة المسفرة الناضرة . والله أعلم

المطلب الرابع : زمنها

بالنظر إلى ما ذكره أهل التفسير هنا فى المراد بالوعد فى قوله " مَتَى هَذَا الْوَعْدُ " ومرجع الضمير فى قوله " رأوه " وكذا الإشارة و الموصول فى قوله " هذا الذى " يعلم أن زمان المساءة الحاصلة بوجوه الذين كفروا إما أن يكون ذلك حاصلاً فى الدنيا ، أو أن ذلك كائن فى الآخرة .

وبيان ذلك : أن قوله تعالى " سيئت وجوه الذين كفروا " يصح أن يقع بوجوههم فى الدنيا إذا ما شاهدوا العذاب الذى طلبوه ، والهلاك الذى استعجلوه بهزيمتهم فى غزوة بدر ، أو ما وقع بهم من ضر وجدب وقحط فى مكة إلى أن جأروا بالدعاء وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه رفع ذلك عنهم لما بينهم وبينه من الرحم عن طريق دعائه لهم حتى قال الله تعالى " وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم جـ٨ ص ١١٧ .

بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ " المؤمنون (٧٥،٧٦) أو أن هذا العذاب الذى وقع بهم هو الذى سألوه فى قوله تعالى " اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " الأنفال (٣٢) .

ويقوى هذا الاحتمال هو أن زمن مساءة وجوههم قد حصلت فى الدنيا مجيء الآية بصيغة الماضى فى أفعال الرؤية والمساءة ، والقول فى قوله تعالى " وقيل" وكل ذلك يعين على حمل المساءة وزمنها على الدنيا لا الآخرة .

ويصلح أن يكون زمن هذه المساءة حاصلاً فى الآخرة وذلك بعد مشاهدتهم يوم القيامة وخروجهم من قبورهم فى يوم البعث العظيم ، وقد نصب لهم العذاب وشاهدوا شديد العقاب قد برزت النار لهم ورأوا من العذاب ما هالهم ، وقبح وجوههم حتى علاها الهم والغم والذل والانكسار .

وعلى هذا فمجيء أفعال الرؤية والمساءة والقول بصيغة الماضى ليس على الحقيقة وإنما على المجاز العقلى لتحقق وقوع ذلك كله كقوله تعالى" أَتَى أَمْرُ "النحل ١ ، وقوله " وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ " الأعراف (٤٤) إلى غير من ذلك مما جاء فى القرآن بصيغة الماضى ولم يقع حدثه بعد [١] .

والأرجح عندى : حمل ما يقع بوجوه الكافرين من المساءة والذل والانكسار على ما جرى لهم فى الدنيا وما يجرى لهم فى الآخرة فتكون الآية عامة ، ويصح انطباقها على جميع أحوالهم ويكون ما جرى لهم فى الدنيا مقدمة لما يكون فى الآخرة لعلهم يرجعون أو يتعظون وإلا فالآخرة موعدهم والقيامة محضرهم وسيروا بأعينهم ما أنكروه ويتحقق فيهم من العذاب ما سألوه . والله أعلم .

---

(١) انظر روح المعانى جـ١٥ ص ٢٣ وزاد المسير جـ٤ ص ٣١٦ ومفاتيح الغيب جـ٣٠ ص ٥٩٦ ، ٥٩٧ وبحر العلوم جـ٣ ص ٤٧٦ ومحاسن التأويل جـ٩ ص ٢٩٤ وصفوة التفاسير جـ٣ ص ٣٩٦، ٣٩٧ .

المبحث الثاني عشر : الوجوه المسحوبة

المطلب الأول : الورود

بالنظر والبحث فى آى القرآن الكريم وجدتُ أنه لا ذكر لهذه الوجوه المسحوبة فى النار إلا فى موضع واحد وهو فى قوله تعالى " يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ " القمر (٤٨) ولا ذكر لهذه الوجوه فى بقية آى القرآن الكريم [١]. والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

فالفعل يسحبون : أصله من السحب يقال : سحب يسحب سحباً، والسحب : هو الجر يقال : سحبتُ الشىء على وجهه أى : جررته، وأنسحب أى انجر وسمى السحاب سحاباً بجره الماء أو لانجراره بالهواء والريح ، وفلان يتسحب على فلان أى يتجرأ عليه ويجر عليه أذاه [٢]

وعلى هذا فمادة السحب بجميع مشتقاتها ترجع إلى معنى جر الشىء على الأرض ، وسحبه على وجهه خاصة على جهة الإهانة .

ثانياً : وأما المعنى :

فإن سحب الوجوه يوم القيامة فى النار معناه جر أصحابها فى جهنم على سبيل الإهانة والتحقير وهذا يستلزم فى الغالب أن تكون الوجوه إلى أسفل والأرجل إلى أعلى ، ويتم ذلك بإمساك الجار بأرجل المجرجر حتى يتمكن من التحكم فيه يميناً ويساراً إلى غير ذلك .

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٢٤ .

(٢) انظر: مادة سحب فى عمدة الحفاظ جـ٢ ص ١٧٦ ولسان العرب جـ١ ص ٦١ .

ومن المعلوم أن هذا العمل وهو جرهم وسحبهم على وجوههم تقوم به الملائكة وخزنة النار بأمر الله ومشيئته قائلين لهم : وهم يجرجرونهم على وجوههم ذوقوا لفح سقر وحرها فضلاً عن عذابها وحرقها لجميع أركانكم وأعضاءكم [١] .

* فائدتان: **الأولى** : لما كان الجزاء بالسحب على الوجوه؟ :-

ذكر الحافظ ابن كثير : الحكمة فى تخصيصهم بهذا العذاب وهو السحب على وجوههم فى النار فقال : (كما كانوا فى سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون) [٢] .

ومعنى ذلك : أن شكهم وهو السعر قوبل فى الآخرة بالنار وهى حق اليقين وعينه ، وأن ضلالهم وتحيرهم فى الدنيا فى أمر الآلوهية والنبوة قوبل فى الآخرة بسحبهم وجرهم على وجوههم لا يدرون أين يذهبون أو يذهب بهم ؛ لأن المسحوب على وجهه لا يتحكم ولا يملك أمر نفسه ، وإنما أمره وتمام التصرف والتحكم فيه راجع إلى من يسحبه ، ومن هنا كان جزاؤهم من جنس عملهم ، فعاقبة شكهم كان اليقين ولكنه يقين لا ينفع ، بل يضر وهو دخولهم النار وجرهم فيها وتحيرهم فكان جزاؤهم أن يعيشوا هذه الحيرة وهذا التردد وهم يجرجرون فى سقر لا يعلمون متى ينتهى هذا العذاب أو ينفكون عن هذا العقاب .

الثانية : شواهد من المسحوبين على وجوههم :

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت

---

(١) انظر: بدائع التفسير لابن القيم جـ٤ ص ٣١٦ ، ٣١٧ والتفسير الوسيط لطنطاوى جـ١٤ ص ١١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٣٢٠ .

ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به . فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار [١] .

* أقول :-

ولعل النكتة فى تخصيص هؤلاء بالسحب على الوجوه إلى النار راجعة إلى أنهم قصدوا بأعمالهم وطاعتهم غير وجه الله تعالى ، ورجوا وجوه الخلق وألسنتهم فكان من العدل أن يجازوا بنقيض أفعالهم فكان جرهم على وجوههم وسحبهم إلى النار هو المناسب لجرمهم ، وإذا كان الإخلاص يجلب لأصحابه العزة والكرامة فى الدنيا والآخرة فإن الرياء على عكسه قد جلب لهذه الوجوه المسحوبة الذلة والمهانة ، ولأصحابها الحسرة والندامة . فتأمل واعتبر ، ولا يظلم ربك أحداً .

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ص ١٥٦ ، ١٥٧

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

قد نصت الآية التى هى فى الترتيب قبل الآية التى معنا وهى قوله تعالى "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ" على أن هؤلاء الذين يسحبون فى النار على وجوههم إنما هم المجرمون ، ومع ذاك قد اختلفت أنظار أهل التفسير فى تحديد شخصية المسحوبين على وجوههم ، وإليك إجمال ما ذكروه هنا ، والحاصل من أقوالهم يرجع إلى ثلاثة :

الأول :

أنهم أهل الشرك والكفر وهو المعبر عنه بالإجرام فى الآية وهكذا فسره الفخر الرازى [١] ، وقد ذكر الثعالبى أن أكثر أهل التفسير على هذا القول [٢] .

وقد استدل هؤلاء بما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء مشركو قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم يخاصمونه فى القدر فنزلت " يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " [٣] .

ووجه الدلالة من الحديث أنه لما كانت المخاصمة من جهة الكفار ومشركى قريش سبباً فيما حكته الآية من وعيد جزاء ضلالهم وسعورهم كان مناسباً للمقام أن يكون أصحاب هذه الوجوه هم المتوعدين فى الآية وهم كما ذكر الحديث مشركو مكة ممن ينكر القدر ، وإذا كان الحديث نصاً فى الوعيد والمتوعد به والمتوعد عليه فلا يجب العدول عنه إلى غيره .

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازى جـ٢٩ ص ٦٣ .

(٢) انظر الجواهر الحسان جـ٣ ص ٢٦٨ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب القدر باب كل شيء بقدر برقم ٢٦٥٦ ، والترمذى فى سننه برقم ٢١٥٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الثاني :

أنهم مكذبوا القدر من هذه الأمة ، وفى ذلك قد أورد السيوطى جملة من الأحاديث فى هذا المقام تحكى أن الآية نزلت فى هؤلاء المكذبين بالقدر من هذه الأمة ولكنها كلها أحاديث ضعيفة لا ترقى لدرجة الاحتجاج بها وليس لها ساق من العلم تقف عليه عند الاختلاف حتى لا يصح العدول عنه [١] .

الثالث :

وهو عبارة عن الجمع بين القولين وغيرهما حيث يعتمد هذا القول على أن لفظ الإجرام والضلال والسعر يشمل الكافرين والمبتدعين من القدرية وغيرهم من هذه الأمة ، وهذا القول هو الذى فسر به ابن كثير الآية حيث قال : (يخبر تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق ، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق) [٢] .

وهذا هو القول الأرجح عندى لأن حمل الإجرام على الكفر فقط أو على المكذب بالقدر حمل بدون دليل صحيح وتخصيص بلا مخصص والعكس أصح ؛ إذ إن لفظ الإجرام يشمل من أجرم بكفر ، ومن أجرم ببدعة مضلة ، ومن أجرم بمعصية لربه إلى غير ذلك .

قال الفخر الرازى : (فالآية عامة وإن نزلت فى قوم خاصة) [٣] ، ويشهد لهذا الترجيح أن المجرمين فى الآية جاء معرفاً بالألف واللام وهذا يفيد الاستغراق والإحاطة والشمول لجميع أفراد جنس الإجرام دون تحديد بنوع دون غيره . والله أعلم .

---

(١) انظر الدر المنثور جـ٦ ص ٢٠١ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٣٢٠ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢٩ ص ٦٣ .

المبحث الثالث عشر : الوجوه المسفرة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أنه لا ذكر لهذه الوجوه بهذا اللفظ إلا فى سورة عبس وذاك فى قوله تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ " سورة عبس (٣٨ ، ٣٩) غير أنه قد يدخل تحت وصف هذه الوجوه بالإسفار ما جاء فى قوله تعالى " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " المطففين (٢٤) فمن حيث المعنى فإن ألفاظ الإسفار والنضرة، والنعيم، كلها يكمل بعضها بعضاً ويدخل بعضها تحت بعض وسيأتى بسط هذا المقام فيما سنذكره بعد ذلك فى مطالب هذا المبحث . وعلى هذا فوصف الوجوه هنا بالمسفرة الضاحكة المستبشرة لم يجر له ذكر فى القرآن كله إلا فى موضع سورة عبس والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

لقد وصف الله هذه الوجوه بثلاث صفات :

الأولى : المسفرة وهى مشتقة من الإسفار أى وجوه ذات إسفار كقوله تعالى "وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ" المدثر (٣٤) أى أبان وكشف عن نوره ، فكذلك أصحاب هذه الوجوه وجوههم مضيئة ومشرقة ومستنيرة .

الثانية : ضاحكة وهى كناية عن السرور الذى يعلو وجوههم وهو تعبير مجازى عقلى أى كأنها من شدة سرورها ضاحكة ومتهللة .

الثالثة : مستبشرة أى ذات بشر وفرح وهو تعبير عن شدة فرحها بثواب ربها ولقائه وهو تعبير من قبيل المجاز العقلى أيضاً ، والسين والتاء فيه للمبالغة

كلفظ مستجيب وهو كناية عما يملئ هذه الوجوه من البشر والسرور الذى يكاد أن ينطق بالضحك)[١] .

وعلى هذا فإسناد الأوصاف الثلاثة إلى الوجوه من الإسفار والضحك والاستبشار كلها من قبيل المجاز العقلى وهى كناية عما تفيض به هذه الوجوه من النور والفرح والسرور والبشر والنضرة والنعيم الذى يملأهم وكل ذلك هو المعبر عنه فى موضع آخر بقوله تعالى " وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " آل عمران (١٠٧) .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

قد ذكر القرطبى (أن أصحاب هذه الوجوه هم المؤمنون)[٢] ويشهد لهذا ما جاء بعد الحديث عن هذه الوجوه من الحديث عن الوجوه المغبرة وذاك فى قوله تعالى " وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ " سورة عبس (٤٠ – ٤٢) .

فلما أشار إلى الوجوه المغبرة هذه بأن أصحابها هم الكفرة الفجرة دل ذلك على أن من تقدمهم فى الحديث عن الوجوه المسفرة كانوا مؤمنين بررة ، فى مقابل من بعدهم من الكفرة الفجرة ، ثم إن حال هؤلاء ينطق بأنهم هم أهل الإيمان ؛ لأن وجوههم مستنيرة مضيئة قد أشرقت من طول قيامها وصلاتها وكثرة وضوءها وهذا هو حال المؤمنين الصادقين كما أن ابن كثير وابن عاشور قد ذكرا أن أصحاب هذه الوجوه (هم أهل الجنة) [٣] .

---

(١) انظر : تفسير السمعانى ٤ / ٤٦٦ ، والوسيط للواحدى ٤ / ٤٢٦ ومعالم التنزيل النبوى ٤ / ٤٥٠ والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠ / ١٣٧ ، ١٣٧ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٨٦ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٨ / ٢٠٦ والتحرير والتنوير ٣٠ / ١٣٨ .

وهذا هو الظاهر من حال أصحاب الوجوه المسفرة وأنت تعلم أن الناس يوم القيامة فريقان فإما أهل جنة وإما أهل نار قد ذكر الله هذين الفريقين هنا فى سورة عبس فلما ذكر حال وجوه الكفرة الفجرة من الوصف بالظلمة والسواد فى الوجوه وهو حال أهل النار قطعا دل ذلك على أن الوجوه المسفرة مآلها ومصيرها إلى الجنة وعلى هذا فأصحاب الوجوه المسفرة هم أهل الجنة من المؤمنين الخلص والله أعلم .

المطلب الرابع : الأسباب والدواعى

وقد يسأل سائل ما أسباب إسفار وجوه هؤلاء وضحكها واستبشارها ، والناظر فيما ورد من آثار عن الصحابة والتابعين يرى الجواب مستوفياً فمن هذه الأسباب :

الأول : ما ذكره ابن عباس (أن ذلك حاصل من قيام الليل) [١]
ويتقوى هذا " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " [٢].

فقيام الليل له أثر كبير على وجه صاحبه لما يضفيه عليه من النور والحسن والبهاء الذى لا يتوفر لغيره من غير القائمين ، وقد قال تعالى " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ " الفتح (٢٩) فإذا كان هذا فى نافلة النهار ظاهراً جلياً فهو فى نافلة الليل أظهر وأجلى قال تعالى " إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا " المزمل ٦ .

الثاني : أن الإسفار حاصل من آثار الوضوء وهذا مروى عن الضحاك [٣]
ويقوى هذا ما جاء فى فضل الوضوء من قول النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٨٦ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه ، جـ ١ ، ص ٤٢٢ برقم ١٣٣٣ والألبانى فى ضعيف الجامع الصغير وزيادته ، جـ ١ ، ص ٨٣٩ برقم ٥٨١٦ وقال : ضعيف .

(٣) أنظر الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٨٦ ، وفتح القدير ٥ / ٤٩٤ .

" تأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء " [١]

والغرة بياض فى الوجه ونور وضياء وهذا ظاهر بين فى علاقته بالآية ؛ إذ كيف يكون غير المتوضئ فى حياته مسفراً وجهه يوم القيامة .

الثالث : أن الإسفار حاصل من طول ما اغبّرت فى سبيل الله والجهاد على الحق، قاله عطاء الخرسانى [٢]

ومعنى ذلك أن تعفر هذه الوجوه فى سبيل الله بما يلحقها ويعتريها من مشاق السفر ومتاعبه والقتال وشدته وما يترتب على ذلك من إغبرار هذه الوجوه بالتراب ونحوه مما يحجب بهاءها ونقاءها كان ذلك سبباً فى تعويض الله لهم بجلاء وجوههم يوم القيامة واكتسائها بالنور والضياء والفرح والبشر ؛ إذ الجزاء من جنس العمل .

الرابع : وهو الأظهر عندى والأولى بالقبول وهو أن ذلك حاصل لهم (لما أظهر الله لهم دلائل إكرامه لهم بالجنة ونجاتهم من النار من أخذ كتبهم بميامينهم ، وثقل موازينهم بالحسنات ، ومرورهم على الصراط دون تعثر ولا سقوط فى جهنم وغير ذلك مما هو كاشف عن حسن عاقبتهم وفوزهم بجنة ربهم) [٣] ؛ إذ لما حصل لهم ذلك بان على وجوههم آثار إكرام الله لهم فحسنت وجوههم ، وامتلأت نوراً وإشراقاً، وبشراً وفرحاً وسروراً .

وهذا يعم كل ما تقدم ذكره من الأسباب فلن ينجو من عذاب الله ويفوز برضوانه إلا من كان مصلياً قائماً متعبداً لله بالجهاد ونحوه مما لا يحتاج فى فضله إلى دليل والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب فضل الوضوء برقم ١٣٦ ومسلم فى كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتعجيل فى الوضوء برقم ٢٤٦ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٨٦ وتفسير السمعانى ٤ / ٤٦٦ .

(٣) انظر فتح القدير ٥ / ٤٩٤ والجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٨٦ .

المبحث الرابع عشر : الوجوه المسلمة

المطلب الأول : الورود

لم يرد لفظ الإسلام مرتبطاً بالوجه فى القرآن الكريم كله إلا فى ثلاثة مواضع أولهما قوله تعالى " بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " البقرة (١١٢) .

وثانيهما : " وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا " النساء (١٢٥) .

ثالثهما : " وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ " لقمان (٢٢) .

وليس هناك ذكر لتلك الوجوه المسلمة إلا فى هذه المواضع فقط [١] . والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

الفعل " أسلم " رباعى مهموز يقال : أسلم أمره لله أى : رضى وسلم لله فيما أجراه عليه من الفعال فهو مسلم ، ويقال أسلم فى الإسلام أى دخل فيه ، وأسلمت فلاناً إلى عدوه أى خذلته ، وأسلم الرجل فهو مسلم أى انقاد وأذعن ، والإسلام هو الانقياد والإذعان ومنه إسلام الوجه أى خضوعه وانقياده [٢] .

وعلى هذا فالفعل أسلم هو ماض مضارعه يسلم ، والمصدر الإسلام والاستسلام بمعنى الانقياد والخضوع فهو يدور حول معانى حسن الانقياد والإذعان والخضوع .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٤٣٧ والدليل المفهرس ص ٧٤ ، ٩٤٠ .

(٢) انظر مختار الصحاح ص ١٣١ والمصباح المنير ص ١٠٩ .

ثانياً : المعنى :

يرجع المعنى فى الآيات الثلاث السابق ذكرها إلى أربعة معان :

أولها : أن إسلام الوجه يحمل على من أخلص نفسه لله بأن سلك طريق مرضاته عن ابن عباس ومجاهد .

ثانيها : أو أن وجه وجهه لطاعة الله .

ثالثها : أو فوض أمره إلى الله .

رابعها : أو استسلم لأمر الله وخضع وتواضع لله ؛ لأن أصل الإسلام الخضوع والانقياد [1] .

*** أقول :-**

وهذه المعانى كلها لا تعارض بينها ، بل إن بعضها يدخل تحت الآخر فيكمله ؛ فإذا حملنا إسلام الوجه على من وجه نفسه لطاعة الله وسخرها لذلك لا يكون قد أسلم لله بحق إلا إذا كان توجهه هذا مبنياً على الإخلاص المطلق فلا يشوب عمله رياء ولا سمعه وهو الانقياد والإذعان لأمر مولاه .

وعلى هذا فلا مانع من قبول كل هذه المعانى حتى يصير العبد مسلماً لله كل التسليم والاستسلام المبنى على الإخلاص والتفويض والانقياد لله رب العالمين .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الظاهر من الآيات الثلاث التى تقدم ذكرها عند الحديث عن الورود أن أصحاب هذه الوجوه هم كل من أخلص وجهه وعبادته وقصده لله تعالى ولم يراءى فى عمله ، بل كان توجهه خالصاً لوجهه تعالى مشفوعاً بتمام الذلة والتفويض والتسليم لقضاء الله وقدره وهذا لا يتحقق إلا بدخول الإسلام

---

(١) انظر : مجمع البيان للطبرسى جـ١ ص ١٧٨ والدر المنثور للسيوطى جـ١ ص ٢١٣ .

والتصديق والإيمان بالخاتم صلى الله عليه وسلم ، وحتى يكون هذا الإسلام مقبولاً لابد فيه من شرطين :

أولهما :

أن يكون عمله فى هذا الدين مبنياً على الإخلاص وحسن القصد لله تعالى، فإذا قصد بالعمل غير الله تعالى فهو مردود عليه كما جاء في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه " (١) ، وفى التنزيل العزيز " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ " البينة (٥) .

ثانيها :

أن يكون عمله موافقاً للشريعة وعلى الهدى والسنة ، فإن توفر الإخلاص ولم يكن العمل موافقاً للشريعة فلا عبرة به ، مثال ذلك : عمل الرهبان فى الأديرة والصوامع فهم وإن كان منهم من هو مخلصاً فى عمله وعبادته ، بل قد يكون أشد إخلاصاً من بعض المسلمين لكن عمله هذا ليس على الهدى والشريعة لمخالفته النبى صلى الله عليه وسلم وعدم الإيمان به كرسول مرسل من ربه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " (٢) .

وعلى هذا فكل من أسلم وجهه لله إخلاصاً وخضوعاً فقد تمسك واستمسك بالعروة الوثقى وهو الإسلام كما قررته آية سورة لقمان ، بل قد ثبت له الأجر عند ربه ولا خوف عليه فى الآخرة ولا يحزن فى دنياه كما قررته آية البقرة ، بل

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقاق باب من أشرك فى عمله غير الله برقم ٢٩٨٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع ، ومسلم فى كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة برقم ١٧١٨ .

ليس هناك أحد أحسن ديناً منه إذا ضم إلى الإخلاص الإحسان والذى هو شرط فى الآيات الثلاث وهو كما جاء فى الحديث "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تــراه فإنه يراك"(١) .

والحاصل من كل ما تقدم أن أصحاب هذه الوجــوه هــم أهــل الإســلام والإخلاص والخضوع لله تعالى مع تحقق الإحسان والذى هو نهاية المراقبــة لله تعالى واستشعار نظر الله واطلاعه على عباده حتى يكون ذلك سبيلاً إلى هجــران المعاصى وترك الذنوب والخطايا (٢) .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى برقم ٥٠ ومسلم فى كتاب الإيمان باب الإيمان ما هو وبيان خصاله برقم ٩ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير جـــ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ والجامع لأحكام القرآن جـــ ٣ ص ٣٤٧ وفتح القدير جـــ٤ ص ٣٠٩ .

المبحث الخامس عشر : الوجوه المسودة

المطلب الأول : الورود

تعددت الآيات التى تحكى خبر هذه الوجوه وحاصلها يرجع إلى إما أن يكون وصفها بالسواد حاصلاً فى الحياة الدنيا كما جاء فى قوله تعالى " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ " النحل (٥٨) .

وقوله تعالى أيضاً " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ " الزخرف ١٧ ، وإما أن يكون نعت السواد حاصلاً بالوجوه يوم القيامة كقوله تعالى " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " آل عمران ١٠٦ وكقوله تعالى أيضاً " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ " الزمر ٦٠ .

وعلى هذا فالوجوه المسودة قد ذكرت فى موضوعين ، لكن زمن هذا الوصف حاصل فى الدنيا ، وأما وصف الوجوه بالسواد فى الآخرة فهو حاصل فى موضوعين أيضاً .

والحاصل أن ذكر الوجوه المسودة قد ورد فى القرآن فى أربعة مواضع وبالمكرر فى آل عمران تصير المواضع خمسة لا سادس لها فى القرآن بصريح اللفظ[1]

والله أعلم .

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٤٥٥ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : أما من حيث الاشتقاق فالملاحظ أن سواد الوجوه جاء فى المواضع السابق ذكرها على ثلاثة أضرب فقد عبر فى موضعى سورة آل عمران بصيغة المضارع تارة فى قوله " تسود " وبصيغة الماضى بقوله " اسودت " ، وعبر عنه فى المواضع الثلاثة الأخرى فى سور النحل والزمر والزخرف بصيغة الإسم .

فأما : عن التعبير بصيغة المضارع فى لفظ " تسود " فهو بفتح التاء ، وقيل بكسرها والأول هو الأكثر؛ لذلك كانت القراءة به . فأما كسر التاء فليناسب الماضى منه وهو أسود فكأن الكسرة عوض عن الهمز فى الماضى ، وأصله فى المضارع تسودد بدالين أدغمت الأولى فى الثانية تخفيفاً ، وأما التعبير بصيغة الماضى "اسود" أسودد بدالين كان الإدغام للتخفيف والتيسير ، وأما التعبير عن السواد بصيغة المفعول مسوداً فهو يفيد وقوع السواد عليه وغشيان السواد لوجهه واستمراره فيه كما هو حال من كذب الله يوم القيامة ، وكذا من اعترض على عطية الله له بولادة الأنثى . وفى كل هذه الصيغ الثلاث يحمل السواد فيها على أنه اللون المعروف وضده البياض يقال : اسود الرجل أى علاه اللون الأسود والرجل أسود والمرأة سوداء والتصغير منه أسيد وأسيود والجمع أساود ، والسواد من الناس المعظم والأكثر والمصدر منه الإسوداد .

وجمع السوداء وهى الصفة على سود كالبيضاء على بيض ومنه قوله تعالى "وَغَرَابِيبُ سُودٌ" فاطر ٢٧ وقول الشاعر :

بيض الصفائح لاسود الصحائف [(١)].

---

(١) البيت لأبى تمام فى مطلع قصيدة يمدح فيها المعتصم بالله ويذكر فتح عمورية انظر شرح ديوان أبى تمام للخطيب التبريزى ، جـ ١ ، صـ ٣٢ ، الناشر دار الكتاب العربى – بيروت – ط الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .

فالحاصل فيما ورد من صيغ لفظ السواد فى القرآن أن الوصف منه الأسود للمذكر ، والسوداء للمؤنث ، وجمعه من المذكر أساود ، ومن المؤنث سود ، وأن الماضى منه اسود ومضارعه يسود ، والمصدر منه الاسوداد ، واسم المفعول منه مسود ، ومعظم ذلك قد ورد به القرآن [١] والله أعلم .

ثانياً : وأما معنى السواد فى الآيات :

فهذا يختلف تفسيره بحسب أصحاب الوجوه المسودة فى كل موضع أو آية ذكر فيها فلا يصح هنا معنى واحداً لكل هذه الوجوه وقد علمت فى المطلب الأول أن الوجوه المسودة قد ذكرها الله فى أربعة مواضع ، لذلك سنذكر كل موضع بمعناه الخاص به :

فالأول : وهو موضع آل عمران والذى انصب الحديث فيه عمن اسودت وجوههم ممن كفر بعد إيمانه حيث قال الله تعالى " وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون "

وقد اختلف أهل التفسير فى بيان معنى السواد فى الآية إلى فريقين : أولهما : أن السواد هنا على حقيقته أى تتغير وجوههم حتى تصير سوداء مظلمة كأنها قطعة من الليل ألا يدل هذا على اللون المعروف الذى هو ضد البياض وهو ظاهر قول الزمخشرى [٢] وإليه ذهب الفخر الرازى [٣] ورجحه وكذا الطاهر بن عاشور [٤] بل جزم أبو حيان [٥] والآلوسى [٦] أنه قول الجمهور .

---

(١) انظر مختار الصحاح ص ١٣٤ والمصباح المنير ١١٢ ومعانى القرآن للزجاج جـ١ ص٣٨١ ، ٣٨٢.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٩١ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٣١٧ .

(٤) التحرير والتنوير جـ٣ ص ٤٤ .

(٥) البحر المحيط جـ٣ ص ٣٩٢ .

(٦) روح المعانى جـ٢ ص ٢٤١ .

وقال الإيجى : (والأصح أنهما أى السواد والبياض علامتان حقيقيتان) [١] .

فالمعنى على هذا أن الله تعالى يخبر أن الذين اسودت وجوههم يوم القيامة وتغيرت حتى صار ذلك يعرف فى وجوههم يقال لهم هذا جزاء أنكم كفرتم بربكم فى الدنيا بعد إيمانكم فذوقوا جزاء كفركم هذا عذاباً موجعاً تتألم منه الأعضاء والأركان وكل البدن والجنان بسبب الجحود والعناد والتكذيب والفساد .

ثانيهما : أن السواد هنا مجازى عما يلحق صاحب هذا الوجه من الذلة والصغار والخزى والعار .

وفى يوم القيامة حين تنكشف المكنونات والأسرار فليس هو السواد المعروف وهذا هو ما حكاه الفخر الرازى : ونسبه إلى أبى مسلم الأصفهانى[٢] .

وهذا هو الذى رجحه الراغب الأصفهانى فى المفردات [٣].

وعلى هذا يصير المعنى : وأما الذين اسودت وجوههم بما اعتراها من الذلة والخزى والغبرة والقترة بسبب كفرها وعصيانها فلهم العذاب الشديد والوعيد الأكيد . والأرجح عندى حمل السواد فى الآية على حقيقته ؛ إذ لا صارف عنه إلا بقرينة يتعذر المعنى عليه ولا قرينة هنا تمنع المعنى الحقيقى ، بل إن هول يوم القيامة ووقوع الفظائع الكبيرة فيه شاهد على صحة حمل السواد على حقيقته فما المانع أن تكون وجوه الكافرين يوم القيامة سوداء مظلمة سواداً حقيقياً محسوساً ومشاهداً خاصة أنه القول الذى ذهب إليه الجمهور والله أعلم .

الثاني : " وأما قوله تعالى " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ " فالسواد فيها : محمول أيضاً على الحقيقة ؛ إذ لما كذبوا على الله بأن نسبوا إليه ما لا يليق به تعالى كالشركاء

---

(١) جامع البيان للايجى جـ١ ص ٢٨٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٣١٨ .

(٣) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٢٥٣ .

والأنداد معه ونسبة الولد له تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وامتلأت قلوبهم بهذا سواداً وجهلاً انطبع ذلك السواد على وجوههم حتى يراه الناظر رأى العين[١] . ولذلك كان فعل الرؤية فى الآية دالاً على أن السواد محسوس ومشاهد؛ لأن ذلك لا يكون إلا بالبصر .

وأما الثالث والرابع وهما موضعا سورتى النحل والزخرف فكلا الموضعين يحكيان حال من بشر بولادة الأنثى فصار وجهه مسوداً بهذه البشارة وذاك فى قوله " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ " وقوله " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ "

(والمعنى أن الله تعالى يحكى خبر مشركى العرب وأهل الجاهلية الذين كانوا إذا بشر أحدهم بولادة الأنثى له تغير وجهه فصار بعد الضياء كدراً ، وبعد البياض سواداً ، وبعد الفرح هماً وحزناً فانعكس ذلك على تلك الوجوه فصارت كأنها سوداء من شدة ما اعتراها من الهم والغم والكآبة لدرجة أن الناظر إليه يرى وجهه كأنه مسود مع امتلاء قلبه بالغيظ على امراته فتراه قد توارى عن الناس فصار وحيداً ساكتاً متواصل الأحزان ينظر فى أمره ماذا يصنع)[٢] .

وعلى هذا فحمل السواد فى الموضعين على المجاز هو الأولى من حمله على الحقيقة ؛ لأن وقائع هؤلاء فى كل زمان متكررة وفى أيامنا خاصة نشاهد ذلك واضحاً جلياً لضعف الدين فى قلوب المؤمنين ، وكثيراً ما نرى فى مجتمعنا من هو على تلك الحالة التى وصفها القرآن فلا يتغير وجهه إلى السواد الذى هو ضد البياض ، وإنما يظهر على وجهه من الكآبة والحزن ما يراه الناظر كالسواد والظلمة.

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ٢٧ ص ٤٩٦ تفسير الآلوسى جـ١٢ ص ٢٧٤ .

(٢) انظر تفسير بن كثير جـ٣ ص ٣٢٠ . والوسيط للواحدى جـ٣ ص ٦٧ . ومعالم التنزيل جـ٢ ص ٤١٧ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الظاهر من هذه الآيات أن أصحاب هذه الوجوه المسودة ليسوا نوعاً واحداً من البشر ، بل إنهم أنواع وأصناف تبعاً لجرم صاحب كل وجه منهم فأما أولاً : أصحاب الوجوه المسودة كما جاء ذكرهم فى سورة آل عمران فقد اختلف فى أمرهم : فقيل هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى قاله عكرمة واختاره الزجاج والجبائى بدلالة قوله فى الآية " أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " وذلك أنهم كانوا يؤمنون برسول الله قبل مبعثه فلما بعث كفروا به وفيهم قال تعالى "وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" البقرة ٨٩ فهذا هو كفرهم بعد الإيمان ، وقيل هم بنو قريظة وبنو النضير ؛ لأنهم من أشد اليهود عداء للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل هم الكافرون على العموم وكفرهم بعد إيمانهم راجع إلى ما أخذه الله عليهم من الميثاق بالإيمان به فى عالم الذر وذلك فى قوله تعالى " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " الأعراف ١٧٢ . قاله أبى بن كعب ، وقيل هم المنافقون قاله الحسن وعطاء وكفرهم بعد الإيمان راجع إلى إيمانهم بألسنتهم وكفرهم بعد ذلك بقلوبهم وتسمية ما وقع منهم إيماناً مجاراة لهم على حسب ما يزعمون ، وقيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالخوارج وغيرهم . قاله ابن عباس وعلى وأبو أمامة وأبو سعيد الخدرى ، وقيل الفرار يوم الزحف ولا دليل عليه فى الآية ، وقيل هم أهل الطمع وهو كسابقه .

وقيل هم من لم يقدروا على السجود إذا أمروا به يوم القيامة قاله الكلبى وهو ما جاء فى قوله تعالى " يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ

سَالِمُونَ " القلم ٤٢ ، ٤٣ فكأنه أخذ من قوله " ترقهم ذلة " أنه هو السواد فى الآية التى معنا [١] .

وعندى أن الأظهر والأولى حمل الآية علي القول الأول ؛ وذلك لأن سياق الآيات التى ذكر فيها أصحاب الوجوه المسودة ولحاقها وسياقها كذلك كلها منصبة فى الحديث عن أهل الكتاب ، بل إنهم هم الذين توعدهم الله فى قوله " وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " آل عمران ١٠٥ وهو تصريح بأنهم المعذبون بالعذاب العظيم يوم القيامة حين تسود وجوه هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب ، كما أن لحاقها يشهد بأن الحديث مازال عن أهل الكتاب وذلك فى قوله " ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم " فنزع سياق الآية عن سباقها ولحاقها لا يليق بأسلوب القرآن ونظمه وهو المبنى على التماسك والترابط والصلة الواضحة بين جميع آياته. والله اعلم .

وأما الموضع الثاني : وهو ما جاء فى سورة الزمر فأصحاب الوجوه المسودة فيه مراد بهم من نطقت الآية بشأنهم من قول الله " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ" وبمعرفة من كذب على الله يعرف أصحاب هذه الوجوه فقد قيل : أنهم كل من نسب إلى الله ما لا يليق بذاته المقدسة من الصاحبة والولد ، وكذا أهل الشرك من عباد الأوثان والأصنام الذين قالوا كما حكى القرآن عنهم "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى"، وقيل أهل الاستكبار وذلك فى قوله " أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ" الزمر ٦٠خاصة من تكبر على الإيمان بالله ورسوله فهو أعلى منازل التكبر[٢].

---

(١) البحر المحيط جـ٣ ص ٢٩٣ وروح المعانى جـ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) تفسير البيضاوى جـ٥ ص ٧٥ .

الوسيط لطنطاوى جـ١٢ ص ٢٤٢.

وأما النصان الثالث والرابع من سورتى النحل والزخرف فأصحاب الوجوه المسودة فيهما هم الذين إذا بشروا بالأنثى اسودت وجوههم بهذا الخبر ، بل وامتلوا غيظاً وحمقاً على نسائهم ؛ لأنهم كانوا يتمنون الذكور .

وعلى هذا فأصحاب الوجوه المسودة فى هذين النصين هم كل من اعترض على عطية الله وهبته له فى الذرية والولد خاصة عند إنجاب البنات ، وقد كان ذلك من أخلاق أهل الجاهلية قبل الإسلام، بل كانوا لا يقتصرون على مجرد الاعتراض وكراهية هذه العطية ، بل يضم إلى ذلك الغيظ الشديد والتوارى خلف الستر والحجب حتى لا يراه قومه ليفكر ماذا يصنع فى أمره ، بل وأحياناً كان يأدها فى التراب حية ليتخلص من عارها وذلها طوال الدهر، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن ذمهم على ذلك ، ورفع من شأن الإناث بأن اعتبرهن هبة من الله وفضل وعطية تستوجب الشكر ، بل لقد قدمها فى الذكر على الولد وذلك فى قول الله تعالى " يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ " الشورى (٤٩)

فاللهم أجعلنا من الراضين بنعمتك ، الشاكرين لعطيتك ، المستبشرين بهبتك، واجعل ذرياتنا حجابا لنا من النار ، وألحقهم معنا فى جنان الخلد أجمعين .

المطلب الرابع : زمان هذا الاسوداد

بالنظر إلى موضعى سورتى آل عمران والزمر يتضح لنا أن هذا الاسوداد لتلك الوجوه حاصل : (يوم القيامة ولكن أهل التفسير قد اختلفوا فى تحديد الوقت الخاص فى هذا اليوم ، فقيل : إنه حاصل بعد خروج الناس من قبورهم وهو المعبر عنهم بيوم البعث ، وقيل: عند رجحان الحسنات أو السيئات وقت العرض على الميزان، وقيل عند تطاير الصحف فيسود وجه الكافر إذا رأى كتابه وفيه

سيئاته ، وقيل عند قوله " وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ " سورة يس ٥٩ ، وقيل : حين يقال: " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد "[١] .

وقيل عندما يؤمر الخلق بالسجود فلا يقدروا الكفار على السجود) [٢] .

قال الآلوسى تعقباً على هذه الأقوال :

(ولا يبعد أن يقال إن فى كل موقف من هذه المواقف يحصل شىء من ذلك إلى أن يصل إلى حد الله تعالى أعلم به) [٣] .

* **أقول** :-

وهذا توفيق حسن من الآلوسى – رحمة الله – وعلى هذا فكل الأقوال محتملة فى تحديد هذا الزمان .

وأما موضعا النحل والزخرف فالظاهر فيهما أن هذا الاسوداد واقع فى الحياة الدنيا على جهة العموم ، وأما على جهة الخصوص فهو حاصل وقت حدوث البشارة بهذا المعترض والكاره لهبة الله وعطيته يؤم إلى هذا الخصوص أمران :

أولهما : أن فى الآيتين حكاية عما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق الذميمة والعقائد الباطلة التى جعلتهم يفرقون بين الذكر والأنثى فيفرحون للأول ويحزنون للثانى . ثانيهما : أن التعبير فى الآيتين بلفظ " إذا " ، وبناء فعل البشارة للمجهول ، والتعبير عن التحول ، والتعبير بلفظ " ظل " كلها تفيد تخصيص الاسوداد بوقت مجيء البشارة إليه، بل إن عدم عطف جملة "ظل" على

---

(١) بعض حديث أخرجه البخارى فى كتاب تفسير القرآن باب إن الله لا يظلم مثقال ذرة برقم ٤٥٨١ ومسلم فى كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية برقم ١٨٣ .

(٢) تفسير البحر المحيط جـ ٣ ص ٢٩٣ .

(٣) روح المعانى جـ٢ ص ٢٤٢ .

ما قبلها بأى حرف من حروف العطف يعطينا ملمحاً وإشارة واضحة أن الاسوداد حاصل عند البشارة مباشرة فليس هناك وقت للتفكير ولا المراجعة ولا التـــردد ، ولك أن تستحضر العكس ، أما لو كان التعبير بالفاء أى " فظل " الذى يعطيك زمناً قليلاً ، أو التعبير بـــ "ثم" الذى فيه معنى التراخى ، لكن التعبير لم يكن بهـــذا ولا ذاك ، وإنما كان بأسلوب يوحى بأنه لم يكن هناك أى زمن بدلالة الفصـــل وعـــدم العطف وهذا يكشف عن سرعة هذا الاسوداد الذى يلحق وجوههم .

ومن هنا لا نعد مبالغين إذا قلنا إن اسوداد وجوه هؤلاء كان للتو واللحظة وهذا يكشف عن سرعة انفعالهم بالمعصية ، ومبادرتهم إليها دون تردد .

والله أعلم

المبحث السادس عشر : الوجوه المشوية

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يرى أن ذكر هذه الوجوه بهذا الوصف لم يرد إلا فى قوله تعالى " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " الكهف ٢٩ فهذا تصريح أن هذه الوجوه ستشوى إذا صب عليها الماء الذى يشبهه فى حره المهل وهو عكارة الزيت وبقاياه والذى يشوى وجوه هؤلاء إذا دنت وجوههم منه [١]

وعلى هذا فلا ذكر لهذه الوجوه التى تشوى بهذا الماء الحار إلا هنا فى موضع سورة الكهف . والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً :

أما الاشتقاق : فالناظر فى لفظ " يشوى الوجوه " يجد الفعل يشوى فعلاً مضارعاً ماضيه شوى أو اتشوى ، وقد يقال : أيضاً والشوى بالفتح الأطراف من الإنسان ، بل هى فى الأصابع خاصة ، ومنه قوله تعالى " نزاعة للشوى " سورة المعراج ١٦ ، ويقال للأمر الهين شوى ؛ لأن الشوى لا تكون فى المقاتل فلا يقال مثلاً نزعت منه الشوى أى ما يؤدى إلى قتله ، فشوى وجوه هؤلاء فى النار لا يؤدى إلى قتلهم ، بل يبقون عليه ليزدادوا عذاباً على عذابهم [٢].

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٤٨١ .

(٢) انظر مفردات الراغب الاصفهانى جـ١ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

ثانياً :

وأما المعنى : فحاصله أن أهل النار من الظالمين الكافرين إذا اشتد بهم العذاب ، وألقى الله عليهم العطش فيصرخون ويستغيثون قائلين أفيضوا علينا من الماء فتغيثهم الملائكة بماء قد بلغ فى الحر نهايته يشبه المعادن المذابة كالذهب والنحاس وغيره عند انهصارها أو كعكر الزيت بعد غليانه فإذا دنا منه هؤلاء للشرب ، ورأوا ما فيه ولفح وجوههم حره كرهوه فتسقط من حره فروة وجوههم، وينشوى من شدته ما تحت الفروة من اللحم ، وقيل : بل يصب عليهم الماء الحار صباً وهو المهل أو القطران فتسقط منه لحومهم وينشوى من حره وجوههم فيا تعاسة طالبيه ويا شقاء شاربيه [١].

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

المتأول فى هذه الآية يتعرف على أصحاب هذه الوجوه بوضوح وبيان لا لبث فيه ؛ وذلك أن الآية نصت على أن من تشوى وجوههم فى النار إنما هم الظلمة الوارد ذكرهم فى قوله " إنا اعتدنا للظالمين ناراً " . فأهل الظلم والطغيان هم أصحاب هذا الخذلان والاشتواء بماء كالمهل من الحرارة وسواد الألوان ، لكن هذا الظلم خاص بظلم أهل الكفر لأنفسهم وليس على جهة العموم ، والقرينة الدالة على ذلك الجملة المذكورة فى قوله تعالى (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) ثم قال بعدها (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) وهذا معناه أن الحديث مازال ممتداً عما شاء الله له الكفر فكفر وجحد ، وعاند وظلم العباد ، وكافح فى كفره وجالد ، فالظلم هذا هو الكفر بدلالة سياق الآية [٢] .

---

(١) انظر جامع البيان لابن جرير جـ١٨ ص١٠ ،١١، ١٢ ، ١٣ والكشاف جـ٢ ص ٧١٩ .

(٢) تفسير الظلم بالكفر هو اختيار معظم أهل التفسير كابن جرير الطبرى فى تفسيره جـ١١ ص١٠ والآلوسي فى روح المعانى جـ١٥ ص ٣٠٧ والطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير جـ١ ص٢٥٥، وغيرهم .

ويدلك على هذا أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى (الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) سورة الإنعام ٨٢ جثى الصحابة على ركبهم وقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ليس كذلك ألم تقرءوا قول الرجل الصالح (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [١] سورة لقمان ١٣ .

وعلى هذا ومن هذا الحديث يعلم أن الظلم فى القرآن يطلق على الشرك والكفر إلا إذا دل السياق على خلافه ولا مانع عندى أن يحمل الظلم فى الآية التى معنا على عمومه وتكون الألف واللام فيه للجنس والاستغراق فيشمل كل من ظلم وتعدى على العباد وطغى وبغى وقاتل من ألقى إليه السلام ، لأن الله تعالى فى الآية ذكر الظالمين على جهة العموم ولو أراد الظلمة من الكافرين فقط لذكرهم بوصف الكفر فكان التعبير (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ) ثم إنه لم يقل أحد كذلك أن شوى الوجوه فى النار قاصر على الكافرين فقط ، بل لقد ثبت عكسه وهو العموم وذلك فيما سنذكر فى المطلب الآتى عند الحديث عن الروايات الواردة فى كيفية شوى وجوه هؤلاء ، وفيها أن ذلك حاصل لأهل النار جميعاً بدون استثناء ، ومن هنا كان الحمل فى أن هذا الشوى شامل كل الظالمين ومحيط بأهل الطغيان أجمعين هو الأولى والأرجح والأحسن عندى والأملح .

المطلب الرابع : كيفيته

يهالك ويفظعك ما جاء من أحاديث وآثار عن النبى المختار فى كيفية شوي وجوه أصحاب النار من الظالمين والكفرة الفجار ، فقد أخرج ابن جرير بسنده عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) إبراهيم ١٦ قال يقرب إليه فيكرهه فإذا قرب منه شوى وجهه

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الديات باب ما جاء فى المتأولين برقم ٦٩٣٧ ومسلم فى كتاب الإيمان باب صدق الإيمان واخلاصه برقم ١٢٤ .

ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه يقول الله (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)[١].

وفى رواية أخرى " إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذى لا نهاية لحره فإذا أدنوه من أفواههم إتشوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود"[٢].

فهذان الحديثان قد رسما صورة حية عند من يقرأهما ، أو يستمع إليهما عن كيفية شواء وجوه هؤلاء صورة كأنها تتحرك أمام أعيننا ، وكأننا ننظر إلى ماء المهل وهو يقرب إلى وجوههم فتتساقط من شدة حرارته لحم وجوههم ، وتشوى فيه أبدانهم فما بالك إذا صب هذا الماء على جلودهم ، وغسل به صفحات وجوههم . يالله إنها والله صورة لو يحسها أهل الظلم ما ظلموا أبداً ، ولكن هيهات هيهات أن يشعر هؤلاء فضلاً عن التأثر بما من شأنه أن يغير نفوسهم وعملهم ، بل ومآلهم حتى يهجروا ما هم عليه من الظلم ، ويتركوا ما اختاروه من الكفر والإثم ، فكثيراً ما جمل هؤلاء وجوههم فى الدنيا وحشوها ، وغيروا من حركاتهم وصفاتهم حتى يخدع بهم من لا يعرف صنيعهم ، وينطوى عليه ظلمهم ، ويغتر بضحكات وجوههم من وصله الحديث عن طغيانهم فإذا جاء إليهم ونظر إلى وجوههم وأفعالهم وأعمالهم التى يظهرونها على سبيل التجميل والخداع والتمثيل ظن أنهم أطهر من رأى من الأطهار ، وأعدل من عدل من الأخيار والأبرار ، لكن ذلك لا يخفى على العليم الجبار الذى يشوى تلك الوجوه فى النار جزاء ما فعلوه من الظلم ، وما ارتكبوه من الذنوب والأوزار .

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير فى تفسيره جـ١٨ ص ١٤ والترمذى فى سننه جـ٤ ص ٧٠٥ برقم ٢٥٨٣ وقال هذا حديث غريب وأحمد فى مسنده برقم ٢٢٢٨٥ والألبانى فى ضعيف سنن الترمذى جـ١ ص ٣٠٤ وقال هذا حديث غريب .

(٢) الحديث أخرجه ابن جرير فى تفسيره جـ١٨ ص ١٤ .

المبحث السابع عشر : الوجوه المصكوكة

المطلب الأول : الورود

لم يرد ذكر هذا الوجه فى القرآن كله إلا فى موضع واحد وذلك فى قوله تعالى فى شأن قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام وهو يحكى خبر زوجه سارة حين بشرت بإسحاق عليه السلام وهى الكبيرة التى لا تلد وذلك فى قوله تعالى " فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ " الذاريات ٢٩ ، ثم لم يجر ذكر لهذا الوجه فيما عدا هذا الموضع فى القرآن على الإطلاق ، ومن هنا يمكننا أن نقول إن هذا الوجه لم يأت ذكره فى القرآن إلا مرة واحدة [١] والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :-

فأما الفعل (صك) : فهو الماضى على وزن رد ومضارعه يصك صكاً وصكوكاً وصكاكاً ، والصك هو الضرب الشديد بالشىء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأى شىء ، والصك هو اللطم ، ويتحقق ذلك بجمع الأصابع وضرب الجبهة بها.

قال الأصمعى : صكمته ولكمته وصككته ودككته ولككته كله إذا دفعته وضربته [٢] .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٠٣ .

(٢) انظر مادة صك فى لسان العرب جـ١٠ ص ٤٥٦ ومعجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخارى وفيه ما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبى طالحة خاصة ص ١١٥ ومعانى القرآن للفراء جـ٣ ص ٨٧ .

ثانياً : المعنى :

فإن صك الوجه فى الآية معناه اللطم والضرب على الوجه خاصة الجبهة منه ويكون ذلك بجمع الأصابع بعضها إلى بعض ، وضرب الوجه بها على سبيل التعجب أو الاعتراض عند المصيبة ، لكنه فى الآية التى معنا من الأول أى كان على سبيل التعجب من فعل الله وقدرته فزوجها إبراهيم عليه السلام كان كبير السن فوق المائة ، وهى فوق التسعين عجوز عقيم لا تلد فكيف يجتمع ذلك كله ويكون الولد والحمل ؟

وعلى هذا فصك الوجه فى الآية محمول على المعنيين :

أولهما : ضرب جميع الوجه ببسط اليد كلها عليه قاله ابن عباس .

وثانيهما : ضرب الجبهة خاصة بأطراف الأصابع وهذا أليق بالتعجب الذى هو مستفاد من فعل سارة عليها السلام [١] .

المطلب الثالث : صاحبة هذا الوجه

لقد نص كل من فسر الآية على أن امرأة إبراهيم عليه السلام فى الآية التى معنا إنما هى سارة فأصبح كالإجماع وهى سارة امرأة إبراهيم بنت هارون بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ وهى بنت عم إبراهيم عليه السلام[٢] ، وكانت من أحسن الناس خلقاً وجمالاً وقصتها فى الصحيحين دالة على ذلك وكانت زوجة لإبراهيم عليه السلام قبل هاجر فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (لم يكذب إبراهيم عليه السلام – إلا ثلاث كذبات : اثنتين منهن فى ذات الله عز وجل قوله : " إنى سقيم " ، وقوله : " بل فعله كبيرهم هذا " ، وقال بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ههنا

---

(١) انظر تفسير جامع البيان جـ٢٢ ص ٤٢٦ وتفسير بن كثير جـ٧ ص ٢٨١ وزاد المسير جـ٤ ص ١٧١ وتفسير الماوردى جـ٥ ص ٣١٨ .

(٢) انظر جامع القرآن للقرطبى جـ٥ ص ٦٦ .

رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختى، فأتى سارة ، قال : يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبين ، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : أدعى الله لى ولا أضرك فدعت فأطلق ، فدعا بعض صحبته فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان ، إنما أتيتمونى شيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيم ، قالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر، قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بنى ماء السماء) [١]

ووجه الدلالة من الحديث :

أن فيه بياناً لمدى حسن سارة عليها السلام وجمالها لدرجة أن الجبار لم يتمالك نفسه فبسط يده بالشر يريدها مرة بعد مرة ، وعهد بعد عهد ، ومن ناحية أخرى فالحديث دال أنها كانت زوجاً لإبراهيم عليه السلام قبل هاجر التى أخدمه إياها هذا الجبار .

ونرجع إلى كونها فى الآية هى التى صكت وجهها ، فالآية نص صريح مع آية سورة هود والتى يقول الله فيها " وامرأته قائمة فضحكت فبشرتها بإسحق ومن وراء يعقوب . قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " هود ٧٢ .

فآية سورة الذاريات ذكرت أنها لما بشرت بإسحاق ضربت وجهها بيديها ، وآية سورة هود ذكرت أنها فرحت بتعجبها قائلة " أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا " وفى السورتين تصريح بأنها امرأة الخليل عليه السلام فهى صاحبة هذا الوجه كما هو مستفاد من كل ما تقدم .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله " واتخذ الله إبراهيم خليلاً ص ٧٠١ برقم ٣٣٥٨ .

المطلب الرابع : القصة السبب

وتظهر قصة هذا الوجه بوضوح ويعرف سبب لطمه وضربه بعد استعراض هذه الآيات التى سجلت هذه القصة بما لا يدع استفساراً لمستفسر ، وقد جاءت قصة هذا فى ثلاث سور:

فأولها : سورة هود حيث قال الله تعالى : " وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ " سورة هود (٦٩ : ٧٣) .

ثانيها : فى سورة الحجر : وذلك فى قوله تعالى " وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّتِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ " الحجر (٥١ : ٥٦) .

وثالثها : فى سورة الذاريات من قوله " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ " سورة الذاريات (٢٤ : ٣٠) غير أن سورة الحجر لم يجر فيها ذكر لسارة عليها السلام .

وقصة ما جرى كما حكته هذه السور (لما كان الملائكة فى طريقهم إلى مدائن قوم لوط ليدمروها على أهلها وعلى رأس هؤلاء الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل قد مروا على الخليل عليه السلام فحسبهم أضيافاً فعاملهم معاملة الأضياف ، وقرب لهم عجلاً سميناً مستوياً بعد أن أحسن استقبالهم ترحيباً وكلاماً وسلاماً ، فلما قربه منهم لم يمدوا أيديهم كعادة الضيفان مع الطعام فأنكر منهم ذلك وأوجس منهم خيفة ، ولكنهم طمأنوه وبينوا له أنهم رسل الله وملائكته وإنما جاءوا لهلاك قوم لوط وليبشروا الخليل وزوجه سارة أنه سيولد لهما إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عند ذلك أقبلت سارة بعد هذه البشارة وصاحت بصوت عال " يا ويلتى كيف ألد وأنا العجوز العقيم " وضربت وجهها بيدها كعادة النساء تعجباً من فعل الله وقدرته ، ولكن الملائكة ردوا عليها قائلين كذلك قضى ربك وأمر وهو الحكيم فيما قضاه وقدره فيضع الأمور فى مواضعها ، وهو العليم بمن يستحق من عباده العطاء ومن لا يستحق)[١] .

وعلى هذا فسبب ضرب سارة عليها السلام لوجهها ظاهر من هذه القصة وهو تعجبها من كونها ستلد غلاماً وهى العجوز العقيم التى لم تحمل قط حتى فى وقت صباها وشبابها وهو المعبر عنه فى الآية بالعقم ، فكيف وقد اجتمع مع العقم كبر السن؟، بالإضافة إلى كبر سن زوجها وهو المعبر عنه بقولها " وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا " [٢].

وعلى هذا فسبب ضربها لوجهها لم يكن اعتراضاً على ما قضاه الله وقدره ، وإنما كان تعجباً واستغراباً . والله أعلم.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) انظر:الكشاف جـ٤ ص ٣٩٢ والتحرير والتنوير جـ١٢ ص ٣٦٠ ، ٣٦١ .

المطلب الخامس : إشكال ورده

ربما يفهم البعض من صك امرأة إبراهيم – عليه السلام – وضرب وجهها ما يصب فى قول النبى صلى الله عليه وسلم " ليس منا من لطم الخدود " [١] فيحسب أن سارة عليها السلام – قد ارتكبت منهياً عنه شرعاً ، وأن فعلها هذا يدخل تحت لطم الخدود والاعتراض على قضاء الله وقدره خاصة أن بعض المفسرين حمل الصك على اللطم وفسره به [٢] .

والجواب عن ذلك من وجوه :-

الأول :

أن نعرف الفرق بين لطم الوجه وصكه، فاللطم هو ضرب صفحة الوجه باليد مبسوطة وخصه بعضهم ببطن الراحة والكف كلها وهذا يعنى أن اللطم يستوعب معظم الوجه بمعظم اليدين أو كلتيهما ، وأما الصك فهو ضرب الوجه بأطراف أصابع اليد ، وخصه مجاهد وسفيان والسدى وغيرهم بالجبهة فقط وهذا يعنى أن سارة عليها السلام ضربت وجهها بجزء من يدها على جزء من وجهها فلا يدخل الصك تحت اللطم من هذا الجانب ؛ لأن ضرب الوجه باليد كلها يفيد الاعتراض والاندفاع والشدة ، وهذا يكشف عن مدى الحزن والهم وهو ما يكون فى المصيبة أقوى ، وأما ضرب الوجه بأطراف الأصابع فهو يفيد التعجب أكثر لما فيه من الخفة والضعف وما يستلزم ذلك من عدم حصول الألم فضلاً عن قلته أو كثرته ، وعلى هذا فإدخال الصك تحت اللطم هذا من باب التوسع والتجوز بجامع

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب ليس منا من شق الجيوب برقم ١٢٩٤ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص ٢٨١ والتحرير والتنوير جـ١٢ ص ٣٦٠ والوسيط لطنطاوى جـ١٤ ص ٢١ .

ما بينهما من معنى الضرب ولكن الفرق بينهما واضح فلعل تعبير بعض المفسرين عن الصك باللطم من هذا الجانب توسعا وتجوزا [١] .

الثاني :-

أن ضرب امرأة إبراهيم عليه السلام هو من عادة النساء فى زمانهن ، بل فى كل الأزمنة إلى يومنا هذا ففعلها هذا لا يقصد به الاعتراض على كل ما جاء فى البشارة خاصة أن هذا الحمل كان وهى عجوز قد قاربت المائة فلا يفهم من فعلتها هذه ارتكاب ما يتعارض مع الشرع والدين ، وإنما كان ذلك منها على عادة النساء عند سماع غريب البشارات حزناً كان أو فرحاً كوضع اليد على الفم كما حكى الله ذلك فى قوله " فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " إبراهيم (٩) أى : استغراباً وتعجباً .

الثالث :-

التفريق بين من صنع ذلك تعجباً وبين من صنعه اعتراضاً ، فالذى نهى عنه الحديث إنما هو الاعتراض والتضجر من فعل الله تعالى ، والذى ذكرته الآية إنما هو التعجب والاستغراب الحاصل عند سماع عجيب الأخبار وهذا هو الذى أجمع عليه أهل التفسير عند بيان الآية التى معنا ، وليس فى التعجب شيء يتعارض مع شرعنا ، ثم إن قولها كما جاء فى سورة هود " يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " هود (٧٢) يكشف عن مدى هذا التعجب وقدره، ويفيد التصريح بأن فعلها هذا كان تعجباً .

ومن هنا فإن جعل التعجب فى مرتبة الاعتراض ظلم بيّن وتفحيش وتهويل لأمر هيّن .

---

(١) انظر لسان العرب جـ١٠ ص ٤٥٦ و جـ١٢ ص ٥٤٢ وعمدة الحفاظ جـ٢ ص ٣٤٦ والمحرر الوجيز جـ٥ ص ١٧٨ .

الرابع :-

وحتى لو اعتبرنا ذلك لطماً فلعل ذاك كان مباحاً فى شريعتهم مع خلوه من الاعتراض والتأفف ؛ إذ لا يعقل إباحة الاعتراض على فعل الله وقدره فى أى شريعة فضلاً عن شريعة الخاتم صلى الله عليه وسلم فليس كل ما هو محظور عندنا كان كذلك عند من تقدمنا من الأمم . وعلى هذا فليس فى صكها لوجهها مخالفة شرعية تلزم إلحاق النقص والعيب بها ، وعلى هذا فلا إشكال فى ضرب امرأة إبراهيم عليه السلام أو لطمها بما ذكرناه من هذه الوجوه [١] . والله أعلم .

المطلب السادس : زمن الصك

فى الآية التى معنا تصريح بأن سارة زوج إبراهيم عليه السلام لما لطمت وجهها كانت عجوزاً كبيرة السن وذاك فى قوله تعالى " وقالت عجوز عقيم " ، وفى سورة هود أيضاً قولها " أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً " وقد وردت أقوال عن السلف فى تحديد الوقت الذى قالت فيه مقالتها هذه ، وضرب وجهها عنده فمن ذلك: أنها كان سنها تسعين سنة وزوجها مائة وعشرين وهكذا قال ابن إسحاق ، وعن قتادة كان سنها سبعين سنة وهو تسعين ، وقال مجاهد تسعاً وتسعين قد بلغت سارة ، وقيل كان سن إبراهيم سبع عشرة ومائة وقيل غير ذلك [٢] .

والحاصل : أن زمن لطمها لوجهها وضربها إياه كان مرتبطاً بزمن البشارة ، وحين قولها تعجباً " عجوز عقيم " وعلى هذا يكون زمن صك وجهها راجعاً إلى وقت بشارتها بإسحاق عليه السلام وهى حينئذ كانت عجوزاً بغض

---

(١) انظر المحرر الوجيز جـ٥ ص ١٧٨ وفى ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٣٨٣ والجواهر الحسان جـ٣ ص ٢٣٦ والتحرير والتنوير جـ١٢ ص ٣٦٠ .

(٢) انظر الدر المنثور جـ٣ ص ٦٤٣ والجامع لأحكام القرآن جـ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ .

النظر عن تحديد السن بزمن معين ، وأيما يكن كان سنها تسعين سنة أم تسعاً وتسعين أو أقل من ذلك أو أكثر فقولها " عجوز " تصريح بكبر سنها وتقدمها فى العمر ، وضعف قوتها وخلوها من الأسباب الزمنية للحمل ، ومن هنا يصح لنا أن نقول إن صك وجهها كان فى وقت بشارتها بإسحاق ويعقوب عليهما السلام دون تحديد سن معين مع الأخذ بكونها عجوزاً لا تلد . والله أعلم .

المبحث الثامن عشر : الوجوه المضروبة

المطلب الأول : الورود

لم يرد الحديث عن هذه الوجوه صراحة إلا فى موضعين :

أولهما :

فى قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) سورة الانفال ٥٠ .

وثانيهما :

فى قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) سورة محمد ٢٧ .

ولكنه قد ورد ذكر هذه الوجوه غير مصرح بضربها بطريق المفهوم من السياق وذلك فى قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) سورة الإنعام ٩٣ والمعنى (أى إن الملائكة تبسط أيديها بضرب وجوه هؤلاء الظالمين وأدبارهم عند احتضارهم وحلول أجلهم) [١]

وعلى هذا فلا ذكر للوجوه المضروبة فى القرآن بصريح اللفظ إلا فى موضعى الأنفال وسورة محمد ، وأما موضع الأنعام فهو بالمفهوم من السياق دون صريحه [٢] . والله أعلم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٨١ .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٥١٥ والدليل المفهرس ص ٩٠٦ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : فأما من حيث الاشتقاق :

فإن الفعل " يضرب " أصله ومصدره الضرب ، والماضى منه ضرب من باب قرن وقبض ، والضرب هو إيقاع جسم على جسم بقصد إيصال الألم والوجع، وقيل : هو إيقاع شيء على شيء وهو أعم من الأول ، والضرب فى الأرض السفر والهجرة فيها ، وضرب الأرض يكون بالمطر ، المضاربة نوع من الشركة سميت بذلك للسفر بقصد المرابحة فأخذت من ذلك تشبيهاً وتمثيلاً ، فضرب الملائكة لوجوه الكافرين يكون بسط أيديهم إليهم بالعذاب والإذلال ، وجملة " يضربون وجوههم " فى الموضعين إما أن تكون حالاً من الملائكة ، أو من ضمير التوفية وهو ضعيف وإما أن تكون خبراً للفظ الملائكة على أن جملة " يتوفى " فاعلها لفظ الجلالة محذوف والتقدير " إذ يتوفى الله الذين كفروا ، ثم يكون لفظ " الملائكة " مبتدأ خبره " يضربون "[1].

ثانياً : من حيث المعنى :

فالناظر فى كلام المفسرين يجد أكثرهم ، بل يكاد أن يكون ذلك إجماعاً منهم على أن ضرب وجوه هؤلاء المعذبين محمول على الضرب الحسى الذى يستلزم حصول الألم لمن وقع عليه ، ويكون ذلك ساعة الاحتضار وقبض أرواحهم والمعنى أن الملائكة تقوم بضرب وجوه الكافرين وأدبارهم عند احتضارهم إهانة لهم وجزاء لهم على ما فعلوه بالمؤمنين فى الدنيا خاصة عند القتال والجهاد فقد كان هؤلاء الكافرون يضربون وجوه المؤمنين بسيوفهم ، فإذا هربوا منهم تبعوهم بضرب أدبارهم دون رحمة لهم فماثلهم الله وجازاهم بهذا

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ وعمدة الحفاظ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ والبحر المحيط جـ٩ ص ٤٧٤ وتفسير الرازى جـ١٥ ص ٤٩٣ .

الصنيع عند وفاتهم ، ووقت قبض أرواحهم بان تفعل الملائكة بهم ما فعلوه بالمؤمنين عقوبة ونكالاً وعدلاً وجزاءً [١] .

والذى يقوى هذا الذى ذهب إليه أهل التفسير ما جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما من قوله " لا يتوفى أحد معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه "[٢]

وجاء عنه أيضاً أنه قال " كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف وإذا ولَّوْا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم فلا جرم قابلهم الله بمثله فى وقت نزع " [٣] .

وعن الحسن البصرى أنه قال : " قال : رجل يا رسول الله إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك فقال " ذلك ضرب الملائكة " [٤] .

والروايات والآثار فى هذا المقام كثيرة ، والحاصل أن ضرب وجوه الكافرين وأدبارهم يكون بأيدى الملائكة ، أو بالمقامع التى تكون معهم حتى يشعر هؤلاء المعذبون والواقع عليهم هذا الضرب أن ما يجرى عليهم بعد ذلك لن يكون أقل من هذا العذاب ، بل سيكون أنكى وأشد .

تنبيه :

فسر الإمام الرازى هذا الضرب وحمله على وجه غريب جداً لا يتلاءم مع سياق الآية وما ورد فى تفسيرها من آثار قد سبق لك ضرب الأمثلة منها قال رحمه الله : (وعندى فيه وجه ألطف : وهو أن روح الكافر إذا خرج من جسده

---

(١) انظر جامع البيان جـ١٣ ص ١٥ وتفسير الشعراوى جـ٨ ص ٤٧٤٣ ، ٤٧٤٤ ،، ٤٧٤٥، ٤٧٤٦ ، ٤٧٤٧ وزهرة التفاسير جـ٦ ص ٣١٥٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص ٢٥ والبحر المحيط جـ٩ ص ٤٧٤ .

(٣) تفسير الرازى جـ١٥ ص ٤٩٤ .

(٤) الأثر ذكره ابن جرير فى تفسيره جـ١٣ ص ١٦ ، ١٧ والبيهقى فى دلائل النبوة جـ٣ ص ١٠١ . والإرسال فيه ظاهر .

فهو معرض عن عالم الدنيا مقبل على الآخرة ، وهو لكفره لا يشاهد فى عالم الآخرة إلا الظلمات، وهو لشدة حبه للجسمانيات ومفارقته لها لا ينال من مباعدته عنها إلا الآلام والحسرات، فبسبب مفارقته لعالم الدنيا تحصل له الآلام والحسرات وبسبب إقباله على الآخرة مع عدم النور والمعرفة ينتقل من ظلمات إلى ظلمات فهاتان الجهتان هما المراد من قوله "يضربون وجوههم وأدبارهم")[1].

* أقول : وهذا التفسير أقرب إلى التفسير الإشارى منه إلى ما يتوافق مع سياق الآية ، والذى ينطق بالحقيقة لا بالمجاز ، ومثل هذا التفسير ما ذكره بعضهم فى قوله تعالى (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) (سورة البقرة ٥٤) . من حمل القتل على معنى قتل شهوات النفس وحظوظها من الدنيا لا القتل المعروف الذى يؤدى إلى خروج الروح من الجسد وهو الموت والفناء ، وكذا قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) سورة البقرة ٦٧ أى النفس الشريرة التى تكون فى كل واحد من البشر وهى النفس الأمارة بالسوء وهذا من حمل البقرة على المعنى المجازى غير المعروف والمفهوم من الآية [2] .

وكل ذلك ينأى عن التفسير الصحيح لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه الموافقة لأصول اللغة واشتقاقاتها ، فتنبه إلى هذا المعنى الغريب الذى ذكره الرازى والذى لا علاقة له من قريب ولا بعيد بسياق الآية وسباقها ولحاقها . والله أعلم

---

(١) تفسير الرازى جـ١٥ ص ٤٩٤ .

(٢) انظر مثلاً تفسير الالوسى جـ١ ص ٢٦١ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

نصت آية سورة الأنفال على أن أصحاب هذه الوجوه المضروبة هم أهل الكفر (ولكن بعض المفسرين ذهب إلى حمل لفظ الكافرين فى الآية على كفار مخصوصين ممن قاتل أو قتل يوم بدر مستدا بأن الآيات قبل هذه الآية وبعدها إنما هى فى الحديث عن هذه المعركة ، فالمناسب فى حال أصحاب هذه الوجوه أن يكونوا من كفار يوم بدر .

والصحيح أن لفظ الكفار فى الآية عام فيشمل هؤلاء وغيرهم إلى يوم القيامة [١] وأما موضع سورة محمد فظاهر السورة وحديثها ناطق (بأن أصحاب هذه الوجوه هم أهل النفاق والذين فى قلوبهم مرض ، فالآيات التى قبل هذه الآية التى معنا خاصة من قوله تعالى (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) سورة محمد ٢٠ ، ثم إن ما بعد هذه الآية التى فيها الحديث عن الوجوه المضروبة يأتى قوله تعالى ذلك " ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ " سورة محمد (٢٨،٢٩) . فنفاق هؤلاء ظاهر وواضح لا يحتاج فى إثباته إلى دليل [٢] .

المطلب الرابع : تخصيص الوجوه والأدبار بالضرب

حددت الآيتان مواطن الضرب والتى يقع عليها العذاب من الملائكة ، وخصت الوجوه والأدبار بالذات فلابد من تخصيص هذين العضوين من فائدة وحكمة ، ومرجع ذلك عند المفسرين إلى أمرين :

---

(١) انظر تفسير المنار جـ١٠ ص ٣١ وجامع البيان جـ١٣ ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وتفسير الشعروای جـ٨ ص ٤٧٤٣ وزهرة التفاسير جـ٦ ص ٣١٥٧ .

(٢) انظر البحر المحيط جـ٩ ص ٤٧٤ وصفوة التفاسير جـ١ ص ٤٧٢ .

أولهما :

أن هؤلاء الكافرين والمنافقين كانوا فى الدنيا إذا تقابلوا مع المؤمنين فى الجهاد والغزو ضرب هؤلاء الكافرون والمنافقون المؤمنين على وجوههم ، فإذا فروا منهم متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة أخرى من المؤمنين تبوعهم بالضرب على أدبارهم ، فكان عدلاً من الله أن يجازوا بما فعلوه بالمؤمنين فيضربون على وجوههم وأدبارهم جزاءً وفاقاً .

ثانيهما :

ما جاء فى قوله تعالى " ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه " والاتباع معناه الإقبال على الشىء بالوجه محباً له فناسب أن يضربوا على وجوههم كما أقبلوا على ما أسخط الله بوجههم ، وكره الشىء يستلزم الإعراض عنه لتوليه عنه بظهره ودبره ، فلما كره هؤلاء رضوان الله وأعرضوا عنه وتولوا عن الحق وأعطوه ظهورهم ناسب أن يضربوا على أدبارهم كما صنعوا مع ربهم ، وهذا ضرب من البلاغة فى الآية لا يخفى وهو مقابلة جرمهم بما أعده الله لهم من العذاب[١] .

المطلب الخامس : زمن هذا الضرب ومكانه

الظاهر من الآيتين أن وقت هذا الضرب حاصل ساعة الاحتضار ، وتوفى الملائكة لهؤلاء المضروبين وقبض أرواحهم ، لكن يبقى السؤال هنا مطروحاً من البعض : هل يقع ذلك عند قبض روح كل كافر ؟ أم أن ذلك وقع فى زمن خاص ومكان خاص وذلك فى يوم بدر وعلى أرضه ؟ لذلك كانت أراء أهل التفسير منقسمة فى تحديد هذا الزمن ومكانه إلى قولين :

---

(١) انظر البحر المحيط جـ٩ ص ٤٧٥ وتفسير الشعراوى جـ٨ ص ٤٧٤٦ .

أولهما :

أن ضرب وجوه الكافرين وأدبارهم حاصل ساعة احتضارهم عامة فى كل زمان ومكان .

وأن هذا واقع فى حق كل كافر عند وفاته وخروج روحه ، وظاهر الآيتين وسياقهما يقوى هذا ؛ إذ ليس فيهما تخصيص بزمن معين ولا أرض كذلك .

ثانيهما :

أن زمن هذا الضرب كان يوم بدر وأن مكانه كان بالأرض التى كانت فيها المعركة ، وأن هذا ما صنعته الملائكة بهم عند احتضارهم ساعة قتلهم على أيد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذاً فهو زمن مخصوص بيوم بدر ، ومكان محدد بالأرض التى كانت عليها هذه المعركة ، وقد استدل أصحاب هذا القول بأن ما قبل آية الأنفال وما بعدها فى شأن غزوة بدر ، وما جرى فيها من كرامة ونصر فكان مناسباً أن يرتبط ضرب وجوه الكافرين وأدبارهم بهذا الزمان وهذا المكان [(١)] .

لكن هذا القول وإن تأيد بآية سورة الأنفال وسياقها ولاحاقها فإن آية سورة محمد لا تشهد له ، بل على العكس تشهد بعموم الزمان والمكان والمضروبين وذلك أنها ليست فى سياق غزوة بدر ولكنها فى شأن المضروبين من المنافقين الذين هم أخوان الكافرين على جهة العموم ، وعلى هذا فزمان هذا الضرب ومكانه عام يشمل كل من مات كافراً فى أى زمان ومكان .

والله أعلم

---

(١) انظر صفوة التفاسير جـ١ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ وتفسير الشعراوى جـ٨ ص ٤٧٤٤ وتفسير المراغى جـ١٠ ص ١٥ وتفسير المنار جـ١٠ ص ٣١ ، ٣٢ .

المبحث التاسع عشر : الوجوه المطموسة

المطلب الأول : الورود

باستعراض آيات القرآن الكريم يعلم أن هذه الوجوه المطموسة لم يجر لها ذكر إلا فى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا " النساء (٤٧).

وما عدا هذا الموضع فلم تذكر هذه الوجوه فى غير هذا الموضع .

وعليه فالوجوه المطموسة لم تذكر فى القرآن إلا مرة واحدة فى شأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وإن كان قد ورد لفظ الطمس فى غير الوجوه كالطمس على أموال فرعون و ملأه " رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " يونس (٨٨) وعلى أعين قوم لوط كما فى قوله " فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ " القمر (٣٧) وفى حق النجوم كما فى قوله " فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ " المرسلات (٨) فكل ذلك غير داخل معنا ؛ إذ إن ورود الطمس فى حق الوجوه لم ينطبق إلا فيما ذكرنا آنفاً [١]. والله أعلم .

المطلب الثاني :الاشتقاق والمعنى

أولاً : الإشتقاق :

الفعل نطمس : مضارع ماضيه طمس من باب ضرب يضرب ، والطمس محو الأثر ، والطموس الدرس والإزالة .

والطمس : التغيير ومنه قوله تعالى " رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ " أى غيرها بنقلها عنهم [٢] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٣٥ .

(٢) انظر مادة طمس مجمل اللغة جـ٢ ص ٥٨٧ ومختار الصحاح ص ١٦٥٧ والمعجم الوجيز ص ٣٩٤ . ينقل تخريج (١) من ص ٢٢٤ .

قال الطاهر : (وأصل الطمس : إزالة الآثار الماثلة ، وقد يطلق الطمس مجازاً على إبطال خصائص الشيء المألوفة منه ، ومنه طمس القلوب أى إبطال أثار التمييز والمعرفة منها) [١] .

ثانياً : المعنى :

وأما طمس الوجوه فى الآية محمول معناه إما على الحقيقة ، وإما على المجاز فإن كان على الحقيقة فالوجه هو العضو المعروف من الجسد ، وطمسه يكون على أقوال :

أولها :

محو ما فيه وتغيير خلقته من عين وأنف وفم ونحوها فتستوى بالوجه فلا ترى فيه ، بل يصبح كأنه قطعة واحدة وهذا وارد عن جماعة كابن عباس وقتادة والضحاك وهو اختيار ابن قتيبة .

ثانيها :

تغيير وضعها بأن تصير على الأقفاء وتحول فيصير الوجه من الخلف والرأس من الأمام وهو قول ابن عباس وعطية وغيرهما .

ثالثها :

طمسها يكون بجعلها منابت للشعر بدلاً من مؤخرة الرؤوس كما هو الحال فى وجوه القردة ويتأيد هذا عند البعض بقوله " أو نعلنهم كما لعنا أصحاب السبت " بجعلهم قردة وخنازير .

وأما حمل الطمس على المجاز فعلى أقول أيضاً :

الأول :

نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها أى : على ضلالتها وهو قول الحسن.

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٣ ص ٧٩ .

والثاني :

يحتمل أن يكون المراد بالطمس القلب والتغيير ، وبالوجوه : رؤساؤهم ووجهاؤهم .

والمعنى : من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فتسلب منهم الوجاهة والرياسة ونكسوهم الصغار والإدبار والمذلة .

الثالث :

تأول عبد الرحمن بن زيد الآية بأنها فى شأن بنى قريظة والنظير حينما تحولوا إلى بلاد الشام بإجلاهم من جزيرة العرب منهزمين صاغرين وهذا هو الرد الذى عنته الآية حيث تحولوا إلى أصلهم الذى جاءوا منه [١] .

* **أقول** :-

وأولى الأقوال عندى بالصواب حمل الطمس هنا على حقيقته بغض النظر عن الحالة التى تكون عليها تلك الوجوه بعد الطمس فسواء أكانت بجعلها منابت للشعر ، أم بردها إلى الأقفاء ، أو بمحو صورة الوجه وتغير حواسه فكل ذلك جائز الوقوع فى قدرة الله عز وجل الذى لا يعجزه شىء وقد حدث مثل ذلك فى شأن اليهود قبل ذلك حين اعتدوا فى السبت وخالفوا أمر الله فمسخهم قردة وخنازير قال تعالى " فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ " الأعراف (١٦٦) .

وقال تعالى " وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ " المائدة (٦٦) ، غير أن الفرق بين من هددهم فى الآية التى معنا من أهل الكتاب وبين أسالفهم ، أن أسالفهم قد أوقع الله بهم

---

(١) انظر معانى القرآن للزجاج جـ٢ ص ٤٨ ومعانى القرآن للفراء جـ١ ص ٢٧٢ ومفاتيح الغيب جـ١٠ ص ٩٥ ، ٩٦ وزاد المسير جـ١ ص ٤١٦ .

وعيده وحل بهم عذابه ونقمته ، وأما من هددهم الله فى الآية التى معنا فإن ذلك لم يقع بهم و إنما هددوا به فى الدنيا ولعل ذلك فى يوم القيامة .

وعلى هذا فحمل الطمس على المجاز بتحويلهم من الهدى إلى الضلال غير مستاغ ؛ وذلك أنهم على ضلال وليسوا على هدى ، فكيف يطمس وجوههم وهى مطموسة فى الأساس والأصل ، كما أن الحمل على المجاز يجعل الوجوه مفسرة بالقلوب وهذا خروج باللفظ عن ظاهرة ؛ فإنه كما أنه لا يجوز الحمل على المجاز إلا إذا تعذر الحمل على الحقيقة وأى تعذر والأمر متعلق بالقدرة والقوة ، وقدرة الله فوق الشك والتهم ، فإذا ما عرفنا أنه قد حدث ذلك وأمثاله فى بعض من خالف فى الأمم السابقة سهل علينا تصوره وهان حصوله ووقوعه . والله أعلم .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

من خلال الآية الكريمة وهى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا... " النساء (٤٧)

يعرف أن أصحاب هذه الوجوه المطموسة هم كل من لم يؤمن من أهل الكتاب بالقرآن المنزل على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وكونه كتاباً ومعجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء قد هددهم الله بما ذكرته الآية من الوعيد بطمس الوجوه والرد على الأدبار ، أو اللعن والطرد من رحمة الله كما لعن أسلافهم من اليهود والنصارى ، كأصحاب القرية الذين نهوا عن العمل يوم السبت ؛ لأنه يوم عبادة فخالفوا أمر الله وعملوا فى هذا اليوم وتعدوا على حرمته بالاصطياد فيه فجازهم الله على سوء صنيعهم ومسخهم قردة وخنازير ليعتبر بهم من بعدهم [١] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٩٥ ، ١٩٦ ومحاسن التأويل جـ٣ ص ١٤٣ .

وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه المطموسة هو كل من خوطب فى هذه الآية من أهل الكتاب على جهة العموم سواء أكان من علمائهم أم من عوامهم ، لكن السدى قال : نزلت فى مالك بن الصيف ، ورفاعه بن زيد بن التابوت من بنى قينقاع وكذا الضحاك الذى جعل الآية فى من كفر من أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم [١] .

وقال الشيخ رشيد رضا تعقيباً على هذه الآثار : (وظاهر كلام هؤلاء أن المخاطبين بهذه الآية هم الذين كانوا على ما يعتقدون أنه الحق من التوراة ، وأنهم كانوا معذورين عند الله فيما هم عليه كأنهم الذين قال فيهم : " وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ " الأعراف (١٥٩) .

فحذرهم من إرجاء الإيمان والتسويف به حتى لا يطول عليهم العهد ، فيصعب عليهم الإيمان ويضعف استعدادهم لقبوله لغرورهم بجاههم فيه) [٢].

والحاصل أن أصحاب هذه الوجوه المطموسة تتوقف معرفتهم على معرفة المخاطبين بهذه الآية ، فإما أن يكونوا عموم أهل الكتاب فمن لم يستجب منهم للإيمان بالقرآن ورسول القرآن أصابه ما توعدته به الآية ، وإما أن يكون المخاطب بالآية علماؤهم وأحبارهم لاسيما من كان فيهم بقية من التمسك بالوصايا والمواعظ التى حفظوها وتعلموها من التوراة والإنجيل ، فكأن الآية تحذرهم من العمل بنقيض ما علموه من صفات ونعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم والتى استفاضت وأفاضت كتبهم بالإخبار عنها ، فطمس الوجوه مرتبط بعدم التصديق بهذا الكتاب العزيز ومن نزل عليه صلى الله عليه وسلم . والله أعلم .

---

(١) جامع البيان جـ٨ ص ٤٤٢ والدر المنثور جـ٢ ص ٣٢٣ وتفسير ابن أبى حاتم جـ٣ ص ٩٦٧ .

(٢) تفسير المنار جـ٥ ص ١١٨ .

المطلب الرابع : زمن هذا الطمس

الناظر فى كتب التفسير يتبين له بجلاء أن زمن طمس هذه الوجوه قد وقع الاختلاف فيه على حسب ارتباطه بالتهديد الذى ذكرته الآية ، وهل وقع هذا التهديد أم لا ، كما أن هذا الزمن مرتبط أيضاً بحمل الطمس فى الآية على الحقيقة أو على المجاز فمن حمله على الحقيقة بتغيير خلقتها بجعلها فى الاقفاء أو جعلها منبات للشعر أو محو حواسها من بصر وأنف وفم ونحوه .

ذهب إلى أن ذلك لم يقع فى الدنيا ، وإنما سيكون يوم القيامة حين يأخذ هؤلاء كتبهم من وراء ظهورهم وهذا يقتضى إدارة الوجوه ناحية الظهور لتتمكن من قراءة كتبها وتنظر فيها بأبصارها [١] ، وأما وقوع ذلك فى الدنيا فلم يكن ؛ لأنه أتى فى الآية على سبيل التهديد الذى لم يتحقق .

وأما من حمل طمس الوجوه على المجاز بجعلها عمياء صماء بكماء عن الحق غارقة فى الضلال فهذا قد وقع لهؤلاء فى الدنيا من اليهود والنصارى الذين ضلوا عن الحق بعد معرفته ، أو أنهم تاهوا فى طلبه ، وكذا من حمل طمس الوجوه على انقلاب حال وجهائهم وكبرائهم من مراقى العز إلى مهاوى الذل ، ومن درجات الرئاسة إلى دركات الخساسة كما حدث لبنى النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة وغيرهم ممن أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشام وكذا من أجلاهم الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أذرعات واريحاء من أرض الشام .

وعلى هذا فزمن الطمس مرتبط بحمل هذا الطمس على الحقيقة أو المجاز فمن حمله على الحقيقة جعل زمنه يوم القيامة وأن ذلك لم يقع فى الدنيا ، ومن حمله على المجاز كما رجحه الطاهر بن عاشور [٢] جعله واقعاً فى الدنيا كما حدث لمن أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود إلى أرض الشام وكذا الخليفة الثاني إلى اريحاء . والله أعلم .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ٩٠٧ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٣ ص ٧٩ .

المبحث العشرون : الوجوه المغبرة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آى القرآن الكريم يجد أن خبر هذه الوجوه وحالها ، وما وصفها الله به من الأوصاف التى لم يجر لها ذكر فى القرآن إلا مع هذه الوجوه يجد أن هذه الوجوه بهذه الأوصاف لم يأت ذكرها إلا هنا فى سورة عبس وذلك فى قوله تعالى "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ " عبس (٤٠ – ٤٢) .

فالألفاظ والأوصاف بالغبرة والقترة والفجرة ألفاظ لم تستعمل فى القرآن إلا هنا ، وهى تعبيرات لم تخلع على طائفة من الناس إلا مع أصحاب الوجوه المغبرة . وعلى هذا فحال خبر هذه الوجوه لم يتكرر فى موضع آخر ، بل لقد انفردت سورة عبس به دون بقية سور القرآن الكريم [١] .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

يلاحظ فى هذا النص أن الله تعالى أخبر عن وجوه الكافرين بأنه عليها يوم القيامة غبرة ، ثم إنه تعلوها بعد ذلك القترة ، ثم أشار إلى أصحاب هذه الوجوه مبيناً بعد فرطهم فى الشر بقوله " أولئك هم الكفرة الفجرة .

(**أولاً**) أما الغبرة فهى من الغبار الذى هو بقايا ما يتناثر من التراب خاصة عند إثارة الأقدام له وهو كناية هنا عما يعلو هذه الوجوه من السواد والحزن الذى يكشف عن سوء مصيرهم ، فمعنى الغبرة على ذلك سواد فى الوجه وحزن وكدرة تظهر على صفحات وجوههم .

(**ثانياً**) : وأما القترة فهى الظلمة التى تغشى وجوههم المسودة من فرط عصيانهم وكفرهم وفجورهم .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٣٥ .

والمعنى أن هذه الوجوه يضاف إلى كونها مسودة أنها تعلوها ظلمة وكآبة يشبه سواد الدخان إذا اجتمع مع الغبار ، ومجيء التعبير هنا بالقترة بعد الغبرة يفيد أن معنى الثاني غير الأول (بخلاف من سوى بينهما واعتبرهما بمعنى واحد)[1] والأرجح ما فسرنا به الآية من حمل كل لفظ على معناه الخاص به .

(**ثالثاً**) وأما لفظى " الكفرة الفجرة " فهما جمعان للكافر الفاجر كلفظى الكافرين والفاجرين فهما جمع للكافر الفاجر أيضاً ، وقد ذكر بعضهم أن جمع الكافر على الكفار فيما يخص الاعتقاد ، وأما ما يتعلق بكفر النعمة فجمعه على كفرة كما هو الشأن هنا ، والصحيح أن لفظ الكفر بجميع صيغه لا يخرج عن دائرة كفر الاعتقاد والملة بدلالة أن هنا قد قابل حال وجوه هؤلاء الكفرة بحال من وجوههم مسفرة وهم المؤمنون قطعاً ، وليس هم المؤمنين بالنعمة فقط حتى يوافق هنا الكافرين بها . وعلى هذا فلفظا الكفرة والفجرة كلاهما جمع للكافر الفاجر الذى تحقق فيه كفر الاعتقاد ويزيد على ذلك فجوره فى العمل والسعى .

بقى أن نذكر هنا أن الكفر أصله الستر فكأن الكافر قد غطى وستر كل ما يدل على وحدانية الله ووجوده ، وأما الفجور فمعناه والأصل فيه شق الديانة والخروج عن مألوفها وعرفها كلفظ الفسق الذى هو الخروج عن أحكام الشرع وتعاليمه كما أن الفأرة تسمى بالفويسقة لخروجها عن الطبع السليم لخبثها وحل قتلها حتى فى الحرم .

* ولفظ الفاجر يجمع على فجار وفجرة أيضاً قال تعالى "وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" الانفطار ١٤، وقال هنا "أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ "عبس٤٢ والله اعلم)[2].

---

(١) ذهب إلى هذا الجوهرى فى الصحاح جـ ٢ / ص ٧٨٥ وابن منظور فى اللسان جـ ٥ / ص ٧١ مادة قتر والفيروزابادى فى بصائر ذوى التمييز جـ ٤ / ص ٢٣٧ .

(٢) انظر تفسير هذه الآيات عند غريب القرآن للراغب ٣٦٩ وعمدة الحفاظ ٣ / ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ . وتفسير السمعانى ٤ / ٤٦٦ . وتفسير الوسيط للواحدى ٤ / ٤٢٦ . وتفسير السخاوى ٢ / ٥٧١ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الظاهر من الآيات بدلالة النص أن أصحاب هذه الوجوه هم الكفرة الفجرة الذين جمعوا إلى الكفر وصف الفجور أى إنهم ضموا إلى كفر الاعتقاد سوء العمل ومن هنا يعلم أن هؤلاء الكفرة ليسوا كبقية الكفرة ؛ لأن الزيادة فى الوصف يترتب عليها زيادة فى المعنى وزيادة فى التقييد عقب الإطلاق ، فالمتحدث عنهم كفرة فجرة وليسوا كفرة فقط ولم يجتمع هذان الوصفان فى القرآن إلا هنا وهذا يدل على شدة كفرهم وفجورهم [١] .

وعندى أنه لا مانع من أن يكون هذا الوصف أعنى وصف الكفر مع وصف الفجور فى شأن الكافر المحارب الذى لم يكتف بإنكار الوحدانية ، أو جحد الآلوهية على العموم وإنما ضم إلى ذلك دعوة الآخرين إلى معتقده بشتى الوسائل العصرية ، كما أنه يحارب أهل الإيمان والعقيدة بتجيش الجيوش من ناحية ، وإلقاء الشبه والأفكار الضالة المضلة ، وتشكيك أهل الإيمان فى إيمانهم من ناحية أخرى كذباً وبهتاناً فهو يحادد الله ورسوله ويحارب من آمن بمن كفر فمثل هذا لا يساوى فى الكفر بمن اقتصر على الإلحاد فقط وعاش لنفسه ولم يكن له هم إلا الاستمتاع بحظوظ الدنيا وملاذها الفانية دون أن يكون له اهتمام بمحاربة أهل الفضيلة والشرع والدين فمثل هذا كفره على نفسه بخلاف الصنف الأول والذين قال الله فيهم "لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ " النحل ٢٥ وقوله تعالى " وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ " العنكبوت ١٣ وقوله حكاية عن بعض أهل النار " رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٤ / ٦٩٢ . وتفسير السمعانى ٤ / ٤٦٦ . وإرشاد العقل السليم ٥ / ٨٣٦ . والتحرير والتنوير ٣٠ / ١٣٨ .

وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ " الأعراف ٣٨ . وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه هم كفرة مخصوصون موصوفون بالفجور وهذا أشنع فى حقهم وأقبح فى ذكرهم .

ولعل تحلية اللفظين بأل المعرفة والتى تفيد العهد ما يبين عن أنهم كفار معهودون عند السامع ، معرفون بهذا الوصف أى أولئك هم الكفرة المخصوصون وليسوا على جهة العموم وإلا لما كان لدخول أل فائدة هنا فتنبه وأفهم .

والله أعلم .

المطلب الرابع : زمن الغبرة والقترة

فى الآيات بيان واضح أن هذه القترة وتلك الغبرة حاصلة بالكافرين يوم القيامة وذلك فى قوله " يؤمئذ " ، ولكن يوم القيامة كثيرة مواقفه ، والأحداث الواقعة فيه فمتى تكون هذه الغبرة فى يوم القيامة ؟

والجواب عن ذلك : جاء فى خبر مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وذلك فيما رواه ابن أبى حاتم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يلجم الكافر العرق ، ثم تقع الغبرة على وجوههم.، قال فهو قوله تعالى " وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ " [1] ، فإذا عرفت أن الكافر يلجمه العرق أى يصل إلى فيه حين تدنو الشمس من الرؤوس كما قال النبى صلى الله عليه وسلم " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم

---

(١) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره ١٠ / ٣٤٠٠ برقم ١٩١٣١ . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم ١٤٦٠ ، وله شاهد من حديث ابن مسعود رواه ابن حبان فى صحيحه برقم ٧٣٣٥ " إن الكافر يلجمه العرق يوم القيام فيقول أرحنى ولو إلى النار ".

كمقدار ميل قال سليم بن عامر[١] . فوا لله ما أدرى ما يعنى بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذى تكتحل به العين ، قال فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه [٢].

إذا عرفت ذلك بان لك أن الغبرة حاصلة على وجوه هؤلاء إذا دنت الشمس من رؤوسهم وألجمهم العرق فى المحشر ، لكن لفظ ثم فى رواية بن أبى حاتم يفيد التراخى الزمنى ، فهل هذا التراخى قليل أم كثير ؟ الرواية لم تكشف عن ذلك ، وعلى هذا فالغبرة حاصلة بعد إلجامهم بالعرق ، لكن تحديد المدة غير متيقن لنا والله أعلم .

---

(١) هو سليم بن عامر الكلاعى الجنائرى أبو يحيى الحمصى حدث عن عوف بن مالك والمقداد بن الأسود وعنه عبد الرحمن بن جابر وصفوان بن عمرو وثقه النسائى وابن سعد والذهبى بقى إلى عشر ومائة وقبل ثلاثين ومائة ، انظر ترجمته فى خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص ١٥٠ والكاشف للذهبى ١ / ٣٨٩ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه – كتاب صفة الجنة – باب فى صفة يوم القيامة جـ ٢، ص ٥٤٢ .

المبحث الحادي و العشرون : الوجوه المغسولة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن هذه الوجوه لم يرد ذكرها إلا فى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ " المائدة (٦)

وأنه لا ذكر لها فى بقية القرآن كله ، وعلى هذا فلم تذكر هذه الوجوه المغسولة إلا فى موضع سورة المائدة [١] .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :-

فأما الفعل " يغسل " فالماضى منع غسل يغسل وهو المضارع ومصدره الغسل بالفتح وبالضم ، وقيل : الغسل بالضم هو الاسم وبالفتح هو المصدر يقال : غسلت الشيء غسلاً وغسلاً أى أسلت عليه الماء لأزيل ما عليه من درن ، وغسل الأبدان إزالة أدرانها ومنه قوله تعالى " حتى تغتسلوا " ، والمغتسل هو مكان الاغتسال أو هو الماء الذى يغتسل به قال تعالى " هذا مغتسل بارد وشراب " ص ٤٢ والغسلين : هو صديد أبدان أهل النار وقيحها خاصة الكفرة منهم قال تعالى "وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ " الحاقة (٣٦ ، ٣٧) والاغتسال هو صب الماء وإفاضته على البدن [٢] .

وعلى هذا فقوله فى الآية فاغسلوا وجوهكم " هو فعل أمر الماضى منه غسل ومضارعه يغسل والمصدر غسلاً بالفتح أو الضم والاسم منه الغسل بالضم،

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٦١٠ .

(٢) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٧٣ عمدة الحفاظ جـ٣ ص ١٦٣ .

والمادة كلها تدور حول سيلان الماء وصبه على البدن أو عضو من أعضاءه كالوجه كما هو فى الآية .

ثانياً : وأما المعنى :-

فهو ظاهر فى كون الأمر بغسل الوجه يقتضى الفرض أى يا من تحقق فيكم الإيمان فإنه لا يكتمل إيمانكم إلا بالصلاة ، ولا تصلح الصلاة إلا بالوضوء والذى هو من أول فرائضه غسل الوجه بنقل الماء إليه بالكفين ونحوهما وإمراره عليه حتى يتخلل الماء جميع أجزائه ، وقد اشترط المالكية تدليك الوجه عند الغسل باليدين ونحوهما فلا يكون الغسل معتبراً عندهم إلا بهذا وإن كان الجمهور على خلافه فيكفى عندهم إجراء الماء على الوجه دون شريطة التدليك وبهذا يتحقق غسل الوجه عندهم وحصول الفرض .

بقى أن نذكر حد الوجه المأمور بغسله عند الفقهاء : من منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفيما هو أسفل الذقن خلاف محله كتب الفقه وكذا تخليل اللحية الكثيفة أو الخفيفة فالأمر فيه كالذى قبله ، وأما المضمضة والاستنشاق فمحلهما الفم والأنف قد ثبت الأمر بهما فى السنة وهما وإن كان من الوجه إلا أن الحكم فيهما على السنية وليس على الفريضة . [١][٢]

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب المضمضة فى الوضوء برقم ١٦٤ ص ٥١ وباب من مضمض واستنشق من غرفة واحدة برقم ١٩١ ص ٥٧ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٨ ، ٢٩ والجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ وفتح القدير جـ٢ ص ٢١ ، ٢٢ .

المطلب الثالث : أحاديث فى غسل الوجه

الحديث الأول :-

عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه أنه دعى بتور من ماء فكفأ على يديه فغسلهما ثلاث مرار ، ثم أدخل يده فى التور فمضمض واستنثر ثلاث مرات من غرفة واحدة ، ثم أدخل يده فاغترف بها فغسل وجهه ثلاث مرات ، ثم غسل يديه على المرفقين مرتين مرتين ، ثم أخذ بيده ماء فمسح رأسه فأدبر وأقبل ، ثم غسل رجليه فقال : هكذا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ [١] .

الحديث الثاني :-

عن حمران مولى عثمان بن عفان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرار فغسلهما ، ثم أدخل يمينه فى الإناء فمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار ، ..... الحديث . [٢] .

الحديث الثالث :-

عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه أخذ غرفة من ماء فمضمض بها واستنشق ، ثم أخذ غرفة من الماء فجعل بها هكذا أضافها إلى يده الأخرى فغسل بهما وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح برأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء فرش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله يعنى اليسرى ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ [٣] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب الوضوء من التور برقم ١٩٩ ص ٥٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً برقم ١٥٩ ص ٥٠ ومسلم فى كتاب الطهارة باب صفحة الوضوء وكماله جـ١ ص١١٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب غسل الوجه باليدين من غرفة واحدة برقم١٤٠ ص٤٧ .

* **أقول** :-

والحاصل من هذه الأحاديث وغيرها أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتدأ وضوءه بغسل الوجه كما هو الحال فى الآية ثلاث مرات بغرفة واحدة وبأكثر من ذاك على سبيل التيسير والتخفيف وعلى حسب ما يتيسر للمتوضئ ، بقى أن نذكر هنا أن غسل الوجه فى الوضوء يترتب عليه سقوط جميع الخطايا والذنوب التى تتعلق بهذا الوجه المغسول فى الوضوء يدلك على هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم " إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع قطر الماء " ..... الخ [١] .

المطلب الرابع : حد الوجه المغسول

سبق فى المطلب الثاني بيان أن الوجه يبدأ طولاً من منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن ومن بين شمحتى الأذنين عرضاً ، فهل يدخل فيه باطن الشفتين والأنف والعينين أم لا ؟ وبالأول قال به جماعة من الصحابة والتابعين كأم سلمه وأنس وعمار ومجاهد وابن جبير وغيرهم وكان ابن عباس رضى الله عنهما يغسل باطن عينيه ولهذا كف بصره .

والصحيح الذى عليه الجمهور أنها غير داخلة فى حد الوجه خاصة لما يترتب عليها من الأذى والضرر ولهذا كان ابن عمر رضى الله عنهما يغسل باطن عينيه بعد أن كف بصره لعدم لحوق الأذى به من وراء ذلك ، كما أن الشفتين تابعتان للفم ، وباطن الأنف داخلة فى الاستنشاق ، وباطن العينين ليس ظاهراً فلا يعد من الوجه ؛ لأن الوجه ما واجه الناظر وقابله فانطباق غسل الوجه على باطنهما تشدد فى غير محله .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء جـ١ ص ١٢١ .

يبقى مسألة هنا : هل يترتب على الأمر بغسل الوجه وجوب المضمضة والاستنشاق ؟ ، والصحيح أنهما غير واجبين بل هما من السنة فمن تركهما فوضوءه صحيح وقد غسل الوجه بتمامه ، والذى يقرأ قول النبى صلى بعد أن توضأ مرة مرة: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به " [١]. فإنه لم يذكر فيه أنه تمضمض فيه واستنشق ، وإنما ذكر فيه الوضوء فحسب، والوضوء هو غسل الأعضاء المذكورة فى كتاب الله .

فتوافق الخبر مع الآية ظاهر ، فمن أين جىء بوجوب المضمضة والاستنشاق؟ ، وأما الأحاديث التى تحكى أن النبى تمضمض واستنشق هى محمولة على السنية والاستحباب لا على الفريضة والوجوب .

وعلى هذا فباطن الشفتين والعينين وباطن الأنف والمضمضة والاستنشاق كل ذلك غير داخل فى فريضة غسل الوجه ، وما ورد عن الأئمة والصحابة والتابعين من ذلك فهو محمول على الأخذ بالاحتياط لكنه مشروط بعدم حصول الضرر والأذى لفاعله [٢] . والله أعلم .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، جـ ٦ ، ص ٢٣٩ برقم ٦٢٨٨ ، وأبي يعلى الموصلى فى مسنده ، جـ٩، ص ٤٤٨ برقم ٥٥٩٨ قال المحقق : إسناده ضعيف جداً والهيثمى فى المجمع، جـ١ ، ص٢٣١ برقم١١٧٤ وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربى جـ٢ ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ وأحكام القرآن للحصاص ط٢ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ وأحكام القرآن للكيا الهراسى جـ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ وروح المعانى جـ٣ ص ٤٢١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

المطلب الخامس : أصحاب هذه الوجوه

الوجه الأول :

وهو ما نصت عليه الآية فى قوله " إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا " وهو وجه المتوضئ للصلاة ؛ إذ لا تصلح الصلاة إلا بالوضوء يقول النبى صلى الله عليه وسلم: " لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ " (١).

ولما كان الأمر بغسل الوجه هو أول فرائض الوضوء كان من البديهى أن تحمل الآية على أنها تختص بالقائمين إلى الصلاة . فأصحاب هذه الوجوه المغسولة إذاً هم المصلون فى الدرجة الأولى ، والمعنى عليه : يا من اتصفتم بالإيمان إذا أردتم وقصدتم القيام إلى الصلاة فلابد من الوضوء أولاً قبل تلبسكم بها ولابد فى الوضوء من غسل الوجه ، بل إن غسل الوجه هو أول ما يبدأ به المتوضئ من الفرائض لأهميته وللتنبيه على عظم أمره ؛ ولأن الوجه أشرف أعضاء البدن كان الأمر بغسله أولاً هو المناسب للمقام .

وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه المغسولة هم المصلون فى المقام الأول ، ثم ينسحب الأمر على غيرهم من باب القياس والاستحسان إلا من جاء الخبر بدخوله .

الوجه الثاني :-

وهو وجه القائم من النوم وهذا محمول على أن الآية نازلة فى المستيقظين من النوم فهى آمرة لهم بالوضوء بعد نومتهم حتى تصلح صلاتهم ؛ إذ النوم حدث يبطل الوضوء خاصة إذا طال وثقل وهذا قول زيد بن أسلم أنه حمل الآية على أنها فى النائمين خاصة ، والصحيح أن الآية نازلة فى شأن من قام إلى

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب وجوب الطهارة للصلاة برقم ٢٢٥ ، والبخارى فى كتاب الحيل باب فى الصلاة برقم ٦٩٥٤ .

الصلاة بعد الحدث على جهة العموم ، وأما غسل الوجه والوضوء لمن قام من النوم فهو مستفاد من فعل النبى صلى الله عليه وسلم وقد حكى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قام من الليل فقضى حاجته ، ثم غسل وجهه ويديه ثم نام " [١] .

وعلى هذا فالمأمور بغسل الوجه فى الآية كل من قام إلى الصلاة وذلك عن طريق الوضوء المعروف بصفته كما ذكرته الآية والسنة الصحيحة .

وكذا من قام من النوم وأراد الصلاة أو لم يردها كما هو مستفاد من الحديث السابق خاصة إذا قصد النوم بعد ذلك فإنه ينام على طهارة وذاك أحسن لحاله ومآله.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه – كتاب الطهارة باب غسل الوجه واليدين إذا استيقظ من النوم جـ١ ص ١٣٩ .

المبحث الثاني و العشرون : الوجوه المغشية

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن هذه الوجوه المغشية قد ورد ذكرها فى موضعين :

أولهما : -بطريق التصريح وذلك فى قوله تعالى " وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ " سورة إبراهيم (٤٩:٥٠).

ثانيهما :-بطريق التشبيه وذلك فى قوله تعالى عن أهل النار " وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " سورة يونس (٢٧) .

وعلى هذا فلا ذكر للوجوه المغشية بالظلمة والذلة إلا فى هذين الموضوعين وما عدا ذلك من ورود الفعل غشى بمشتقاته فهو غير متعلق بمسألتنا وإن تعلقت هذه المشتقات ببعض الأعضاء كالبصر مثلاً وذلك فى قوله تعالى " وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " البقرة (٧) ، أو غشيان العذاب لكل الجسد كقوله تعالى " يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " العنكبوت (٥٥) ، أو أن يسند الغشيان إلى غير بنى آدم كالليل وذلك فى قوله " وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى " الليل (١) ، أو الليل والنهار معاً كقوله " يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ " الأعراف ٥٤ فكل ذلك غير داخل فيما نحن بصدد بحثه ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن الوجوه المغشية لم تذكر إلا فى موضعى سورتي يونس وإبراهيم [١] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٦١٠ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

فقد جاء التعبير عن تغشية الوجوه فى الآيات التى معنا بصيغتين إحداهما على صيغة المضارع وذلك فى قوله " وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ " والأخرى بصيغة الماضى " الداخلة عليه همزة التعدية وذلك فى قوله تعالى " فكأنما أغشيت وجوههم " والمصدر من كل ذلك التغشية يقال غشى الرجل وأغشى تغشيه وغشاوة أى تغطى بثوب ونحوه ومنه قوله تعالى " وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " نوح (٧) وقوله " أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " هود (٥) أى وقت تغطية وجوههم بثيابهم ، والماضى منه غشى يغشى تغشيه وغشياناً وغشاوة على العين ما يغطيها ويمنعها من النظر ، والغاشية الداهية من الأمور خيراً أو شراً وسميت بذلك ؛ لأنها تشمل وتعم فتغطى وتلبس على المغشى أمره والغاشية : يوم القيامة ؛ لأنه يغشى الناس ويعمهم ، وقيل: النار ؛ لأنها تشتمل عليهم فتكون كالغطاء لهم ، وغاشية الرجل : زواره من الداخلين عليه، وغاشية السيف : ما يغطى المقبض من الجلد ، وغاشية القلب وغشاواته : الجلدة التى تحيط به فإذا انفتقت عنه مات صاحبه ، وغشيان المرأة إتيان الرجل لها بالجماع يقال غشى الرجل المرأة وتغشاها أى علاها وجامعها ومنه قوله تعالى " فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا " الأعراف (١٨٩) .

فمادة التغشية والغاشية والغشواة والغشاية والإغشاء والتغشى كلها تدور حول التغطية والإشتمال والإحاطة وكل ما على وزن فعالة كالغشاية والعمامة والعصابة يدخل تحت ما يشتمله الشىء ويغطيه ويدخل تحته، وكذا ألفاظ الحرفة وصيغتها كالخياطة والحدادة والصناعة لاشتمالها على جميع أجزاء هذه الحرفة .

وعلى هذا فالفعل الذى عندنا فى آية سورة يونس وهو " أغشيت " فعل ماض دخلت عليه همزة التعدية فتعدى إلى مفعولين:

أولهما : قطعاً والثاني : مظلماً ؛ لأنه فى معنى كسيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، ويتعدى إلى مفعول واحد إذا حذفت تلك الهمزة كما هو الحال فى الموضع الثاني فى قوله " وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ "

وعلى هذا فالفعل غشى يتعدى إلى مفعول وإلى مفعولين قد سبق بيانهما [١]

وأما المعنى :

فإن وصف الوجوه فى آية سورة يونس بأنها وجوه مسودة لما علاها من الذلة والهوان فهذا راجع إلى أن قلوبهم لما أشربت بالسيئات وخاصة الشرك الأكبر أنطبع ذلك وظهر على وجوههم فاسودت وأظلمت وصارت فى سوادها كأنها قطعة من ليل مظلم شديد السواد ، وفى ذلك التشبيه أبلغ الأثر فى إظهار شدة سواد هذه الوجوه فكأنها لفرط سوادها وشدة ظلمتها وعلو الغبرة عليها أشبهت الليل المظلم الذى انفصلت منه قطعة هى أشد أجزائه سواداً وهذا الأسلوب فيه استعارة حيث شبه الليل بالثوب الأسود الذى أخذ منه قطعة ، وعلى هذا فالآية فيها تشبيه واستعارة دالاتان على شدة سواد وجوه هؤلاء وظلمتها[٢] .

وأما الموضع الثاني : وهو ما جاء فى سورة إبراهيم من قوله " وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ " فمعناه : أن هؤلاء المجرمين المتحدث عنهم فى الآيات السابقة من قوله تعالى " وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ " إذا أحضروا يوم القيامة وأوقفوا على جهنم وقد ألبسوا سرابيل القطران . تغشى عند ذلك وجوههم النار أى تضرب النار وجوههم ، بل تعلوها حتى تغطيها بلهيبها كما جاء فى

---

(١) انظر لسان العرب جـ١٥ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ومجمل اللغة جـ٣ ص ٦٩٦ والتحرير والتنوير جـ٥ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) انظر بحر العلوم جـ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ وزاد المسير جـ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

موضع آخر "تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ" المؤمنون ١٠٤ فغشيان وجوههم ولفحها بالنار فيه ما فيه من زيادة أهانتهم وتحقيرهم بالإساءة إلى أشرف أعضاء أجسادهم وهو الوجوه التى هى عنوان الكرامة والنعمة والوقار ، ففعل النار بها من الضرب واللفح ظاهر الدلالة على سوء صنيعهم وخبث طبعهم وشدة فرطهم فى الشر [١].

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

قد سبق أن هذه الوجوه المغشية بالسواد من حيث لونها ، والمضروبة والملفوحة بالنار من حيث العذاب الساقط عليها قد ذكرت فى موضعين مختلفين :

أولهما :

فى موضع سورة يونس وكان الحديث فيها منصباً على جزاء الذين كسبوا السيئات حيث قال " وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " يونس (٢٧) .

ومن هنا يعلم أن أصحاب هذه الوجوه على حسب هذا الموضع هم من كسبوا السيئات ، وقد اختلف أهل التفسير فى المراد بهم : فنقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أصحاب هذه الوجوه هم أهل الشرك من عباد الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، واستدلوا لذلك بأدلة منها :

أن السيئات معرفة بالألف واللام وهذا معناه استغراقهم لجميع السيئات وهذا لا يتحقق إلا مع الشرك الذى لا تنفع معه حسنة ، بل إنه يزيل جميع الحسنات فلا تبقى للعبد إلا سيئاته قال تعالى " وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا " الفرقان (٢٣) وقال "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ

(١) انظر مدارك التنزيل جـ٢ ص ٣٨٤ وفتح القدير جـ٣ ص ١٥٢ .

اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ" إبراهيم (١٨) .

ومنه أن جزاء هؤلاء أن تسود وجوههم يوم القيامة لما يغشاها من الذلة والغبرة والقترة ، وما يعلوها من الظلمة التى تشبه ظلمة الليل حالك السواد وهذا الوصف إنما هو متحقق فى أهل الشرك والكفر كما جاء فى قوله تعالى " فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " آل عمران ١٠٦ ، ومنها : أن الله وصف هؤلاء فى آخر الآية فقال " وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " وهذه الجملة فيها من البلاغة ما يجعل هذا المصير خاصاً بأهل الشرك فقط كالإشارة إليهم باسم الإشارة الدال على البعد لبعد مكانتهم فى الشر، وإفادة القصر بضمير الفصل " هم " ، ووصفهم بأنهم أصحاب النار أى هم الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه ، وتقديم الجار والمجرور على المبتدأ ، والتعبير عن الخلود بالجملة الاسمية المنبئة عن استمرار العذاب ودوامه فهو عذاب دائم لا ينقطع يمكث صاحبه فيه مكثاً ابدياً لا نهاية له فكل ذلك مرشح لكون أصحاب هذه الوجوه من أهل الشرك والكفر ، ومنها: أن قوله بعد هذه الآية " وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ " يونس (٢٨) نص قاطع ، وبرهان ساطع على ان أصحاب هذه السيئات هم أهل الشرك خاصة وذلك لعود الضمير فى قوله " نحشرهم " على المتحدث عنهم فى الآية السابقة ممن كسب السيئات .

وذهب السدى : إلى أنهم أصحاب الكبائر خاصة ؛ ولعل دليل هذا القول راجع إلى ما يلاقيه مرتكب الكبيرة من العذاب بالمكث فى النار مكثاً طويلاً وهو المعبر عنه فى الآية بالخلود ، كما أن لفظ السيئات يوحى بأنها الكبائر أى السيئات المعهودة فى ذهن السامع والمعروفة بالكبائر عنده ، وهناك قول ثالث : أن أصحاب هذه الوجوه ، هم كل من كسب السيئات وأكثر منها سواء أكان من

أهل الشرك أم الفسق والعصيان فالآية عامة فى حق الجميع خاصة من أصر على كفره حتى مات، أو من لم يتب من معصيته حتى قابل ربه ولم يكن من أهل العفو والشفاعة (١) .

* وهذا القول هو الأرجح عندى لأمرين :

أولهما :

أن كسب السيئات واقع من الجميع فلو كان مقصوداً به طائفة معينة كالكفرة مثلاً لنص الله عليهم فى الآية تحديداً ، أما والحال بخلافه فالعموم هو الأحوط .

ثانيهما :-

أن حمل الآية على العموم فيه ما فيه من تفظيع أمر السيئات وتهويله حتى يكون العبد على حذر من اكتسابها حتى وإن كان مؤمناً عاصياً فيدعوه ذلك إلى الخوف من جزاء ما يقترف من هذه السيئات وما يترتب عليه من عقوبة ذكرتها الآية ، وأما كون الآية التى بعدها نص فى أنهم المشركون فكان التسليم هو الأولى لو أن التعبير فى غير القرآن " ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول لهم مكانكم أنتم وشركائكم " أما وإن الجملة فى القرآن " ثم نقول للذين أشركوا " فهذا يفيد كما هو الظاهر أن الله يحشر الجميع أى جميع أهل السيئات ، ثم يخص أهل الشرك بهذا الخطاب ، لكن ليس معنى ذلك أن الجميع أهل شرك .

وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه المغشية بالسواد وكأنها قطعة من ليل مظلم هم كل من اكتسب المعاصى والسيئات من أهل الكفر وغيرهم ولم يتب حتى الممات. والله أعلم .

---

(١) انظر الوسيط للواحدى جـ٢ ص ٥٤٥ والدر المنثور جـ٣ ص ٥٤٧ وتفسير الرازى جـ١٧ ص ٢٤٢.

وأما موضع سورة إبراهيم فهو نص فى أن أصحاب هذه الوجوه هم أهل الإجرام حيث قال الله " وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ " وقد عاقب الله هؤلاء المجرمين بثلاث عقوبات كما هو واضح من هذه الآيات فهم موثقون فى الأغلال ، مربطون فى السلاسل قد ضم بعضهم إلى بعضهم وقرن أحدهم بالآخر يمشون صفوفاً صفوفاً فى مشهد مذل محقر لهم ولأتباعهم ، كما أن ثيابهم وقمصهم التى يلبسونها فى الآخرة تكون من قطران وهو ما تطلى به الإبل عند جربها لكراهة رائحته ولما يصنعه بالجلود لشدة تأثيره فيها وهو سريع الاشتعال إذا اقترب من يطلى به إلى النار ، وقيل هو النحاس المذاب الذى بلغ النهاية فى الحرارة والعذاب كما أن النار تغشى وجوههم وتعلوها حتى تضربها وتلفحها زيادة فى النكال والعقوبة (١) .

وعلى هذا فأصحاب هذه الوجه المغشية هم المجرمون سواء أكانوا من الكفرة أم من غيرهم من العصاة والمجرمين ، وقد نصت السنة الصحيحة على أن من هؤلاء الذين يتسربلون بالقطران وتغشى وجوههم النار النائحات اللائى يكثرن من الندب والنياحة على الأموات خاصة إذا لم يتبن من هذا الذنب وواظبن عليه حتى الموت من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " النائحة إذا لم تتب توقف فى طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار (٢) .

وفى رواية آخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت . والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب (٣) .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ٢٩٩ وفى ظلال القرآن جـ٤ ص ١٣ ص ٢١١٣ .
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز باب التشديد فى النياحة برقم ٩٣٤ .
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب مناقب الأنصار برقم ٣٨٥٠ ومسلم فى كتاب الجنائز باب التشديد فى النياحة برقم ٩٣٤ واللفظ له .

المبحث الثالث و العشرون : الوجوه المكبوبة

المطلب الأول : الورود

لم يرد فى القرآن ذكر الوجوه المكبوبة إلا فى موضع سورة النمل وذاك فى قوله تعالى " وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " النمل ٩٠ ، غير أنه قد جاء ذكر إكباب بعض أصحاب النار ، لكن دون تخصيص الوجوه بهذا الكب ، بل كان الحديث فيها عن الجسد كله وذاك فى قوله تعالى " فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ " سورة الشعراء ٩٤ ، ومن المعلوم أنهم إذا كبوا فيها كان أكباب وجوههم من باب أولى تبعاً لإكباب الجسد كله ، وعلى هذا فموضع سورة النمل هو الذى جاء منفرداً بذكر الوجوه المكبوبة دون غيره ، وأما موضع سورة الشعراء فذكر الوجوه غير مصرح به لكنه داخل تحت ذكر الجسد كله من باب الملازمة [١] . والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الكب : بالفتح مصدر فعله كب وكبب ، يقال : كب الرجل إناءه وكببه إذا قلبه على وجهه ، وأكب على العمل وانكب كلاهما بمعنى واحد وهو فعل الشيء مع المداومة والملازمة ، والإنكباب على الشيء : الاستمرار على عمله ، وكب على وجهه أى ألقى منكساً ، والكبة بالضم جماعة الخيل ، والكب بالفتح إسقاط الشيء على وجهه [٢] ، والكب أيضاً جعل ظاهر الشيء إلى الأرض [٣] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٦٩٣ والكشاف جـ٣ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٢) انظر مادة كبب فى لسان العرب جـ١ ص ٦٩٦ ، ٦٩٧ ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ص٤٣٧ .

(٣) انظر التحرير والتنوير جـ١٠ ص ٥٣ .

ثانياً : وأما معنى إكباب الوجوه فى النار : فقد اختلفت فيه عبارات المفسرين لكنها ترجع إلى معنى واحد من ذلك : قول ابن عطية : (كب الوجوه معناه : جعلها إلى النار) [١] .

ومعنى ذلك أنها لما ألقيت فى النار مكبوبة كانت أول ما يعذب من الجسد وهو أول ما يلى النار فالنار ثم بعدها الوجه ، ثم بقية الجسد على عكس ما كانت عليه فى الدنيا إذ إنها كانت آخر الجسد ارتفاعاً فلما ألقيت منكبة كان أوله فى النار وهي هذه الوجوه .

وقال الزمخشرى والشيرازى (يكبون فى النار على وجوههم منكوسين)[٢].

وهذا يدخل تحت ما ذكره ابن عطية وذلك أنه لا يسمى الوجه منكساً إلا إذا كان مقلوباً بحيث يصير أسفل بدل أن يكون هو الأعلى على حسب خلقته السوية وتركيبه فى الجسد ، وبهذا يصير الوجه المنكس أول ما يلى النار .

وقال ابن عباس : ألقيت ، وقال الضحاك : طرحت [٣] والإلقاء والطرح هو الموصوف فى كلام المفسرين بالقلب والتنكيس ، وعلى هذا فكل معانى الكب تدور حول معانى القلب والتنكيس وعكس ما كانت عليه الوجوه فى الدنيا .

فالمعنى إذاً : أن من جاء بالسيئة يوم القيامة مشركاً أو عاصياً لربه فإن الله تعالى يأمر ملائكته بإلقاء هؤلاء فى النار منكوسين معكوسين وجوههم إلى أسفل وأرجلهم إلى أعلى كما جاء فى قوله تعالى " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواحى والأقدام (الرحمن ٤١) وقوله " يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ" (القمر ٤٨) إلى غير ذلك مما يدل على أن وجوه هؤلاء ستطرح فى النار منكفأة على عكس ما كانت عليه فى الدنيا. والله أعلم .

---

(١) المحرر الوجيز جـ٤ ص ٢٧٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٣٧٥ وجامع البيان جـ٣ ص ٢٣٤ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص ٢١٩ .

المطلب الثالث : تخصيص الوجوه بالكب

الملاحظ فى الآية أن الله ربط كب هؤلاء فى النار بوجوههم وليس بعضو آخر فى أجسادهم كالأيدى مثلاً أو الرؤوس أو غيرها مما يصح أن يقلب عليه أصحاب هذه الوجوه ، والسؤال هنا ما سر ارتباط الكب بالوجوه ؟ والجواب عن ذلك: (أن قلب هؤلاء وعلى عكس ما خلقوا عليه يستلزم أن تكون الوجوه إلى أسفل والأرجل إلى أعلى ، فالوجه هو أول ما يقابل الأرض عند الكب والتنكيس فكذلك هى فى النار إذا كب هؤلاء فى النار . استلزم أن يكون وجوههم هى أول ما يواجه النار ويليها ولو أنه ذكر عضواً آخر ما صلح هذا المعنى) [١] .

المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه

قد اختلفت أنظار المفسرين وأراؤهم فى بيان أصحاب هذه الوجوه المكبوبة على قولين :-

أولهما : أنهم أهل الشرك والكفر بناء على أن السيئة فى الآية قاصرة على معنى الشرك دون غيره ومنه قوله تعالى " بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " البقرة ٨١ .

وهذا هو أقول معظم أهل التفسير قديماً ، بل هو المنقول عن جل الصحابة والتابعين كابن عباس وابن مسعود وأبى هريرة وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعى وأبى وائل ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم والزهرى والسدى والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم .

ثانيهما : أن أصحاب هذه الوجوه هم من رجحت سيئاتهم على حسناتهم فيدخل فيهم عصاة المؤمنين بناء على أن لفظ " سيئة " نكرة فهى تفيد العموم أى

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ١٠ ص ٥٣ .

عموم أهل السيئات فيدخل فيهم كل من ارتكب من السيئات ما ثقلت به موازينه فيندرج تحته أهل الشرك والكفر من باب أولى [١] .

* **أقول**:-

وأصح القولين وأولاهما قبولاً وصواباً القول الأول وهو أن أصحاب الوجوه المكبوبة فى النار إنما هم أهل الشرك لا غير ، وذلك لثلاثة أمور :

الأول : أنه قول جمهور أهل التفسير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

الثاني : أنه التفسير الصحيح الذى فسر به النبى صلى الله عليه وسلم الآية وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم (إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك يجتمعان بين يدى الرب عز وجل فيقول الله للإيمان انطلق أنت واهلك إلى الجنة ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار قال : ثم قرأ رسول الله صلى الله من جاء الحسنة فله خير منها يعنى قوله " لا إله إلا الله ، " ومن جاء بالسيئة " يعنى الشرك فكبت وجوههم فى النار) [٢] .

فهذا نص فى هذا المقام لا ينبغى العدول عنه فى تفسير الآية .

الثالث :-

أن كب الوجوه فى النار هو المناسب لحال المشركين أكثر لما فيه من التحقير والاهانة والذل والانكسار ، بخلاف عصاة المؤمنين وغيرهم خاصة إذا تابوا فإن التوبة ترفع كل ذلك عنهم . والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٦ ص ٧٨ والوسيط للواحدى جـ٣ ص ٣٨٧ والوسيط لطنطاوى جـ١٠ ص ٣٦٤ .

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة جـ١ ص ٢٣٤ برقم ١٩٢ وعبد الرازق فى تفسيره جـ٢ برقم ٢١٨٦ والحاكم فى المستدرك جـ٢ ص ٤٤١ برقم ٣٥٢٨ وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وقال : على شرط البخارى ومسلم ؛ والألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٢١ برقم ١٥٢٧ وقال صحيح موقوف .

المبحث الرابع و العشرون : الوجوه الملفوحة

المطلب الأول : الورود

لم يرد ذكر هذه الوجوه إلا فى موضع واحد وذاك فى قوله تعالى حاكياً عن أهل النار ما يجرى عليهم من العذاب " وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ " (المؤمنون ١٠٣ ، ١٠٤).

وما عدا هذا الموضع فلم يجر ذكر لهذا النوع من الوجوه ، وعلى هذا فإن هذا الوجه لم يذكر إلا مرة واحدة [١] . والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

تلفح : مضارع ماضيه لفح كقطع ، والمصدر منه اللفح وهو كالنفخ إلا أنه أى اللفح أعظم منه تأثيراً وأشد من اللفح النفخ بالنون .

يقال: لفحته النار أى أحرقته ، ويقال: لفحته الريح أى بحرها ونفحته أى ببردها ويقال: لفحه بسيفه أى ضربه ، ولا يكون اللفح إلا فى أعلى الجسد مما يقرب من الوجه [٢] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٧٤٩ .

(٢) انظر مادة لفح فى الصحاح جـ١ ص ٤١٢ ، ٤١٣ ومجمل اللغة جـ٣ ص ٨١١ ومعانى القرآن وإعرابه للزجاج جـ٤ ص ٢٠ وتهذيب اللغة جـ٥ ص ٤٧ ، ٤٨ وتاج العروس جـ٧ ص ٩١ .

ثانياً : وأما المعنى :

فإن هذه الآية ينصب الحديث فيها عن بعض صفات جهنم وما تصنعه بأصحابها الذين استقروا فيها فهى تضربهم بحرها وسمومها فتكشف عظامهم وتحرق لحومهم ووجوههم حتى تتقلص شفاههم وتبرز أسنانهم كرأس الماشية المشوية فيال عظم هذا العذاب ، وشدة هذا العقاب فالأجساد محروقة ، والوجوه ملفوحة قد بان عظامها وبرزت أسنانها واسود لونها ، وحتى تكتمل صورة هؤلاء الملفوحين اسمع ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية وذلك فيما رواه الحاكم بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون " قال : تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته [١] .

ومن هنا كان اللفح ملازماً لهم طيلة مكثهم فى النار فلا أمل فى انقطاع العذاب ولا فى تخفيف العقاب [٢].

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

ويظهر من الآيات الكريمة التى تحدثت عن أصحاب هذه الوجوه أنهم قوم خفت موازينهم بالحسنات وتقلت بالسيئات كما صرح الله فى هذا بقوله " وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ "

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك جـ٢ ص ٤٢٩ برقم ٣٤٩٠ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) انظر زاد المسير جـ٣ ص ٢٧١ وحدائق الروح والريحان جـ١٩ ص ١٦٧ وزهرة التفاسير جـ١ ص ٥١٢١ .

لكن هؤلاء أصحاب الوجوه الملفوحة ، وهؤلاء الذين ثقلت موازينهم بالسيئات قد ذكر الله لهم بعد ذلك صفات تزيد من فظاعة جرمهم ، وتبين عن شناعة طبعهم .

أولاً: من ذلك : أنهم كانوا مكذبين لآيات الله فى الدنيا مع علمهم بصدقها قال تعالى "أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ" المؤمنون ١٠٥ .

ثانياً : أنهم قوم غلبت عليهم شقوتهم وكانوا من أهل الضلال قال تعالى " قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ " المؤمنون ١٠٦ أى غلبت علينا ملكتنا وشقوتنا أى التى اقترفناها بسوء اختيارنا " وكنا قوماً ضالين " أى عن الحق ، ولذلك فعلنا ما فعلناه من التكذيب [١].

ثالثاً : أنهم المستهزئون بالمؤمنين وعباد الله الصالحين الذين يطلبون المغفرة من رب العالمين ، وأنهم فى خضم استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين قد أساهم ذلك ذكر الله فساقهم ذلك إلى مزيد من الضحك والسخرية بعباد الله الصالحين ، وقد سجل الله ذلك كله فى قوله " إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ " المؤمنون ١٠٩ : ١١١ .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الذين تضرعوا إلى الله قائلين ربنا آمنا بك فأغفر لنا ذنوبنا وارحمنا فلا تؤاخذنا بها فأنت خير من رحم ، لكن هؤلاء المكذبين بالآيات سخروا من هؤلاء المتضرعين واستهزءوا بهم حتى نسوا ذكر الله ، وما يجب عليهم من معاملتهم لربهم وضحكوا ملء أفواههم ظانين أن هذا يحقق لهم السعادة فى الدنيا والمتعة والبشر والسرور ، فلما كان يوم القيامة

(١) انظر : محاسن التاويل للقاسمى جـ٧ ص ٣٠٣ .

جزى الله أهل الإيمان على صبرهم أنهم من أهل الفوز بالجنة والتى لا تعب فيها ولا نصب ، وبهذا ايقن الساخرون بعدل الله وكرمه الذى أفاضه على أهل الإيمان، وبقدرته وانتقامه من أهل الكفر والعصيان [١] .

وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه الملفوحة هم من غلبت سيئاتهم وحسناتهم بسبب تكذيبهم لآيات ربهم وتغلبت عليهم طبيعتهم الأمارة بالسوء والتى ساقتهم إلى حب الضلال والسخرية والاستهزاء من عباد الرحمن ، ونسيانهم ذكر الحنان المنان، وضحكهم على أولياء الرحمن ، ومؤالتهم لحزب الشيطان وكفى بهذه الصفات أن تجعل أصحابها فى النار مخلدين وبحرها ملفوحين ، ومن شدة عذابها كالحين .

فاللهم اكتبنا عندك فى عبادك الناجين من غضبك يوم الدين .

(١) انظر: تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ولباب التأويل فى معانى التنزيل جـ ٣ ص ٢٧٧ .

المبحث الخامس و العشرون : الوجوه الممسوحة

المطلب الأول : الورود

لم يرد الحديث عن الوجوه الممسوحة فى القرآن الكريم كله إلا فى قوله تعالى " فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ " المائدة (٦) . والنساء (٤٣) .

وعليه فلم تذكر الوجوه الممسوحة إلا مرتين فقط فى القرآن كله ، **أولهما** : فى سورة النساء ، **وثانيهما** : فى سورة المائدة [١].

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

فاشتقاق الفعل " فامسحوا " من مسحت الشيء بيدى أمسحه مسحاً أى أمررت يدى عليه لأزيل ما علق به ، وأصل المسح إمرار اليد على الشيء وإزالة الأثر عنه ومنه سمى المسيح عليه السلام مسيحاً ؛ لأنه كان لا يمسح بيديه على كل ذى عاهة إلا وعوفى منها .

ومسح وجهه ويده ورجله أى : غسل كل ذلك ، ومسح رأسه أى الصق يده عليها بالماء ، ومسح الأرض أى ذرعها ، والمسح الجماع أيضاً يقال : مسح المرأة أى جامعها ، ومسحه بالسيف أى : ضربه وقطعه أيضاً ، ويطلق المسح على السير يقال مسح البعير المفازة أى سار فيها وهى ما صعب من الأرض لخطورتها ، والشيء الممسوح هو الأملس يقال : يده مسحاء أى : ملساء ومنه سمى الرجل المسيح القدمين بذلك ؛ لأنه أملسها لاستوائهما [٢] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٥٣ .

(٢) انظر عمدة الحفاظ جـ٤ ص ٨٩ ومحمل اللغة جـ٣ ص ٨٣٠ ، ٨٣١ ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٨٧، ٤٨٨ .

وعلى هذا فمادة المسح بجميع مشتقاتها تدور حول الإمرار وإزالة الأثر حتى يصير الشيء ناعماً أملساً .

ثانياً : المعنى :

إذا كان لفظ المسح فى اللغة مشتركاً بين معان كثيرة سبق عرضها فإنه يطلق على إمرار اليدين على الوجه فى الغسل أو التيمم ، لكنه هنا يخصص بالتيمم ؛ إذ الآية فيه خاصة ، فقوله تعالى " فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ " معناه : أنكم إذا افتقدتم الماء فلم تجدوه ، أو وجدتموه ولم تقدروا على استعماله فجائز لكم أن تتيمموا بأن تقصدوا الصعيد الطاهر على أى وجه كان ، فيقوم أحدكم بوضع الكفين على التراب، ثم ينفخهما ويمسح بهما وجهه ويديه وبذا يكون طاهراً من الحدثين الأصغر والأكبر صالحاً لأن يصلى فرضه ونفله حتى يجد الماء أو يقدر على استعماله ، وقد ذكر أهل التفسير هنا خلافاً فى عدد الضربات هل هى ضربة أم ضربتان ؟ وهل المسح فى اليدين يكون إلى الإبطين أو المنكبين أو أنصاف الذراعين أو المرفقين أو الكوعين ؟ وهل مسح الوجه لابد فيه من استيعاب كل أجزائه كالوضوء أم الأمر قاصر على ما بدأ منه وظهر كالمسح فى الرأس والخفين ؟

ثم إن الملاحظ فى الآية تقديم الوجه على اليدين فى المسح ، فهل إذا عكس المتيمم صح ذلك أم لا ؟ وبكل ذلك قيل عند المفسرين والفقهاء ولولا خشية الإطالة لذكرنا ذلك هنا ومرجع ذلك كتب التفسير والفروع لمن أراد الزيادة والرجوع [1] .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص ٢١١ ، ٢١٢ والتسهيل لعلوم التنزيل جـ١ ص ١٩٣ وأحكام القرآن للحصاص جـ٢ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ وأحكام القرآن لابن العربى جـ٢ ص ٥٨٤ وأحكام القرآن للكيا الهراسى جـ٣ ص ٥٧ ، ٥٨ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

بالنظر إلى هذه الآية الكريمة التى ورد فيها قوله تعالى " فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ " .

يعلم أن أصحاب هذه الوجوه هم فاقدوا أحد الطهورين أو كليهما والذين قد أدركتهم الصلاة بدخول وقتها ولم يتمكنوا من أدائها مع الجماعة الأولى أو غيرها أو منفردين بسبب ما هم عليه من الحدث الأكبر أو الأصغر وقد فقدوا الماء الذى هو وضوؤهم ، أو وجدوه ولم يقدوا على استعماله لخوف عدو أو مرض أو حاجة إليه ملحة كالشرب ونحوه مما يدخل تحت ضروريات حياتهم لذلك كله شرع الله تعالى لهؤلاء وأباح لهم التيمم رفعاً للحدث حتى يتمكنوا من أداء الصلاة قبل خروج وقتها فضلاً من الله وكرماً وهو الذى رفع عنهم الحرج لإباحة التيمم بضرب الصعيد الطاهر ومسح الوجه واليدين بهذا التراب والذى هو رمز لحدوث الطهارة التى أرادها الله منا وحضنا عليها إتماماً للنعمة وابتغاء الأجر .

وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه الممسوحة هم كل من لم يتمكن من أداء الصلاة فرضاً ونفلاً أو الذكر وقراءة القرآن إلى غير ذلك مما يحتاج إليه المسلم من العبادات التى لابد فيها من الطهارة من الحدثين مع أن الحديث فى أول هذه الآية عن الوجوه المغسولة فى الوضوء التى افتتحت الآية فى شأنها بقوله تعالى "فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" المائدة (٦) .

ومن هنا انفرد أصحاب كل وجه بما شرع الله لهم فلا يدخل أصحاب الوجوه الممسوحة تحت أصحاب الوجوه المغسولة والعكس أيضاً وما ذاك إلا لحكمة الله ووعده لهم وتيسيره لخلقه [١] .

---

(١) انظر جامع البيان لابن جرير ظ ص ٨٤ وبحر العلوم جـ١ ص ٣٠٦ وزاد المسير جـ١ ص ٤١٢ ومفاتيح الغيب جـ١٠ ص ٩٠ والمغنى لابن قدامة جـ١ ص ٣١٠ ، ٣٥٥ .

المطلب الرابع : أسباب هذا المسح

لقد ذكر الفقهاء هنا أسباباً عديدة تجعل المسلم يباح له التيمم وذلك بمسح وجهه ويديه بالصعيد الطاهر ، وتتلخص هذه الأسباب على النحو التالى :

الأول : فقدان الماء أو تعسر وجوده إلا بعد مشقة .

الثاني : وجود الماء مع عدم القدرة على استعماله من مرض كالجرح ونحوه أو عجز أو كان استعمال الماء يؤدى إلى تأخر البرء والشفاء .

الثالث : وجود الماء الذى لا يكفى للوضوء أو كان كافياً ، ولكن الحاجة تدعو إلى استعماله فى غير الوضوء كشرب الظمآن أو للعجن والطبخ ونحو ذلك .

الرابع : وجود الماء مع العجز عن الانتفاع به لخوف عدو إنساناً كان أو حيواناً، أو كان الماء بارداً يترتب على استعماله حصول مرض أو ضرر أو لم يستطع تسخينه فى الشتاء وغلب على ظنه حصول الضرر باستعماله على هذه الصفة .

الخامس : إذا وجد الماء وقدر على استعماله لكنه خشى فوات الوقت باستعماله أو تسخينه وكان المسح له أقرب وأسرع فى إدراك الصلاة قبل خروج الوقت [١] .

هذه الأسباب ذكرتها على سبيل الاختصار فمن اراد الاستقصاء والتفصيل فليرجع إلى مظانها من كتب الفقه والأحكام .

---

(١) انظر المغنى لابن قدامه جـ١ ص ٣١٢ وفقه السنة جـ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ والفقه على المذاهب الأربعة جـ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

المطلب الخامس : ما يبيحه هذا المسح

من المعلوم أن هذا المسح للوجه واليدين المعبر عنه بالتيمم هو بديل عن الوضوء والغسل بالماء ، ومن هنا يعلم أنه يبيح ما كان يبيحه هذا الوضوء من الصلاة فرضاً ونفلاً ومس المصحف وقراءة القرآن والتسبيح والذكر بجميع أنواعه طال زمان ذلك أو قصر قال صلى على الله عليه وسلم (إن الصعيد طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجد الماء فليمسه بشرته فإن ذلك خير) [١] .

وعلى هذا فيباح بهذا المسح كل ما يبيحه الوضوء من أنواع الذكر والصلاة والعبادة قولية كانت أو فعلية مما يحتاج إلى الطهارة فى أدائه وقبوله [٢] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه جـ١ ص ٢١١ برقم ١٢٤ واحمد فى المسند جـ٣٥ ص ٢٩٧ والالبانى فى صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم ١٦٦٧ وقال صحيح .

(٢) انظر فقه السنة جـ١ ص ٦٩ والجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ والمغنى جـ١ ص ٣١٣، ٣١٥ .

المبحث السادس والعشرون : الوجوه المنقلبة

المطلب الأول : الورود

لم يرد ذكر لهذا الوجه إلا في قوله تعالى " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) " الأية سورة الحج ، وإن كان ورد لفظ الانقلاب في غير الحديث عن الوجوه، كقوله تعالى: " أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ " الأية ، و كذا قوله تعالى: " وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ" الأية ، وقوله: " فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ " الأية ، وقوله تعالى: " وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ " الأية، إلى غير ذلك من المواضع المطلقة أوالمقيدة لكن مع غير الوجوه، وأما مع وصف الوجوه بكونها منقلبة أو ذكر حال من أحوالها مقيدا بهذا الوصف فلم يجر له ذكر إلا فيما تقدم ذكره من موضع سورة الحج وعلى هذا فلم يرد ذكر الوجوه المنقلبة إلا في هذا الموضع فقط ، والله أعلم.

المطلب الثاني: الاشتقاق والمعنى

أولاً :أما الاشتقاق (فإن لفظ انقلب الوارد في الأية هو من أفعال المطاوعة، وأصله كلفظ انكسر وانقطع ونحوها، مما يفيد مطاوعة الشيء وانفعاله مع المتعامل معه، وفعله قلب ، والقلب والانقلاب هو صرف الشيء عن وجهه إلى جهة أخرى ، بأن يجعل أعلى الشيء أسفله أو العكس، والانقلاب الرجوع إلى القهقري ، ويقال قلب الشيء والثوب أي حوله عن غير وجهه ، والانقلاب على الوجه السقوط عليه عكساً وقلباً ، ومنه تقلب القلب وانقلابه وما سمي القلب إلا لتقلبه وتصرفه على أحوال مختلفة ، وعدم ثباته على حال واحدة). [١]

(١) انظر مادة قلب في لسان العرب ٦٨٦/١، ومعجم مفردات الراغب ص٤٢٦، والتحرير والتنوير ٢١٣/٨

وعلى هذا فمادة القلب والانقلاب كلها تدور حول معنى التحول والتصريف على جهة العكس والا رتداد عن الوجه الصحيح.

ثانيا : وأما المعنى: فإن المراد بقوله تعالى " انقلب على وجهه ..... " الأية (أن هذا المنافق الذي دخل هذا الدين بلسانه فقط ، والذي هو سرعان ما يرجع إلى كفره الأول وذلك إذا ما ابتلي في ماله أو ولده عند ذاك ينقلب على وجهه ، أي يرجع إلى ملته الأولى ، فالتعبير عن الارتداد عن هذا الدين والانصراف عنه إلى غيره بلفظ الانقلاب هو من المجاز الشائع، وهو على سبيل التمثيل إذ فيه تشبيه حال المرتد عن دينه بحال من سقط على وجهه وأصبح أعلاه أسفله، وتحول عن الجهة الصحيحة، بجامع ما بين الارتداد عن الدين، والسقوط على الوجه من التحول والتغير فكل من الحالين معكوس الجهة)[١] ، (قال مجاهد : انقلب على وجهه، أي ارتد كافرا)[٢]

قلت : وهذا هو المشهور عند المفسرين من حمل الانقلاب على الوجه على المجاز وهو الارتداد عن هذا الدين إلى الكفر، ولا يشكل على ذلك قول الماوردي في معنى الانقلاب هنا:" يحتمل عندي وجهين: أحدهما : رجع عن دينه، الثاني: رجع إلى قومه فزعا "[٣]

إذا إن الاحتمال الأول هو المعروف من شرح هذه الأية ومعناها، وأما الثاني فهو خلاف ما عليه المفسرون، قال القرطبي في معنى الأية :" أي ارتد فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر "[٤]

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير٥/٢٢٤، والتحرير والتنوير٨/ ٢١٣

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير٥/٢٢٤

(٣) النكت والعيون ٤/١١

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٦/٣٤٠

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

الناظر في أسباب نزول هذه الأية يراها تنطق بأن هذه الوجوه المنقلبة إنما هي وجوه أهل النفاق الذين كانوا يدخلون هذا الدين فإذا ما صلح أمر دنياهم أقبلوا عليه وتمسكوا به، وإن فسد أمر دنياهم ، وأصابهم القحط والجدب أعرضوا عنه وذموه، وتركوه وهذا إجمال تفصيله في هذه الروايات :

الرواية الأولى : " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ومن الناس من يعبد الله على حرف، قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال هذا دين سوء " (١)

الرواية الثانية : " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث، وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا إن ديننا هذا صالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير فأنزل الله وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﷺ) "(٢)

الرواية الثالثة: " وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال: كان أحدهم إذا قدم المدينة – وهي ارض وبيئة – فإن صح جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً، رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على

---

(١) الأثر رواه البخاري في صحيحه– كتاب التفسير – تفسير سورة الحج برقم٤٧٤٢ ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٤٧٦/٨ برقم ١٣٧٩٨

(٢) الأثر رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٤٧٦/٨ برقم١٣٧٩٨، وذكره السيوطي في الدر ٦٥/٤، وزاد نسبته إلى ابن مردويه وصحح إسناده.

ديني هذا إلا خيراً ، وإن رجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان، فقال: ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً – وذلك " [١]

أقول:

فهذه روايات وإن لم تكن صريحة كلها في سبب النزول ، عدا الرواية الثانية والتي قد صرح فيها ابن عباس رضي الله عنهما بسبب النزول بقوله: فأنزل الله " الأية " إلا أنها جميعاً قد اتفقت على حكاية من تنطبق عليهم الأية من أهل النفاق الذين لا يرغبون في الدين إلا إذا جلب لهم المصلحة وأتى لهم بالخير والمال والولد فإذا لم يكن الأمر كذلك انقلب هؤلاء على وجوههم وارتدوا إلى كفرهم الأول ثم إن هذه الروايات قد صرحت بأن ذلك كان يقع من الأعراب ، ولكن هناك رواية ذكرت أن الأية قد نزلت في رجل من اليهود وليس من هؤلاء الأعراب وهي:

الرواية الرابعة : " عن أبي سعيد قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره، وماله وولده فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أقلني ، فقال إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب في ديني هذا خيراً ، ذهب بصري، ومالي، ومات ولدي... فقال: يايهودي الإسلام يسبك الرجل كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة ، ونزلت "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ " "[٢] ، وما ذكرنا هذه الرواية إلا للنبه على ضعفها ، وعلى فرض صحتها فهي لا تتعارض في معناها مع ما تقدمها من الروايات إذ الكل في بيان حال المنافقين الذين كانوا يعبدون الله على حرف وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه تدور أحوالهم وأوصافهم

---

(١) الأثر رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٤٧٧/٨ برقم١٣٧٩٩، وذكره السيوطي أيضاً في الدر ٦٥/٤، وزاد نسبته إلى ابن جرير وابن مردويه .

(٢) الأثر ذكره السيوطي في الدر ٦٥٠/٤ وعزاه إلى ابن مردوية وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٧١/١٠

بين أهل النفاق أو اليهود والذين شابهوا بصنيعهم صنيع أهل الكفر والنفاق، ولكن المتأمل للأيتين اللتين جاءتا بعد الأية التي معنا ، يرى أن عباد الأصنام والأوثان من أصحاب هذه الوجوه أيضا والذين كانوا يحنون لمعبوداتهم حتى بعد دخولهم هذا الدين فلم يستريحوا فيه حتى رجعوا إلى كفرهم وتقربهم إلى أصنامهم ، ذلك في قوله تعالى:" يدعوا من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير" ولا مانع عندي أن يكون أصحاب هذه الوجوه من أهل النفاق أو اليهود أو من عباد الأصنام والأوثان أو غيرهم ممن جمعهم الكفر وعداوة هذا الدين ومن أصابتهم الفتنة في الإسلام فتركوه وارتدوا على أعقابهم ، والله أعلم .

المطلب الرابع : أسباب هذا الانقلاب

الناظر في الآيات التي تحدثت عن هذه الوجوه المنقلبة يجدها قد ذكرت أكثر من سبب لهذا التحول الذي أصاب هؤلاء حتى جعلهم يتركون دينهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه من الملل الفاسدة والنحل الباطلة .

من هذه الأسباب:

أولاً : (تحكم الدنيا في قلوب هؤلاء ودخول هذا الدين لأجل المصلحة والاندفاع فإن زال هذا الانتفاع بفتنة أو ابتلاء أو نحو ذلك انقلبوا على وجوههم وحدث لهم ما حكته الأية ، قال تعالى:" فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه " الأية ، فهذا حاله التي تكشفه الأية بوضوح ، وهذا هو مفهوم العبادة على حرف الذي صدرت به الأية في قوله تعالى:" ومن الناس من يعبد الله على حرف " ويقاس عليه من صنع صنيعهم مع شعائر الإسلام من هذه الأمة ، كمن يصلي ليوسع الله عليه رزقه وداره ويكثر ماله وعياله ، فإذا لم يجد شيئاً من ذلك بعد أن التزم بالصلاة فترة من الزمن ترك ذلك كله لفوات موعوده ، وتخلف مطلوبه ، وقس على ذلك الصيام والقيام والصدقة ونحوها ، فكل هؤلاء

يجمعهم أنهم لم يعبدوا الله لأنه المستحق لذلك فلم تكن عبادتهم خالصة لوجهه تعالى ، وإنما كانت على شك وطمع ورغبة في الدنيا ، ولذلك سرعان ما يرجعون إلى سيرتهم الأولى، وقد سبق في الروايات التي سقناها في أصحاب هذه الوجوه أن أحدهم كان يدخل الإسلام فإن صح بدنه ونتج فرسه وولدت امرأته غلاماً قال: ما أصلح هذا الدين وما أنفعه إنه دين خير، وإن حدث العكس انقلب على وجهه، وقال: ما أسوأه وأفحشه، فما رأيت من خير منذ أسلمت، وعلى هذا فسبب انقلابهم راجع إلى شكهم فيه، وعدم ثباتهم عليه ، ورغبتهم وطمعهم في الدنيا بصورة تجعلهم يتحللون منه في لحظة واحدة إذا ما تعارض هذا الدين مع مصالحهم). (١)

ثانياً : ما ذكرته الأيتان بعد الأية التي معنا من كون هذا المنقلب يدعوا من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه من البشر والحجر والشجر ونحوه بل يرجع إلى السبب الأول فلما لم تكن عبادته لربه على ثبات ويقين كان متزعزعاً في دينه متأرجحاً بين ما هو عليه من الإسلام وما كان عليه من عبادة غير الرحمن من الأصنام والأوثان وأهل الطغيان والإجرام ، ومن هنا لم يثبت فى قلوبهم أن ربهم وحده قادر على رزقهم وحمايتهم والدفاع عنهم ، لذلك فإنهم يتوجهون إلى غيره إذا لم يستجب لهم بعد دعائهم إياه ، ورجاء من فيه وهذا هو المعبر عنه في قوله تعالى : "يدعوا من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه....."الأيتان

وعلى هذا فانقلاب وجوههم عن ربهم حاصل بالتوجه إلى غيره دعاء ورجاءً وطلباً ورغبة ورهبه ، وهذا يدل على شكهم فى ربهم وعدم يقينهم بأنه القادر وحده على تحقيق ما طلبوه وإنفاد ما سألوه ، ويدخل تحت هؤلاء أيضا من هذه الأمه من يستغيث بغير الله ويطلب الشفاء والعافيه من غيره ، ظاناً أن

(١) انظر تفسير السخاوي ١/٥٧٠، وجامع البيان في تفسير القرآن للإيجي ٣/٤٦

حاجتهم لن تقضى إلا بالتقرب إليهم أحياءاً كانوا أو أمواتاً ، فكل من أعرض عن الله دعاءاً ورجاءاً وتوجه إلى غيره معتقداً أن النفع فى توجهه هذا فهو ممن كانت عبادته لله على حرف ، ولذلك يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه بل من ضره أقرب من نفعه). (١)

المطلب الخامس : زمن هذه الوجوه المنقلبة

إذا نظرنا في الروايات التي سقناها عند الحديث عن أصحاب هذه الوجوه والتي تحكي أسباب نزول الأيات التي معنا، تكشف لنا أن هذا الوجه المنقلب كان متحققاً في الفترة التي كانت عقب الهجرة ، أي في العهد المدني، والذي لم يكن فيه الإسلام قد استوى على سوقه خاصه فى بدء هذا العهد ، وعليه تحمل الأحاديث التى تذكر أن بعض الأعراب ، أو اليهود ، أو أهل النفاق كانوا يدخلون هذا الدين مصلحةً ونفعاً ، فإذا لم يتحقق لهم ذلك تركوا هذا الدين ، يدلك على أن هذا الزمن كان فى العهد المدني خاصة قول ابن عباس رضي الله عنهما " كان الرجل يقم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ....." الرواية ، وأعم من ذلك قوله رضي الله عنهما : " كان ناس من الأعراب يأتون النبى صل الله عليه وسلم فيسلمون ....." الرواية ، فهذه غير مصرحة بالعهد المدنى وإن كان هو المفهوم من قوله من الأعراب وعلى هذا فإن وجوه هؤلاء انقلبت عما كانت عليه من هذا الدين فى هذا العهد خاصة ، هذا إذا ما حملنا الأيه وقصرناها على هذه الأسباب خاصة وجعلناها محصورة فى أسباب النزول والوقائع والأحداث فى هذا العهد المدنى ، وأما إذا ما حملناها على العموم ، وهو الظاهر من سياق الأيات ، فليس لهذه الوجوه المنقلبة زمن خاص وإنما هي تتجدد بتجدد زمانها فيدخل في هؤلاء الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من يفعل فعلهم ويقول

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/٢٤١٣

قولهم إلى يوم القيامة يساعد على هذا العموم مجيء فعل العبادة بصيغة المضارع في قوله تعالى: " ومن الناس من يعبد الله على حرف ..... " الأية ، وليس بصيغة الماضي المشعرة بارتباط هذا الزمن بما مضى فضلا عن هذا الفعل الذي حكته الأية عن المنافقين ، والحاصل أن زمن الوجوه المنقلبة يشمل من كانوا في العهد النبوي من المنافقين والمرتدين ومن يأتي بعدهم ، ومن يتخلق بأخلاقهم ويسير على نهجهم ، فالوجوه المنقلبة متجددة وموجودة في كل زمان ومكان ، بتجدد أصحابها وتتابع أربابها، والله أعلم.

المبحث السابع و العشرون : الوجوه المنكبة

المطلب الأول :الورود

لقد ذكر الله تعالى الوجوه المنكبة فى القرآن مرتين أولهما : فى سورة النمل فى معرض حديثه عن كبها فى النار وقد سبق بيان ذلك فى المبحث السابق، ثانيهما : هنا فى سورة الملك ، ولكن ذكرها هنا مرتبط بالمقارنة بين من يمشى منكباً على وجهه ، وبين من يمشى على قدميه مستقيم الأركان والظهر ، سوياً على الطريق المستقيم والفرق بين المرتين ظاهر، فالأولى الحديث فيها عن الكب فى النار.

والثانية :الحديث فيها عن المشىء منكباً أو مستقيماً ولا ثالث لها فى القرآن [١] .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

فالكب : هو اسم فاعل من الفعل أكب إذا صار ذا كب أى: تحول عن حالته التى كان عليها كقولهم : أقشع الغمام إذا دخل فى القشع ، وانفض القوم إذا هلكت مواشيهم ، وألم الرجل صار ذا ألم وهى أفعال قليلة فى اللغة ، ويقال : إن المنكب من الفعل كب بدون همز فهو على هذا يتعدى بنفسه ومنه قولهم : كبه فى النار على وجهه ، بخلاف المهموز فهو لازم ، ومعنى الإنكباب على الوجه : السقوط عليه [٢] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٦٩٣ .

(٢) انظر الكشاف جـ٤ ص ٥٦٩ والتحرير والتنوير جـ١٤ ص ٤٦ .

ثانياً : " المعنى " :

وأما معنى الانكباب على الوجه فى الآية فقد وضحه وشرحه الزمحشرى فقال رحمه الله : (فإن قلتَ: ما معنى " يمشى مكباً على وجهه " ؟ قلتُ معناه : يمشى متعسفاً فى مكان معتاد غير مستو ، فيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكباً ، فحاله نقيض حال من يمشى سوياً أى : قائماً سالماً من العثور والخرور ، أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المتعسف الذى ينحرف هكذا أو هكذا على طريق مستو) [١] .

* أقول : وهذا المعنى الذى ذكره الزمحشرى فى المراد بالانكباب على الوجه محمول على الحقيقة أى: لا يستوى حال من يسقط على وجهه فهو يمشى فى طريق ملتو يعثر به هنا وهناك فيسقط على وجهه ، ثم يقوم ثانية وهكذا يصنع فى مشيه على هذه الطريق بحال من يسير مستقيم القامة يسير على قدميه فى طريق مستقيم غير ملتو ، ولكن بعض المفسرين : (حملوا الآية على سبيل التمثيل والمجاز فالمعنى عندهم : أن هذا مثل ضربه الله لحال المؤمن والكافر ، فشبه الكافر فى تخطبه وتحيره بين الآلهة يبتغى رضاها فلا يحصل على مبتغاه حال الذى يسير فى طريق وعر ملتو كلما اصطدم بشيء سقط على وجهه فينحرف إلى أحد الجانبين فيسقط أيضاً ، ثم يقوم فيسقط وهكذا طيلة سيره فى هذا الطريق .

وهذا هو المنكب على وجهه فى الآية ، وأما حال المؤمن مع ربه فهو مطمئن فى سيرة إليه ، فهو يعبد رباً واحداً قد أمن الحير والتخبط بين الشركاء والأنداد فمثله فى هذا مثل من يسير مستقيم القامة يمشى على قدميه قد اختار طريقاً واضحة مستقيمة غير ملتوية ، وقيل : هو مثل بالأعمى والبصير فالأعمى

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص ٥٦٩

يمشى بانحراف يخشى أن يضل طريقه فيسقط على وجهه أحياناً خاصة إذا كانت الطريق وعرة معوجة ، بينما يمشى البصير المبصر مشى المطمئن على نفسه من السقوط خاصة إذا كان فى طريق مستقيم لا عوج فيها ولا التواء) [١] .

المطلب الثالث: أصحاب هذه الوجوه

لقد اختلف أهل التفسير فى بيان من هو صاحب هذا الوجه على أقوال :-

الأول : (أن الآية فى شأن أبى جهل الحكم بن هشام والذى كان مكباً على وجهه فى الضلال ، هائماً فى الكفر لا يلوى على طريق سوى ما يسوقه إليه هواه وهذا قول ابن عباس والكلبى وغيرهما .

الثاني : هو الكافر على جهة العموم فكل من نكب عن الطريق المستقيم، وتبع طريق الضالين منكباً على وجهه قد اختار لنفسه الضلالة بعد الهداية ، ورفض الرشاد ، ورضى الغواية وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك .

وهذان القولان مبنيان على أن الإنكباب على الوجه حاصل بطريق المجاز وليس الحقيقة .

الثالث : هو الكافر يحشره الله يوم القيامة على وجهه قال قتادة : هو الكافر يحشره الله يوم القيامة على وجهه) [٢].

* **أقول** :-

وهذا القول مبنى على أن الانكباب على الوجه حاصل فى الآخرة من ناحية ، وهو على الحقيقة من ناحية آخرى ويؤيد هذا القول ما أخرجه البخارى

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ٥ ص ٧٤٩ والجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ والتحرير والتنوير جـ١٤ ص ٤٦ .

(٢) انظر المحرر الوجيز جـ٥ ص ٣٤٢ وتفسير البغوى جـ٤ ص ٣٧٢ وجامع البيان للإيجى جـ٤ ص ٣٤٧ .

بسنده عن قتادة عن أنس أن رجلاً قال : يا نبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال : أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة. بلى وعزة ربنا [١] .

ووجه الدلالة من هذا الحديث ظاهر ؛ إذ هو نص واضح فى مشى الكافر على وجهه يوم القيامة مشياً حقيقياً ، لكن الذى يجعله غير مجمع عليه فى التفسير أنه لم يصرح منه بأنه هو تفسير هذه الآية التى معنا . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب : كيف الحشر ص ١٣٢٣ برقم ١٦٥٢٢ .

المبحث الثامن والعشرون : الوجوه المنكرة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم والباحث عن الوجوه المنكرة يرى أنه لا ذكر لهذه الوجوه إلا فى سورة الحج وذلك فى قوله تعالى " وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " الحج (٧٢) . فلم يرد الحديث عن هذه الوجوه التى تمتلئ غضباً وعبوساً وغيظاً إذا ما تليت على أصحابها الآيات البينات الواضحات الدالات على أن القرآن منزل من عند الله لم يرد ذلك إلا فى سورة الحج ، ولكن ورد فى موضع واحد وصف القلوب بالإنكار وذلك فى قوله تعالى " فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة " النحل (٢٢).

وهذا بخلاف ما نحن بصدد الحديث عنه فحديثنا عن الوجوه المنكرة وليس القلوب المنكرة .

وعلى هذا فلا ذكر للوجوه المنكرة فى القرآن الكريم كله إلا فى هذا الموضع الذى سبق ذكره [١]. والله أعلم .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

المنكر : مصدر من الفعل نكره واستنكر ، والإنكار : هو العبوس والتغيظ الذى يكون فى الوجه من سماع صاحبه ما يكره ، والنكير التغيير ، والمنكر ضد المعروف وهو كل ما حسنه الشرع وأمر به ، فالمنكر عكسه وهو كل ما استقبحه الشارع من الأخلاق والعبادات والمعاملات [٢] .

---

(١) انظر : المعجم المفهرس ص ٨٣٤ ، ٦٥٩ والدليل المفهرس ص ٦٥٣ ، ٩٠٦ .

(٢) انظر لسان العرب جـ٥ ص ٢٣٣ ومجمع البيان جـ٧ ص ٩٥ .

ثانياً : **المعنى** :

يتجلى معنى هذه الوجوه إذا ما عرفت أن هذا المنكر تراه وتحسه فيها وقت وحال سماعها للآيات البينات التى تتلى عليهم ، فهى عند سماعها لهذه الآيات ترى فيها العبوث والتغيظ من فرط كراهيتها للحق الممثل فى آيات الذكر الحكيم ، وقد ذكر المفسرون فى بيان هذا المنكر الذى يعلو هذه الوجوه أقوالا ثلاثة :

أولها : الأمر الذى ينكرونه هو غضبهم وعبوسهم عند سماعها .

ثانيها : أى وتعرف فى وجوههم إنكارها .

ثالثها : التجبر والترفع عن قبول الحق . (١)

* **أقول** :

والأقوال الثلاثة متلازمة يكمل بعضها بعضاً ، ولا مانع من حمل لفظ الإنكار عليها جميعاً ؛ وذلك أن هؤلاء الكافرين كانوا إذا سمعوا القرآن ترى فى وجوههم إنكار هذه الآيات وتكذيبها ، فإذا استمر عرض الآيات عليهم وإسماعهم ما يكرهونه اشتد غضبهم وإنكارهم وعبوسهم فيظهر ذلك واضحاً على صفحات وجوههم فيسوقهم كل هذا إلى التجبر والاستكبار على أهل الحق فيزدادوا بهم بطشاً وضرباً وسباً وهو المعبر عنه فى الآية بقوله " يسطون " ، وعلى هذا فلا ترجيح لأحد هذه الأقوال على الآخر إذ الكل محتمل فى الآية ولازم للآخر .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٦ ص ٤٠٧ وفتح القدير جـ٣ ص ٦٠٣ والتحرير والتنوير جـ٨ ص ٣٣٤ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

يظهر لكل من قرأ الآية التى ورد فيها ذكر هذه الوجوه أن أصحابها لا يخرجون عن صنفين من الناس :

أولهما : أهل الكفر الذين ينكرون كون القرآن نازلاً من الله الرحمن على النبى العدنان وذلك فى قوله تعالى " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " فهم لفرط كفرهم وشدة عنادهم يكرهون سماع هذه الآيات مع وضوحها ودلالاتها على نزولها من قبل الله ، وبدل أن يتفكروا فيها ويؤمنوا بها ويتخذوها سبيلاً إلى معرفة ربهم وجعلها دستور حياتهم ، إذ هم يسطون ويتطاولون على قارئيها بالضرب تارة والسب تارة آخرى وهذا حال أهل الكفر فى كل زمان ومكان فمع وضوح الحق وظهوره المتمثل فى قوله " آياتنا بينات " تراهم يغتاظون لسماعه ، ويتجهمون عند قراءته ، وتعلو وجوههم الظلمة والعبوسة التى تكشف عن مكنون قلوبهم ومخزون كفرهم [١] .

ثانيهما : أهل البدع فى كل زمان الذين يكرهون أهل السنة من العلماء خاصة ، فإذا دعاهم أهل الحق إلى ترك البدع ونبذ محدثات الأمور والتمسك بالسنن ترى فى وجوههم الكراهية عند سماع الأدلة من القرآن والسنة فيتمنى أحدهم أن لو تمكن ممن يتلو عليه هذه الحجج ، بل قد يكون أشد عداوة له من غيره من أهل الملل الباطلة والنحل الفاسدة فهؤلاء قد شابهوا أهل الكفر فى كراهيتهم للحق وأهله [٢] .

فالحاصل أن أصحاب هذه الوجوه لا يخرجون عن أهل الكفر وأهل البدع اذ القاسم المشترك بينهم كراهية الحق وأهله والسطو بهم والغيظ منهم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٥ ص ٦٢ والوسيط لطنطاوى جـ٩ ص ٣٤١ .

(٢) انظر فتح القدير جـ٣ ص ٦٠٣ .

المطلب الرابع : زمن هذا الإنكار

الظاهر من الآية أن هذا الإنكار الذى يعلو هذه الوجوه ليس له وقت محدد، بل هو يتجدد ويتكرر كلما تليت على الكافرين آيات القرآن الكريم ، ويدخل تحتهم أهل البدع الذين لا يحبون سماع ما يتعارض مع بدعتهم من الأدلة والبراهين لاسيما إن كانت من آيات القرآن الكريم ، فالحاصل أن وجوه هؤلاء الكافرين عند تلاوة القرآن على أصحابها ترى فيها الغيظ والغضب الزائد ، وكراهية الحق بغض النظر عن وقت التلاوة وزمانه .

ومن هنا يعلم أن زمان هذا المنكر الذى يعرف فى وجوههم زمان مكرر ومتجدد بتجدد التلاوة والقراءة ، بل هو مستمر إلى يوم القيامة وهذا ما يفهم من جملة الشرط وجوابه المصدر به الآية من ناحية ، ومن ناحية أخرى من التعبير عن التلاوة والمعرفة بصيغة المضارع التى تفيد التجدد والحدوث والاستمرار .

وعلى هذا فالإنكار حاصل من هذه الوجوه على الدوام ودون انقطاع ، كما أن التلاوة والمعرفة كذلك وهذا يكشف عن استمرار صراع الحق والباطل ودفع أهل الشر بأهل المعرفة والخير إلى أن يشاء الله تعالى [1] .

---

(١) انظر تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٦٦ ومدارك التنزيل جـ٣ ص ١٦٧ .

المبحث التاسع والعشرون : الوجوه الموجهة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يرى أن الوجه الموجه لم يجر له ذكر إلا على لسان نبى الله إبراهيم عليه السلام وذلك فى قوله تعالى " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" الأنعام(٧٩) .

فلا يوجد فى القرآن الكريم ذكر لهذا الوجه إلا فى هذا الموضع فقط [١] .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

الفعل " وجه " ماض مصدره الوجهة والجهة وهى القصد والمذهب يقال : أخلص وجهتك إلى ربك أى : قصدك ومذهبك ، وتوجه القوم إلى بيت الحرام أى : قصدوه بالنسك والعبادة ، وتواجه الناس بعضهم إلى بعض أى : وقف كل واحد منهم بوجهه قبل وجه الآخر ، والمواجهة : مقابلة الوجهين ، والوجيه من الناس : ذو الحسب والنسب والوجاهة ، والجاه : هو مقلوب الوجه ، وفلان ذو وجه بين الناس : ذو مكانة وشرف ، والوجيه أيضاً ذو الجاه والوجاهة ومنه قوله تعالى "وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا" الأحزاب (٦٩) .

وتوجه الرجل إلى فعل ما يحمد به أى قصد جهة الخير وعزم عليه [٢] .

فالحاصل أن مادة الوجه والوجهة والتوجه والمواجهة كلها تدور حول معانى القصد والمذهب والمقابلة والمكانة والقدر العال .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٣٤ .

(٢) انظر:عمدة الحفاظ جـ٤ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ وبصائر ذوى التمييز جـ٥ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

ثانياً : المعنى :

وحتى نفهم معنى هذا الوجه الذى توجه به خليل الرحمن إلى الله علينا أولاً : أن نعرف أن هذه الآية جاءت تتمة للمناظرة التى جرت بين الخليل عليه السلام وقومه حيث كانوا قوماً يعبدون الكواكب والأفلاك وما فى السماء من النجوم والكواكب كالشمس والقمر ونحوهما مما يدور ويسبح فى الفلك ، وقد حكى القرآن عنهم قبل هذه الآية التى معنا أنه لما استتر الليل بظلامه وظهر هذه الكوكب النير الذى كانوا يعبدونه من دون الله ، ثم غاب وتوارى ، ثم ظهر القمر فغاب هذا أيضاً واختفى ، ثم جاء النهار ورأى الشمس بازغة قال لهم جميعاً أهذه الكواكب والنجوم هى التى تزعمون أنها آلهة من دون الله إنها قد اختفت وغابت فهى لا تصلح أن تكون آلهة ؛ لأن الإله لا يغيب ولا يزول ولا ينام ولا يتأثر بحوادث الليل والنهار ، ومن هنا كان عليكم أن تتوجهوا معى بوجوهكم إلى الله وحده فى العبادة فإنى قد قصدت الله وحده دون غيره ، وأقبلت عليه بوجهى وصرفته إليه مخلصاً نيتى وقصدى ، واستلزم هذا التوجه إليه وحده تعالى أن أدير هذا الوجه عن كل ما عداه من خلقه وأن اترك ذلك كله خلف ظهرى [(١)] .

وعلى هذا يحمل توجيه الوجه هنا على اختصاص الله بالقصد فى العبادة بالإخلاص من ناحية وصرف هذا الوجه إليه وحده وإدارته عن معبودات قومه من الأصنام والأفلاك والشموس والأقمار من ناحية أخرى .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن هـ٤ ص ٢٨ والكشاف جـ٢ ص ٣٩ والتحرير والتنوير جـ٤ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

المطلب الثالث : صاحب هذا الوجه

ليس فى قوله تعالى " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " ذكر لاسم صاحب هذا الوجه ، وإنما يطلب ذلك ويعرف مما سبقه من الآيات التى تدور فى هذا المعنى الذى أبان عن صاحب هذا الوجه وقدره ، وبالنظر إلى أول القصة يعرف أن صاحب هذا الوجه هو الخليل إبراهيم عليه السلام حيث إن القصة تبدأ بقوله " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " . سورة الأنعام (٧٤ – ٧٧) .

حيث دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك ما سواه من المعبودات الباطلة ما كان منها فى الأرض كالأصنام والأوثان ، وما كان منها فى السماء كالكواكب النيرات والنجوم والشموس والأقمار الدوارت ، وبدأ فى مناظرته بأبيه وبقومه وهو يشير إلى ما ظهر من هذه الكواكب بالليل كالقمر ونحوه وما ظهر بالنهار كالشمس وغيرها من النجوم ، واستدل بغيابها بعد ظهورها واختفائها بعد حضورها على وجود الواحد الأحد الذى لا يحول ولا يزول ولا يغيب بعلمه ولا ينام عن خلقه ولا يغفل ولا يعجز ، ولذلك توجه إليه بوجهه وأقبل عليه بنيته وقصده منصرفاً عن غيره قد أدار ظهره عن كل ما عبده قومه من الأنداد والشركاء معلناً براءته من جميع مظاهر الشرك بقوله " يا قوم إنى بريء مما تشركون " فهذا هو الخليل عليه السلام الذى أمرنا الله عز وجل بإتباعه والسير على نهجه فى قوله " فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، آل عمران ٩٥

" بل لقد أمر خاتم الأنبياء والرسل بإتباعه وذلك فى قوله " ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " سورة النحل (١٢٣) فما وصل إلى هذه المرتبة إلا بإخلاصه لله فى عبادته وانصرافه عن جميع مظاهر الشرك والوثنية التى كان عليها قومه [١] .

المطلب الرابع : زمن هذا التوجه

لا يمكننا معرفة زمن توجه هذا الوجه إلى الله تعالى وحده إلا بضم هذه الآية التى ورد فيها هذا الوجه الموجه إلى الذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وحتى نصل إلى معرفة الوقت الذى قال فيه الخليل عليه السلام " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " . علينا أن ننظم هذه الآية فى سلك الآيات المتقدمة عليها فى ترتيب المصحف ، والمعروف أن هذا القول من إبراهيم كان وقت محاجته لقومه ومناظرته إياهم فى أمر ما كان يعبدونه من دون الله تعالى من الأصنام والكواكب والأفلاك السماوية ففى قوله تعالى " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ " الأنعام (٧٦) ، وقوله " فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ " الأنعام (٧٧) ، وقوله " فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " الأنعام (٧٨) .

ما يكشف عن أن الخليل عليه السلام أشار إلى هذه المصنوعات على سبيل المجاراة لقومه ، والسير معهم فى الحجة حتى يقروا بأنفسهم أنها لا تصلح أن تكون هى الإله من دون الله وهو يقول لهم فى كل مرة " أهذا ربى الذى تزعمون والخالق الذى تعبدون " إنها لا تصلح أن تكون إلهاً ؛ لأنها تغيب والله لا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٧٢ ، ١٧٣ والوسيط للواحدى جـ٢ ص ٢٨٨ ، ٢٩٠ .

يغيب ، ومن هنا يعلم أن قوله " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " كان بعد إفحام قومه بالحجة وظهور جهلهم وعجزهم ، لكن يبقى السؤال : هل هذا كان من إبراهيم عليه السلام فى وقت شبابه أم فى وقت كبره ؟ والجواب عن ذلك يستدعى ذلك ما قاله أهل التفسير فى عمر الخليل عليه السلام آنذاك حيث إن المفسرين اختلفوا فى تحديد زمن هذه المناظرة وهذا التوجه : فقد كان من إبراهيم كما روى عن ابن عباس وغيره من أن ذلك كان فى وقت صباه قبل بلوغه وتكليفه ، وذهب آخرون إلى أنه كان فى كبره بعد بلوغه وتكليفه وما فى القصة من براهين عقلية وقواطع وافتراضات جدلية جاءت على لسان الخليل ترجح كون القصة كانت بعد بلوغه ورشده ومثل هذا الحوار الذى يفيض بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وحدانية الله لا تصدر عن الصبيان ، وإنما عن أهل الرشد والعقل والبيان ، ولا يتأتى هذا إلا بعد بلوغ الإنسان درجة العقل والتكليف بالإضافة إلى قوله كما حكاه القرآن عنه "يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ" وقوله " وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " كل ذلك يرجح أن زمن التوجه وإخلاص الوجه والقصد لربه لم يكن حال صغره ، وإنما كان فى كبره وبعد بلوغه [١] .

(١) انظر الجواهر الحسان جـ١ ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ومدارك التنزيل جـ١ ص ٢٩ ، ٣١ .

المبحث الثلاثون : الوجوه الموسومة

المطلب الأول : الورود

لم يرد وصف الوجوه المعلمة بهذا اللفظ ، وإنما الذى ورد الحديث به الوجوه التى يظهر من سيماها وعلامة إشراقها النور الذى يعلوها من الطاعة ، والذى ما حدث ذلك إلا بسبب كثرة سجودهم لله فى الفرائض والنوافل وذلك فى قوله تعالى "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" محمد (٢٩) وذلك فى معرض الحديث عن أوصاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اختارهم الله لنبيه كما جاء فى قوله تعالى " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " .

وعلى هذا فلم يرد ذكر الوجوه المعلمة الموسومة بنور الطاعة بلفظ السيمة إلا فى هذا الموضع من سورة الفتح فقط [١] .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٣٥ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

المتتبع لأصل هذه الكلمة واشتقاقها يجد أن لفظ " سيماهم " المشتق من السيمة والسيماء والسيما وهو مقلوب من الوسم بدلالة أن فعله من وسم ، والوسم هو السمة المبينة لحقيقة الشيء يقال : وسمت فلاناً بكذا أى علمته بصفة تميزه عن غيره ، والوسيم من الناس الذى تظهر عليه آثار الجمال والنعمة ويقال : وسمته بكذا بالتشديد أى علمته أيضاً والجمع سيم والمرة منه سمة ومنه قوله تعالى " يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ " آل عمران (١٢٥) أى قد علموا أنفسهم أو خيولهم او المؤمنين المجاهدين بعلامات يعرفون بها ، وكذا قوله " تعرفهم بسيماهم " أى بأثر الحاجة التى تدل على فقرهم وعوزهم [١] .

ثانياً : المعنى :

قد اختلف المفسرون سلفاً وخلفاً فى المراد وبيان معنى السيما التى تكون فى الوجوه من أثار السجود ، والمتدبر فيما ورد عنهم من أقوال يجد أنها ترجع إلى أقوال ثلاثة :

أولها : أنه شيء محسوس يرى فى وجوههم من كثرة سجودهم .

قال مالك : هى ما يتعلق بجباهم من الأرض عند السجود مثل ما تعلق بجبهة النبى صلى الله عليه وسلم من أثر الطين والماء لما اعتكف بالمسجد صبيحة إحدى وعشرين من رمضان [٢] .

---

(١) انظر : بصائر ذوى التمييز جـ٣ ص ٢٨٣ ومعانى القرآن للزجاج جـ٥ ص ٢٤ والتحرير والتنوير جـ٣ ص ٧٥ وجـ١٢ ص ٢٠٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف وخروج النبى صبيحة عشرين برقم ٢٠٣٦ ومسلم فى كتاب الصيام باب استحباب صوم ستة أيام من شوال برقم ١١٦٧ .

وقال سعيد وعكرمة : الأثر كالغدة يكون فى جبهة الرجل ، وليس المراد أنهم يتكلفون حدوث ذلك فى وجوههم ، ولكنه يحصل من غير قصد بسبب كثرة مباشرة الجبهة للأرض ، وبشرات الناس مختلفة فى التأثر بذلك فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلفه ولم يقصد به رياء ، وقال أبو العالية : يسجدون على التراب لا على الأثواب .

ثانيها :

أن هذه الوجوه قد أشرقت ونورت بطاعة ربها بما طبعه الأثر النفسى على صفحات وجوههم وهذا قول الأعمش والحسن وعطاء والربيع ومجاهد عن ابن عباس وابن جزى والضحاك ، قال الأعمش : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار [١] ، وقال ابن عباس هو حسن السمت وقال مجاهد : هو نور من الخشوع والتواضع ، وقال الحسن والضحاك : بياض وصفرة وتهييج يعترى الوجوه من السهر.

ثالثها :

أنها أثر يظهر فى وجوههم يوم القيامة وإليه ذهب سعيد بن جبير والزهرى وابن عباس فى رواية العوفى والحسن وخالد الحنفى وعطية وشهر بن حوشب : أنها سيما تكون لهم يوم القيامة ، وقالوا : هى بياض يكون فى الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة لهم [٢]

---

(١) هذا الاثر رواه ابن ماجه مرفوعاً من حديث جابر قال ابن كثير جـ٧ ص ٢٤٢ جـ١ ص ٤٢٢ برقم ١٣٣٣ فى كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء فى قيام الليل والصحيح أنه موقوف .

(٢) انظر التحرير والتنوير جت١٢٥ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ والعون والنكت والعيون جـ٥ ص ٣٢٣ والدر المنثور جـ٦ ص ٩١، ٩٢ .

أقول : ولا تعارض بين هذه الأقوال فى بيان المراد بهذه العلامة التى تظهر فى وجوه أهل الطاعة من آثار السجود ، ولا مانع من قبول كل هذه الأقوال وهو الأليق لعموم قوله " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ " فحمل هذه السيمة على ما يكون فى الوجوه من آثار السجود مما يعلق بها من التراب ، أو اسوداد موضع السجود فى الجبهة أو غيره أو حمل ذلك على ما يعترى وجوههم من الإشراق والنور فى الدنيا من أثر قيام الليل ، أو حمله على الآخرة من ابيضاض وجوههم وتنويرها ؛ لأن الكل حادث من أثر السجود فى الصلاة وهو واقع مشاهد فى الدنيا ، فأهل الطاعة تنعكس صلاتهم على وجوههم نوراً وإشراقاً لاسيما إن كانوا من أهل صلاة الليل وهذا لا يمنع أن تكون تلك العلامة حسية ظاهرة على جلدة الجبهة من سواد الموضع ونحوه من أثر الطين والتراب ، أما حدوث ذلك فى الآخرة فلا يستبعد ؛ خاصة أن وجوه المؤمنين يوم القيامة يعتريها كثير من الأوصاف العجيبة كما جاء فى قوله تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ " عبس (٣٨ – ٣٩) ، وقوله " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " المطففين (٢٤) ، وقوله " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ " آل عمران (١٠٦) فكذلك الأمر هنا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى " سيماهم فى وجوههم " قال النور يوم القيامة [١]

ولا يتعارض أيضاً هذا الحديث مع ما تقدمه من الأقوال كما نص عليه الطاهر بن عاشور بقوله : (وهو لا يقتضى تعطيل بقية الاحتمالات ؛ إذ كل ذلك من السيما المحمودة ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر أعلاها)[٢] .

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط جـ٥ ص ٢١٣٣ رقم ٤٤٦١ وقال الهيثمى فى المجمع جـ٧ ص ٢٣٦ برقم ١١٣٤٧ : وفيه رواد بن الجراح. وثقة ابن حبان وضعفه الدارقطنى وغيره وحسن الحديث السيوطى فى الدر المنثور جـ ٧ ، ص ٥٤٢ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٠٦

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

وبتدبر ما ذكره أهل التفسير فى هذه الآية وجدت أن أصحاب هذه الوجوه المعلمة بالنور والطاعة من أثر السجود ثلاثة أصناف :

أولهم :

وأولاهم وأعلاهم رتبة أصحاب نبينا الأعظم صلى الله عليه وسلم خاصة أن الآية نازلة فيهم ، والوصف منطبق عليهم ، ومن نظر فى الآية ولو ادنى نظر أيقن بهذه الحقيقة استمع إلى الله تعالى وهو يقول " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا "

فهم الذين كانوا معه فى البأساء والضراء جهاداً وقتالاً ، وصبراً وذكراً وشكراً ، أشداء على الكفار جهاداً وقتالاً ، ولكنهم أشفق وأرف فيما بينهم ، تراهم أيها الناظر ركعاً سجداً بالليل والنهار مفترضين ومتنفلين فليلهم قائمون هاجعون ، ونهارهم صائمون مجاهدون يطلبون من ربهم فضلاً منه وكرماً ، وجنة وحريراً تظهر على صفحات وجوههم إشراقات نورانية ، وأنوار ربانية ، وطاعة وإخلاص وبهاء ووقار من أثار كثرة سجودهم لربهم هذه بعض علاماتهم المثبتة فى الكتب المتقدمة كالتوراة المنزلة على نبى الله موسى عليه السلام ، وأما الإنجيل فهم الموصفون فيه بالزرع الذى خرج من الأرض صغيراً ضعيفاً فى أوله فما لبث أن اشتد عوده وقوى جذره وكثرت ثماره وأوراقه التى ينتفع بها المستطعم والمستظل حتى يعجب الناظر إليه من قوته ولونه ونضجه ورائحته ، وهم الذين اختارهم الله لنبيه ليغيظ بهم الكفار فمن أبغضهم بعد أن شاع ذكرهم بين البلاد والعباد وذاع حتى ملأ البقاع والأسماع فقد أساء وتعدى وظلم وهجر

هذا الدين وكفر، قال الإمام ابن كثير : (ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك فى رواية عنه تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة قال : ، لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء على ذلك)[١].

قال صلى الله عليه وسلم" لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصفيه " [٢] .

وعلى هذا فإن هذه الآية ناطقة بفضلهم وشاهدة على قدرهم فهم أصحاب هذه الوجوه المعلمة بفوز ربها من أثر طاعته ومرضاته [٣]

قال القرطبى فى شرح هذه الآية : (وكون الصفات فى جملة أصحاب النبى هو الأشبه) [٤] ، بل جزم ابن عطية بهذا فقال : (والذين معه إشارة إلى جميع الصحابة عند الجمهور) [٥] .

الصنف الثاني :

هم أهل الصلاة من هذه الأمة لا سيما صلاة الليل خاصة وقت السحر والثلث الأخير من هذا الليل الذين جافوا مضاجعهم وتركوا فرشهم وأقبلوا على الله ركعاً سجداً، ذاكرين مستغفرين داعين راجين متضرعين ، فلما أصبحوا عرف ذلك فى وجوههم نوراً وضياءاً وبهاءاً ووقاراً من أثر كثرة سجودهم لربهم وخضوعهم بين يديه وخشوعهم فى تلاوتهم وقرائتهم. وهذا قول ابن عباس، وقال الضحاك: هو أن يسهر الليل فيصبح مصفراً وذلك من أثر الصلاة والسجود [٦] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٣٣٨ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفضائل باب تحريم سب الصحابة رضى الله عنهم جـ٢ ص ٤١٣ .

(٣) انظر تفسير بن كثير جـ٢ ص ٢٤٢ ، فتح القدير جـ٥ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) الجامع لإحكام القرآن جـ٨ ص ٥٦٦ .

(٥) المحرر الوجيز جـ٥ ص ١٤٠ .

(٦) انظر التسهيل فى علوم التنزيل جـ٢ ص ٣٥٣ ، فتح القدير جـ ٥ ص ٦٨ ، ٦٩ ، والنكت والعيون جـ٥ ص ٣٢٨ ، الدر المنثور جـ٦ ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

الصنف الثالث :

هم أهل الخشوع والخضوع والتواضع وإلى هذا ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وهو المروى عن ابن عباس [١]

*** أقول** :-

وانطباق هذا الوصف على أصحاب الصنف الأول والثاني ظاهر بين فقد كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مثالاً فى التواضع والخشوع والخضوع ، كما أن الصلاة تزيد المؤمن تواضعاً وخضوعاً وتخليه من الكبر والاستطالة على عباد الله وفى الحديث القدسى قال الله تعالى : " إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتى ولم يستطل بها على خلقى " [٢] .

وعلى هذا فأصحاب الوجوه المعلمة بطاعة ربها من الصحابة وأهل الصلاة خاصة صلاة الليل وأهل التواضع والخشوع والخضوع لا مانع من أن تشملهم الآية كلهم ؛ لا سيما وقد اجتمع كل ذلك فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله أعلم .

المطلب الرابع : زمن هذه السيمة

المتأمل فى الأقوال المتقدمة فى بيان المراد بقوله تعالى " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " يظهر له جلياً أن

---

(١) أنظر تفسير السمعانى جـ٤ ص ١٠٣ ، النكت والعيون جـ٥ ص ٣٢٨ ، جامع البيان للإيجى جـ٤ ص١٦٥

(٢) أخرجه البزار فى مسنده جـ١١ ص ١٠٥ برقم ٤٨٢٣ والاصفهانى فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ٤ ص ١٨ والألبانى فى السلسلة الضعيفة جـ٢ ص ٣٦٥ برقم ٩٥٠ وقال ضعيف .

معرفة زمن هذه الوجوه مترتبة على ما قيل فى معنى السيما والعلامة التى تظهر على وجوه هؤلاء ، والحاصل من هذه الأقوال : أن من فسر هذه العلامة التى تظهر على وجوه القوم بأنها الأثر الذى يظهر فى الجبهة من كثرة السجود كأثر التراب ونحوه مما ينطبع على صفحة الجبهة ، وكذا من حمل ذلك على إشراق الوجه ونوره من كثرة الركوع والسجود لاسيما فى نوافل الليل ، ومن قال إنهم أهل التواضع والخشوع المعروفون بهذا بين الخلق فكل هذه الأقوال يجعل زمن هذه الوجوه المعلمة بهذه السيم حاصلاً فى الدنيا؛ لأنها أى الدنيا دار العمل والعبادة ، وأما من ذهب إلى أن هذه العلامة هى عبارة على ابيضاض وجوههم وامتلائها بنور ربها يوم القيامة فقد جعل هذا الزمان فى الآخرة فوصفها بذلك راجع إلى ما يظهر عليها من إكرام الله لها فى الآخرة . (١) .

وعندى : أن هذا الوصف أليق وأولى أن يوصف به من توفرت فيه تلك العلامة فى الدنيا كأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من صالحى هذه الأمة ، فوصف هذه الوجوه بهذه الصفات حاصل فى الدنيا بدلالة قوله فى الآية " تراهم " إذاً هو أمر مشاهد ومحسوس للمخاطب ، فظهور تلك العلامة فى وجوه القوم لا يصلح إلا أن يكون فى الدنيا لحصول كمال العبرة فيها من وراء هذا الوصف بخلاف الآخرة والتي هي دار الجزاء فاحتياج أهل دار العمل في الدنيا إلى الاعتبار أولى من حصر ذلك في الكرامة يوم القيامة فقط ، كما أن الآية مجمع على أنها فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كما سبق نقله فى المطب السابق وهذا يقوى بل يجعلنا نجزم أن ذلك حاصل فى الدنيا وهذا لا يمنع من تحققه فى الآخرة لاسيما فى حق المؤمنين الذين كانت الصلاة لهم فى الدنيا شرباً ومغسلة قال الله تعالى " يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ

(١) انظر جامع البيان للطبرى جـ٥ ص ٥٩٤ وما بعدها وبحر العلوم جـ٣ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ وزاد المسير جـ٤ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ " سورة الحديد (١٣) .

قال أبو أمامة رضى الله عنه فى شرح هذه الآية : " أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا – يشير إلى القبر – بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى قال: يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذى ضربه الله تعالى فى كتابه فقال : " أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ " النور فلا يستضئ الكافر ولا المنافق بنور المؤمن كما لا يستضئ الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا " انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ " وهى خدعة الله التى يخدع بها المنافقين حيث قال : "يخادعون الله وهو خادعهم " فيرجعون إلى المكان الذى يقسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب" (١)

---

(١) الأثر أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير تفسير سورة النور ص ٤٣٥ برقم ٦٤٨ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وقال صحيح ، وأخرجه بن ابى حاتم فى التفسير جـ١٠ ص ٣٣٣٧ برقم ١٨٨٢١ وذكره السيوطى فى الدر جـ٦ ص ٢٧٢ وزاد نسبته إلى بن المبارك والبيهقى فى الأسماء والصفات .

المبحث الحادي والثلاثون : الوجوه المولية

المطلب الأول : الورود

لقد تعدد الحديث عن هذه الوجوه فى أكثر من موطن فى كتاب الله تعالى فأحياناً يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والأمر بتولية وجهه قبل المسجد الحرام كقوله تعالى " فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ " البقرة (١٤٤) وذلك فى ثلاثة مواطن ، وأحياناً يكون الأمر موجهاً إلى أمته صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى " وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " البقرة (١٥٠) وذلك فى موضعين من سورة البقرة ، وأحياناً يكون موجهاً للجميع بطريق النفى كقوله "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" البقرة (١٧٧) .

فالحاصل من كل ما تقدم أن الوجوه المولية ورد ذكرها فى القرآن كله فى ستة مواضع لا سابع لها [١] . والله أعلم .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٨٥٣ .

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

الناظر فى مادة الفعلين " ولى " وتولى " يجد أن أصلهما وهو الولاية بالفتح والكسر وفيهما معنى السلطان والنصرة ، فأما الفعل ولى فهو ماض رباعى مضاعف يتعدى إلى مفعول واحد يقال : ولاه فلان وتولاه ومنه قوله تعالى " مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " البقرة (١٤٢) ، وأما الفعل " تولى " ففيه معنى الاقتراب والتوجه والقصد قال تعالى " وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " المائدة (٥١) أى : يقترب منهم قصداً وحلفاً وهو فعل ماض فمن الأول : ليس البر أن تولوا وجوهكم " ، ومن الثاني : قوله تعالى " وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ " الأنفال (٢٠) ، وكذا الأمر فى الفعل " ولى " فهو يتعدى بنفسه وبعن أيضاً فمن الأول " فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " البقرة . ومن الثاني : " مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ " .

وقد تكون التولية بالجسد وقد تكون بالقلب وفى المعنيين يحمل على الإعراض والانصراف عن الشيء فمن الأول قوله " وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ " البقرة (٢٠٥) أى أعرض عنك وتركك بجسده ولم يستمع إليك ، ومن الثاني وهو الإعراض بالقلب قوله " وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ " وقوله " وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ "[1] محمد (٣٨) إلى غير ذلك من معانى التولي واشتقاقها .

---

(١) انظر المفردات فى غريب القرآن ص ٥٧٠ وبصائر ذوى التمييز جـ٥ ص ٢٨٧ ، ٢٨٢ والتحرير والتانوير جـ٢ ص ٨ والمصباح المنير ص ٢٥٨ .

ثانياً : المعنى :

لا تختلف معانى التولية باختلاف صيغها فى الآيات التى سبق عرضها ، بل كلها يرجع إلى معنى التوجه إلى البيت الحرام فى الصلاة والدعاء وغيرها من سائر العبادات فالأمر فى قوله تعالى " فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وقوله " فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ " معناه : التوجه والقصد ناحية الكعبة باستحضار عينها عند المصلى أو وسطها من أى بقعة توجه منها المصلى بحيث يكون استحضارها كأنه يقف أمامها ويراها رأى العين .

وكذا الأمر فى قوله تعالى " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " أى ليست طاعة الله منحصرة فى التوجه ناحية الشرق أو الغرب فليس ذاك هو البر كله ، وإنما البر ما ذكرته الآية من صنوف الطاعة وأفرادها كالإيمان بالله واليوم الآخر وبذل الأموال إلى أهل العوز والحاجة والوفاء بالعهد والصبر فى البأساء والضراء [١] .

وعلى هذا فإن معانى الوجوه المولية تدور حول حسن التقرب إلى الله وإخلاص القصد إليه بالتوجه إلى بيته الحرام لاسيما فى الصلاة وصرف القلب عن مشغلاته وانصراف الهمة كلها إلى مرضاة الله تعالى .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص ٥٦٢ وروح المعانى جـ١ ص ٤٤٢ وتفسير القرآن العظيم للسخاوى جـ١ ص ٩٢ وجامع البيان للأيجى جـ١ ص ١٠٤ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

فالملاحظ أن أصحاب الوجوه المولية والمتوجهة تجاه الكعبة يختلف أصحابها باختلاف وجوه الخطاب المتوجه إلى المقصودين فى الآية فأما قوله " فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " فهو هو وجه النبى صلى الله عليه وسلم بدلالة قوله فى أول الآية " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا " البقرة (١٤٤) فالخطاب إليه صلى الله عليه وسلم بالإجماع .

وأما قوله تعالى " فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ" فهو متوجه إلى وجوه أمته رجالاً ونساء ، فأصحاب هذه الوجوه هم كل من آمن بالله ورسوله من هذه الأمة فهم مأمورون بصرف وجوههم إلى الكعبة فقط من أى جهة كانوا فيها براً وبحراً وجواً.

وأما قوله " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " . فقد اختلف أهل التفسير فى أصحاب هذه الوجوه فقيل : هى وجوه المسلمين خاصة فالمعنى عليه " ليس كل من شهد الشهادتين وصلى إلى القبلتين أو إلى إحداهما قد أصاب البر كله : إذ إن وجوه البر كثيرة وصنوف الخير متعددة وكبيرة ، ولكن البر الحقيقى لابد أن يأتى صاحبه بكل ما اشترطته الآية من الإيمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلخ ما ذكرته الآية وقيل : إن أصحاب الوجوه فى الآية هم اليهود والنصارى فليس التوجه إلى جهة المشرق هو البر كما كان يصنع النصارى، أو إلى المغرب كما يصنع اليهود ، وإنما البر أوسع من ذلك وأشمل فلابد فى البر من الإيمان بالله ورسوله والإنفاق فى وجوه الخير وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر وفى ذلك تزكية لهذه الأمة فهى الجامعة لكل صفات الخير .

وقيل : إن الآية عامة فى حق الجميع فهى خبر عن اليهود والنصارى والمسلمين فكأنها تقول للجميع إن توجهكم إلى هذه القبلة أو تلك من جهات الشرق والغرب ليس هو البر الحقيقى حتى لا يفخر بعضكم على بعض . وإنما البر فى التصديق بالقلب والإخلاص وحسن القصد فى النفقة وحسن البذل وغيره من أنواع البر [١] .

وهو الأرجح عندى خاصة إذا عرفت أن سياق هذه الآية من أول الحديث عن تحويل القبلة وذاك فى قوله " سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " البقرة (١٤٢) مروراً بالحديث عن أهل الكتاب فى قوله " إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ " البقرة (١٥٩) ، بل وقبله فى قوله " وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ " البقرة (١٤٥) الآية كلها ، وحتى قوله فى الآية التى معنا هنا " ليس البر " قد شمل الحديث الطوائف الثلاث فكان الحمل فى الآية على الجميع أولى من هذه الجهة ، وكأن كل ما تقدم من الآيات كالتمهيد والتجهيز لهذه الآية ليقرر للجميع أن استقبال القبلة فى الصلاة شرقاً أو غرباً ليس هو الخير كله ، بل إن هناك عبادات أخر وطاعات كبر لا علاقة لها بأمر القبلة كتصديق العبد بربه ورسوله وإيتاء الزكاة والصبر على المكروه وصدق الحديث إلى غير ذلك من خصال الخير وأنواع البر . والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير البيضاوى جـ١ ص ٤٥٢ والوسيط للواحدى جـ١ ص ٢٦١ وإرشاد العقل السليم جـ١ ص ٢٢٧ وتفسير السمعانى جـ١ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

المبحث الثاني و الثلاثون : الوجوه الناضرة

المطلب الأول : الورود

لم يأت هذا الوصف ولم يذكر فى القرآن كله إلا فى قوله تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ " القيامة ٢٢ ، ٢٣.

غير أنه قد ورد فى صفة الأبرار وهم فى الجنة أن الله وصف وجوههم بأن فيها نضرة وسروراً قال تعالى وهو يحكى حال هؤلاء " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " [1] المطففين ٢٤ وعلى هذا فوصف الوجوه صراحة بالنضرة لم يجر له ذكر إلا هنا فى سورة القيامة ، وأما ما جاء فى أن الأبرار فى نعيم يجعل فى وجوههم النضرة والسرور فليس صريحاً فى الوصف كما هو الحال فى الأول ، ويلحق بما تقدم وصف الوجوه بالمبيضة وكذلك بالمسفرة الضاحكة المستبشرة وقد سبق فى غير ما مبحث أن بعض أهل التفسير جعلها كلها بمعنى واحد وإن اختلفت الألفاظ والتراكيب . والله أعلم

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً :- أما الاشتقاق : فهو خاص بلفظ " ناضرة " والذى هو خبر للمبتدأ الذى هو الوجوه ، أو هو نعت وصفة للمبتدأ والخبر هو شبه الجملة في قوله " يؤمئذ" و التقدير وجوه ناضرة يؤمئذ و الذي هو يوم القيامة و قوله "ناضرة" وهو فى كل الأحوال اسم فاعل من الفعل " نضر " بالتخفيف كـ" كرم" أو نضر بالتشديد والنضرة فى الوجه نعومته وإشراقه ومنه قوله تعالى " تعرف فى وجوههم نضره النعيم " ويقال نضر الله وجهه إذا حسنه وجمله ، والنضرة : طراوة البشرة وجمالها وذلك من أثر النعمة يقال : نضر وجهه فهو ناضر ،

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٩٨ والدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٨٦٥ .

ويقال: للذهب نضار ، ويقال له : أيضاً النضر وما ذاك إلا لحسنه وجماله ، ونضارة الوجه بهاؤه وبشره [١] .

ثانياً :-

وأما المعنى : فإن النضرة فى الوجه محمولة على ما يعترى وجوه المؤمنين يوم القيامة من النعومة والليونة والطراوة ، وما يفيض منها من البشر والسرور ، وما يكسوها من الإشراق والنور خاصة إذا نظرت إلى ربها فأصابها من نور وجه ربها ما يغنيها عن الالتفات إلى غيره من صنوف النعم والمتع والمنن مما لا يخطر على قلب بشر ، وهذا المعنى يشبه ما جاء فى قوله تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ " سورة الغاشية ٨ وقوله " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ " سورة عبس ٣٨، ٣٩ ونظيرها أيضاً " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " سورة المطففين ٢٤ فكل هذه الألفاظ من النضرة والنعومة والإسفار والضحك والاستبشار والتى وصف الله بها هذه الوجوه كلها بمعنى واحد ، لكنها أحوال مختلفة تعترى هذه الوجوه كلها ترجع فى النهاية إلى أنها وجوه مكرمة أعزها الله وخلع عليها من النور ما زادها بهاءاً وجمالاً وحسناً ودلالاً[٢]

قال الفخر : (وألفاظ المفسرين مختلفة فى تفسير الناضر ومعناها واحد قالوا مسرورة ناعمة ، مضيئة ، مسفرة ، مشرقة بهجة)[٣] .

---

(١) انظر الدر المصون جـ١٠ من ص ٥٧٤ إلى ٥٧٧ والبحر المحيط جـ١٠ ص ٣٥٠ و ٣٥١ وحدائق الروح والريحان جـ٣٠ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٢) انظر جامع البيان للطبرى جـ٢٤ ص ٧١ وبحر العلوم جـ٣ ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣٠ ص ٧٣٠ .

المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه

والظاهر من هاتين الآيتين أن أصحاب هذه الوجوه هم المؤمنون الناظرون إلى وجه ربهم سبحانه وتعالى دون غيرهم ممن سيحرمون من هذه النعمة يوم القيامة من الكافرين المكذبين بآيات ربهم ، والذين قال الله عز وجل فى حقهم " كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ " سورة المطففين ١٥المطففين وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه هم الناظرون إلى ربهم يوم القيامة من أهل الجنة ، وقد كثرت الأحاديث فى هذا المقام ولنذكر لك طرفاً منها على سبيل الاستذكار من ذلك ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه تحدده وعشية " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم "وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" (١) .

ومثل هذا الحديث أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد وزاد ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة "" (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٤٣١ برقم ٣٣٣٠ وقال هذا حديث غريب والألبانى فى ضعيف سنن الترمذى جـ١ ص ٤٣٣ وقال ضعيف وله أصل فى الحديث الذى بعده من رواية الإمام مسلم يشهد له .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى ١-٩١ .

فهذان الحديثان وغيرهما نص فى أن أصحاب هذه الوجوه الناضرة هم الناظرون إلى ربهم يوم القيامة ، وهما كالنص فى تفسير الآيتين هنا، قال الآلوسى: رحمه الله تعقيباً على ما ذكرنا من الأحاديث : (فهو تفسير منه صلى الله عليه وسلم ومن المعلوم أنه أعلم الأولين والآخرين لاسيما بما أنزل عليه من كلام رب العالمين) [1] .

وعلى هذا فلا يتمتع بالنظر إلى وجه الله يوم القيامة إلا من كان من المؤمنين ومن أصحاب الوجوه النضرة لاسيما إذا دخلوا الجنة وصاروا من الفائزين .

(١) تفسير روح المعانى جـ١٥ ص ١٦١ .

المبحث الثالث و الثلاثون : الوجوه الناعمة

المطلب الأول : الورود

الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن هذا الوصف لم يجر له ذكر على سبيل الوصف إلا فى موضع واحد وذلك فى سورة الغاشية وذلك فى قوله تعالى : "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً . فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ . فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ" . الغاشية (٨ : ١٦) فقد ذكر فى هذه الآيات وصف هذه الوجوه بأنها ناعمة ، وذكر فيها سبب هذا الوصف ، ومسكن أصحاب هذه الوجوه الناعمة وفرشهم وبسطهم ومشربهم وكلامهم وما يستمعون إليه فى الجنة إلى غير ذلك مما ذكرته الآيات من عجيب أحوالهم وهنيىء عيشهم ، إلا أنه قد ورد ذكر لهذه الوجوه لا على سبيل الوصف ولكنه على سبيل الخبر والترغيب وذلك فى قوله تعالى " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " سورة المطففين (٢٢ ، ٢٤) وعلى هذا فليس هناك موضع ثالث يشتمل على الحديث عن هذه الوجوه إلا فى هذين الموضعين ، والفرق بينهما ظاهر فالأول على سبيل التصريح بالوصف ، والثاني على سبيل الخبر والمدح ... والله أعلم ..

المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى

أولاً : الاشتقاق :

(الناعم من الشيء : الحسن اللين وهو فاعل بمعنى المفعول والأصل أنها منعّمة والفعل نعم ينعم كعظم بالضم ، ويصح نعم بالكسر ينعم بالفتح كحذر يحذر، وشذ كسره فى المضارع ، والنعمة هى المنة والعطية من الله ، والنعمة أيضاً ريح لينة، والنعمة المال ؛ لأنه عطية الله وفلان منعّم أى حسن العيشة مترف .

والإنعام : إيصال الخير للغير، يقال أنعم فلان على فلان بغرسه أى مكنه منه وأعطاه إياه ، والتنعم الترف والتمتع بالنعمة يقال : تنعم الرجل بعد فقر أى صار ذا ترف ومتعة ، والأنعام الإبل والبقر والغنم لجمالها فى الروح والسرح .

والنعامة طائر معروف ، والناعم من الشيء السهل اللين يقال فلان يده ناعمة فهى لينة على الحقيقة وسهل نوالها وعطاءها على المجاز)[1] .

وعلى هذا فمادة النعومة تدور معانيها حول حسن الوجه ونضارته ولينه من أثر التنعم وما أفاضه الله على هذا الوجه من البهاء والسرور .

فلفظ ناعمة خبر عن " وجوه " ومشتق عن نعم بضم العين ينعم بضمها الذى مصدره نعومة وهى اللين وبهجة المرآى وحسن المنظر .

ثانيا : **المعنى** : تحمل النعومة هنا على معنيين :

أولهما : نضرة الوجه وبهجته وما يكسوه من السرور وما يملأه من الفرح بنعمة الله فى الجنة ، وما أنعم الله على أصحاب هذه الوجوه من كل ما يبعث على الطمأنينة والرضا والهدوء والمسكن وهذا كقوله تعالى :-

" تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " المطففين (٢٤)

وعلى هذا المعنى يكون التعبير عن البهجة والسرور واللين بالنعومة من قبيل التعبير الحقيقى [2] .

ثانيهما :- إن النعومة فى الآية محمولة على معنى النعيم أى وجوه ذات نعيم فى الجنة ؛ وذاك يرجع إلى كثرة تنعمها بكل وسائل الراحة الخالية من كدر العيش ، ومنغصات الحياة ، وخلو هذا النعيم من مضادات اللذات ، ومكدرات الرغبة ، ولذيذ العيش ، فما أطيب المطعم واهنأ المشرب ولين الملبس والفرش ،

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٥٢٠ ،٥٢١ ولسان العرب جـ١٢ ص٥٧٩ ، ٥٨٠ .

(٢) انظر روح المعانى جـ ١٥ ص ٣٢٧ وأنوار التنزيل جـ٥ ص ٤٨٣ والتحرير والتنوير جـ١٥ ص ٢٩٩ .

وما أجمل المنكح والزوجات، وأعزب الكلمات والعبارات فأى نعيم بعد هذا النعيم وأى نعمة أفضل من هذه النعمة إلا رؤية المنعم سبحانه وتعالى والتى هى أم النعم فى الجنة وغاية الأمانى ومنتهى المطلب وعلى هذا المعنى يكون التعبير عن النعيم بالنعومة من باب المجاز وليس الحقيقة وعلى هذا يكون لفظ ناعمة مشتقاً من نعم بكسر العين ينعم مثل حذر، إذا كان ذا نعمة، أى حسن العيش والترف[١] .

ولا مانع عندى من أن تشمل الآية المعنيين ؛ إذ إن النعيم سبب لنعومة الوجه ونضرته ولين البشرة وجمالها خاصة أن كل ما فى الجنة من النعيم المقيم ينعكس أثره على الوجه ويطفو ويظهر حسنه فيه فكأن النعيم سبب للنعومة وكأن النعومة سبب فى اكتمال نضرة الوجه وبهجته وفرحه وسروره وهذا هو الذى جوزه الطاهر بن عاشور، وصاحب اللباب ، وابن جزى الكلبى [٢] وغيرهم .

المطلب الثالث : أسباب النعومة

والظاهر من الآيات التى تتحدث عن الوجوه الناعمة هنا أن مصدر النعومة يرجع إلى سببين **أولهما** : ما يفهم من قوله تعالى " لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ " (أى لمّا حصل لها الرضا الناشئ عن فرحها بعملها الذى عملته فى الدنيا وتحملت مشاقه وتكاليفه إذ رأت ثواب ربها على هذا العمل ، وأبصرت فضل الله عليها فى الجزاء والأجر حتى أنعكس هذا الرضا على صفحات وجوه هؤلاء

---

(١) انظر مدارك التنزيل جـ٤ ص ٥١٥ ، وفى ظلال القرآن جـ٦ ، ص ٣٨٩٧ والتحرير والتنوير جـ١٥ ص ٢٩٩ ..

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ٥ ص ٢٩٩ – واللباب فى علوم الكتاب جـ٢٠ ص ٢٩٦ ، والتسهيل لعلوم التنزيل جـ٢ ص ٥٦٦ .

المنعمين فبان فيها السرور والنعيم ، كما أن وجوه أهل السخط والغضب كثيراً ما يبدو عليها من السواد والظلمة ما يكشف عن حال أصحابها) [١] .

ثانيهما :-

ما يرونه فى الجنة بل ويتمتعون به من المطاعم والمشارب والبسط والفرش التى ورد ذكرها فى قوله تعالى : " فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً .فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ . فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ" الغاشية٨: ١٦: (فالمسكن عال المكانة والمكان والقدر والمنزلة وكلما ارتفع وعلا كان ادعى إلى الطهارة والنظافة وعدم وصول الآفات إليه ، وأما الكلام فليس فيه خنا ولا فجور ولا لغو ولا فضول ، بل جل ما يخرج من أفواههم تسبيح وتمجيد للواحد المجيد ، كما أن الفرش والأسرة مرفوعة " لكنها إذا طلبها صاحبها اقتربت وخرت له كما يخر الجمل لصاحبه ولو كان طفلاً ، فإذا نظروا فعيون الماء تجرى أمامهم بلا أخاديد ولا شواطئ فهى المنظر والمخبر قد وضعت الأكواب عليها وأعدت لأهلها حتى لا يتعبوا فى طلبها ، وأما البسط والفرش فمبثوثة فى كل مكان حولهم بل ومصفوفة عندهم فمنها ما يستندون إليه، ومنها ما ينامون عليه أو ينظرون إليه كما يفرح أهل الترف والثراء بما فى بيوتهم من أنواع المتع والملذات والشهوات مطعومة أو مشروبة أو مفروشة أو غير ذلك مما تفرح العين به وينفتح القلب له وتشتاق النفس إليه ولا شك أن كل ذلك النعيم يعود بالبشر والسرور والنعومة على الساكنين خاصة إذا ما كانوا أمنين مطمئنين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) [٢] .

---

(١) انظر روح المعانى جـ٥ ص ٣٢٧ والمحرر الوجيز جـ٥ ص ٤٧٣ والوسيط للواحدى جـ٤ ص ٤٧٥.

(٢) انظر معالم التنزيل جـ٥ ص ٢٤٥ ، المحرر الوجيز جـ٥ ص ٤٧٣ ، التفسير الوسيط للواحدى جـ٤ ص ٤٧٥ .

المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه

الظاهر من هذه الآيات التى تتحدث عن الوجوه الناعمة وما أعده الله لها فى الجنة العالية (أن هؤلاء المنعمين هم المؤمنون المصدقون بالله ورسوله خاصة أنه قد تقدم الحديث عن الوجوه الخاشعة المكذبة الجاحدة بآيات الله ورسله، فعلم من هذا التقديم وهذا التأخير أن هؤلاء وهؤلاء على الضد والنقيض فالأولون من خلال سورة الغاشية هم المكذبون المعذبون ، والآخرون هم المؤمنون المنعمون .

يضاف إلى ما تقدم أن أصحاب الوجوه الناعمة هم أصحاب العمل المرضى والمسعى المشكور سواء أكان هذا الرضا حاصلاً من أنفسهم لأعمالهم ، أم كان حاصلاً من ربهم ؛ إذ لما رضى عن عملهم رضاهم هم أيضاً به كل ذلك يشير إليه قوله تعالى " لسعيها راضية " . وعلى هذا فأصحاب هذه الوجوه الناعمة مع كونهم هم المؤمنين المصدقين فكذلك هم أهل العمل المرضى عنه وذلك بسبب مجازاتهم بالثواب الوفير والأجر الكبير فإذا رأوا كرم الله عليهم بكثرة الثواب على عملهم رضوا بهذا العمل وفرحوا بهذا السعى) [١] .

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١ ص ٢٨٦ ، فتح القدير للشوكانى جـ٥ ص ٥٥٤ ، التحرير والتنوير جـ١٥ ص ٣٩٨ .

الخـــــاتمة

الحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات ، وبعفوه تمحـــى الخطايـــا وتغفـــر السيئات ، وبكرمه وفيض رحمته ترفع الدرجات ، وصل اللهم وسلم وبارك علـــى من ختمت به الرسالات ، نبى الرحمة ورسول الهدى وإمام أهل الخيـــر والفـــلاح وسيد أهل التقى والصلاح صلوات الله وتسليماته عليه وعلى آله وأصحابه ومـــن بسنته انتفع فاستراح ، ثم أما **بعد** :

كان لابد عقيب هذه الرحلة الطويلة والتى تنقلنا فيها بـــين جنبـــات هـــذا البستان اليانع ، والزهر اليافع ، والجنى الماتع أن نتحف القارئ بملخـــص فـــى صورة خاتمة نستريح بها من مشقة التفصيل إلى راحـــة الإجمـــال ، ومـــن ألـــم التطويل إلى متعة الاختصار والتلخيص والاختيار ، وقد سبق فى هذا البحث بيان جملة من الأخبار ، وقطعة ليست صغيرة من الآثار المتعلقة بأنواع وجوه الخلـــق وصفات هذه الوجوه ، وذكر ما تعلق بها من ألوانها وزمانها وأصحابها ، وبيان أسباب ما يعترى تلك الوجوه فى الدنيا والآخرة ، وبيان عاقبتها من حسن المـــآل وسوء الحال ، وإذا كان القرآن الكريم لم يقتصر فى ذكره لهذه الوجوه على بيان نوع أو نوعين أو ثلاثة أو غير ذلك ، بل لقد أفاض الحديث فى ذكر كل مـــا مـــن شأنه أن يكون كاشفاً عن حال صاحب هذا الوجه وبيان عاقبته فلا شك أن ذلـــك يجعل البحث بهذا الموضوع ثرياً ، والكلام فيه وما يتعلق به شهياً ونديا ، فما أن تخرج بنفسك وتصورك وخيالك عن العيش مع أحد هذه الوجوه حتى تستقبل حالة أخرى وخيالاً مختلفاً مع وجه جديد ، فمثلاً : إن الحديث عن الوجـــوه الناعمـــة يختلف كل الاختلاف عن الوجوه الخاشعة وهى الذليلة الكآلة المتعبة مما يعتريها فى جهنم من شديد العذاب وأليم العقاب ، وقس على ذلك بقية الوجوه وعلى هذا فإن الحديث عن الوجوه المبيضة والمسفرة الضاحة المستبشرة والوجوه الناضرة

التى إلى ربها ناظرة يختلف عن الوجوه الباسرة والتى عليها غبرة والمسودة التى هي وجوه الكفرة الفجرة ، بخلاف الحديث أيضاً عن الوجوه المتقلبة فى النار والسعير ، والوجوه المسحوبة إليها المنكبة فيها ، والملفوحة بها والمحشورة عندها .

إن كل ذلك ليعطي المستمع صورة كاملة عن أنواع هذه الوجوه ودلالاتها فى النص ودورها فى زيادة المعنى التفسيرى فى الآية ، كما أن ذلك يغرس فى المستمع حب الاستشراف والتطلع إلى أن يكون وجهه وجه أهل الخير مبيضّاً مسفراً ضاحكاً مستبشراً . حتى لا يكون مع الصنف الآخر من الوجوه التى غضب الله على أصحابها فاسودت وأظلمت فسحبت إلى النار حتى تتقلب فيها ألماً وعذاباً فوق عذاب ، وعقاباً بعد عقاب ، ومن هنا كان على مستمع القرآن أن يحدد اتجاه وجهه هل يكون بوجهه مع هؤلاء أم مع هؤلاء ولا يكون ذلك بالتمنى ، بل بالعمل الصالح المبنى على الاتباع مع الإخلاص حتى تكون النجاة والخلاص .

والله أسأل أن يجعل ما قدمته فى هذا البحث خالصاً لوجهه العظيم ، ونافعاً لعباده أجمعين ، وصالحاً فى أن يكون زادى مع المتقين ، إنه ولى ذلك والقادر عليه وهو حسبى ونعم الوكيل .

أهم النتائج والتوصيات :

أولاً : لقد اشتمل هذا البحث على جمع ودراسة اثنين وثلاثين وجهاً من وجوه الخلق فى كلام الحق، بالإضافة إلى ذكر أشرف هذه الوجوه وأعظمها وهو وجه الله ، وهذا يدل على ثراء هذا البحث فى موضوعه وتنوع جهات البحث فيه ، وتعدد أغراضه ومقاصده ، إذ ليس هناك وجه من هذه الوجوه تشبه دراسته دراسة وجه آخر فكل وجه مستقل بحديثه معنى وأسباباً وتفسيراً مع ذكر ما يتعلق بكل وجه من حيث بيان أصحابه وزمان صفته ومكانها ، وبيان حالته وعاقبته ، وعلى هذا فاستقلال هذه الوجوه عن

بعضها واضح فى هذا البحث وظاهر وهذا مانع من الالتباس والخلط مع التنزيه المطلق لوجه الله تعالى الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ثانياً : فى تنوع الحديث عن وجوه الخلق مدحاً وذماً وثناءً بالخير أو الشر ، وتقلباً بين صفات هذه الوجوه يجعل القارئ والمستمع يعيش مقام الخوف والرجاء وهذا يدعوه إلى الإكثار من الابتهال والدعاء إلى الله أن يجعل وجهه كهذه الوجوه السعيدة القريبة من ربها الغير بعيدة ، وأن يجنبه ويبعده من وجوه أهل الكفر والمعاصى حتى لا يكون وجهه كوجه هذا العاصى الذى أظلم بل أسود من كثرة الذنوب والمعاصى ، وإذا استطاع هذا المستمع أن يعيش هذا المقام أعنى مقام الخوف والرجاء وهو يستمع إلى الحديث عن هذه الوجوه فإن حياته بعد هذا السماع تختلف كل الاختلاف عما كان قبل وكفى بتلك النتيجة نعمة ومنة فما أجمل أن يعرف الإنسان خطأه فيقلع عنه من جهة ويستبدله بالصواب من جهة أخرى خاصة إذا كان ذلك مشفوعاً بحسن الرجاء والدعاء والنداء .

ثالثاً : كما أن تنوع الحديث عن هذه الوجوه دال أيضاً على تنوع أعمال أصحابها وهذا يكشف عن علاقة العمل بهذه الوجوه مدحاً وذماً ، بل ودال أيضاً على أن هذا العمل له أكبر الأثر فى تغيير صفات هذه الوجوه وألوانها بياضاً وسواداً خاصة فى الآخرة ، وهذا يزيد سمّاع القرآن وقرّاءه حرصاً وخوفاً ورجاء .

رابعاً : من هنا يعلم أن تعبيرات الوجوه والتى تكشف عن خبياها مرتبطة بما يعتريها من الصفات الحسية أو المعنوية ، وهذا يؤكد أن للوجوه لغات ودلالات تقترب من دلالات الجمل والعبارات والحروف والكلمات ، وهذا يقوى قول من يقول إن وجوه الناس دالة عما فى قلوبهم ، ومهما حاول

الإنسان أحياناً أن يخبئ ما فى داخله وما يطويه صدره فإن وجهه يكشفه ، وقسماته وأحواله تفضحه ومثل هذا مشهور ومعروف خاصة عند أهل الخبرة بالنظر والأثر لا يحتاج إلى دليل على صحته أو برهان ، وكفى حديث القرآن عن ذلك برهاناً وأى برهان .

خامساً : إذا كان للوجوه هذه المكانة فى تحديد مصير صاحبها أهو من أهل الكرامة أو من أهل المهانة ، فحرى بكل مستمع للقرآن وقارئ له أن يطلب لوجهه ما يجعله أفلح الوجوه وأنقاها وأعلاها رتبة وأولاها ، فإن ترك ذلك فلم يستشرف إليه ولم يكن حريصاً عليه فلا خير فى استماعه لحديث هذه الوجوه ، ولا شك أن مثل هذا لا يتأثر لا بحديث الوجوه ولا بغيره خاصة إذا علم قدر جمال الحديث عن الوجوه الناعمة والمبيضة وما ينتظر أصحابها فى الجنة ، وكذا قدر الحديث عن الوجوه الخاشعة والمسودة وما ينتظرها فى العذاب والجحيم ، فمن لم يتأثر بهذا الحديث أو ذاك فليس له قلب يفكر ، ولا عقل به يتذكر ومثل هذا وغيره هم ممن قال الله فى حقهم "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" سورة الأعراف (١٧٩).

سادساً : إذا كانت هذه الدراسة بهذه الأهمية المرتبطة ببيان حال هذه الوجوه ومآلها فإن على الباحثين فى القرآن وعلومه أن يتوجهوا بالنظر والتفكير العميق إلى دراسة الجوانب الأخرى المتعلقة بهذه الوجوه وإفرادها ببحوث خاصة بها كالحديث مثلاً عن الجانب النفسى وانعكاسه على نفسية المستمع، والجانب الصحى على جهة العموم ، بل والجانب السلوكى وذلك ببيان أثر الحديث عن الوجوه ومدى ارتباط هذا الحديث بسلوك الناس وأخلاقهم وانعكاس ذلك على المجتمع كله ، وهذا يجعل البحث فى هذه الوجوه متعدداً ومختلفاً بل أكثر دقة وتخصصاً ، كما أنه يزيدنا ارتباطاً

بالقرآن من ناحية وانتفاعاً بآثاره ونتائجه على الفرد والمجتمع من ناحية أخرى ، وهذا يجعل الدراسات القرآنية متجددة ومتنوعة على مدى الدهور والعصور كما هو المعهود فى كتاب الله الذى لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .

والله العظيم أسأل أن يبيض وجوهنا يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، وأن يحشرنا فى زمرة المتقين وأهل القرآن أجمعين ، وأن يثبتنا على الصراط المستقيم فإنه تعالى الرب الجواد الكريم .

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم : جلَّ من أنزله .

[١] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي المتوفى ٤٥٠ تحقيق أ / محمد فريد . ط . المكتبة التوفيقية .

[٢] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز للعلامة أبي السعود ط . دار الفكر .

[٣] أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل ١٢٣٦ سؤال وجواب تأليف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ط . مكتبة فياض للتجارة والتوزيع .

[٤] الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي . ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

[٥] إعراب القراءات الشاذة لأبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦هـ ط عالم الكتب القاهرة .

[٦] إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين بن أحمد مصطفى درويش . ط . دار الإرشاد بيروت . الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ .

[٧] إمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور / محمد عناية الله أسد سيجاني ط دار عمار .

[٨] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله أبي عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى سنة٧٩١هـ ط. دار الفكر.

[٩] الاهتداء إلى بيان الوقف والابتداء لمحمد بن عبد الرحمن الخليجي.

[١٠] البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الحياني الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ ط . دار الفكر بيروت ط ١٤٢٠هـ تحقيق صدقي محمد جميل .

[١١]بدائع التفسير جمع وتخريج وتحقيق / يسري السيد محمد وصالح أحمد الشامي ط دار ابن الجوزي .
[١٢]تأويلات أهل السنة تفسير الماتريدي لأبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي المتوفى٣٣٣هـ. ط دار الكتب العلميةـ بيروت ـ لبنان.
[١٣]التبيان في أقسام القرآن لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن القيم الجوزية
[١٤]التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي المتوفى ٧٤١هـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .
[١٥]تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى ٥١٦هـ . ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت
[١٦]تفسير الجلالين ط . الأنوار المحمدية . القاهرة .
[١٧]تفسير الخازن لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن المتوفى سنة ٧٢٥هـ ط . مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
[١٨]تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم لنصر الدين محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي ط .دار الفكر .
[١٩]تفسير القرآن العظيم لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين السخاوي المصري الشافعي ت ٦٤٣هـ ط . دار النشر للجامعات .
[٢٠]تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي .
[٢١]تفسير القرآن الكريم جزء عم تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده .
[٢٢]تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني٤١٦– ٤٨٩هـ ط دار الوطن الرياض.
[٢٣]التفسير الكامل لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الدمشقي ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ ط دار الفكر .

[٢٤] التفسير الكبير " تفسير القرآن العظيم " للعلامة أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ٢٦٠ – ٣٦٠هـ ط . دار الكتاب الثقافي . الأردن إربد .
[٢٥] التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور / محمد سيد طنطاوي ط . دار السعادة .
[٢٦] جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد عبد الله الإيجي الشيرازي الشافعي المتوفى سنة ٩٠٥ ط دار الكتب العلمية .
[٢٧] الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط . دار الحديث القاهرة .
[٢٨] جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي الناشر مكتبة الآداب القاهرة .
[٢٩] جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد ابيه محمد الصديق الغفاري الحسني ط . مكتبة القاهرة .
[٣٠] الجواهر الحسان في تفسير القرآن للشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي ط دار الكتب العلمية بيرون لبنان .
[٣١] حاشية الصاوي على تفسير الجلالين لأحمد بن أحمد الصاوي المصري الخلوتي المالكي ١١٧٥ – ١٢٤١هـ ط دار الحديث ، القاهرة .
[٣٢] حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوية الهروي الشافعي ط دار طوق النجاة .
[٣٣] الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ط . الرحاب .
[٣٤] ديوان البحتري ط . دار الجيل بيروت .
[٣٥] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني تأليف العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧هـ ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

[٣٦]زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ٥٠٨ – ٥٩٧هـ ط المكتب الإسلامي .
[٣٧]شرح ابن عقيل على الألفية لابن عقيل ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
[٣٨]صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف ط الثامنة
[٣٩]صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ط دار الصابوني .
[٤٠]عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١هـ ط . مكتبة الإيمان القاهرة.
[٤١] غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة الكرماني ط مؤسسة دار علوم القرآن جدة . ط أولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
[٤٢]فتح القدير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ١١٧٣ – ١٢٥٠هـ ط المكتبة التوفيقية .
[٤٣]الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ ط . عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .
[٤٤]الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ط . دار العلم والثقافة القاهرة .
[٤٥]في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ط دار الشروق .
[٤٦]القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ .
[٤٧]قبس من نور القرآن الكريم تفسير جزء تبارك بقلم الشيخ محمد علي الصابوني ط . دار السلام .
[٤٨]القراءات المتواترة وأثرها في الرسم العثماني والأحكام الشرعية محمد حبش – الناشر دار الفكر دمشق ط . الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٢م.

[٤٩] القراءات روايتا ورش وحفص دراسة تحليلية مقارنة لحليمة سال – الناشر دار الوضح – الإمارات ط. الأولى ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م .
[٥٠] القول السديد في علم التجويد لعلي الله بن علي أبو الوفا – الناشر دار الوفاء المنصورة ط. الثالثة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
[٥١] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري المتوفى ٥٢٨هـ دار الكتاب العربي .
[٥٢] الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ط . الأولى دار إحياء التراث العربي سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
[٥٣] مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ أبي علي الفضل ابن الحسن الطبرسي ط دار المعرفة .
[٥٤] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦هـ . ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .
[٥٥] مختصر منهاج القاصدين لأحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي ط . مؤسسة الكتب الثقافية .
[٥٦] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام عبد الله بن أحمد النسفي المتوفى سنة ٧١٠هـ ط . دار النفائس .
[٥٧] معاني القرآن لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي المتوفى سنة ٣٧٠هـ ط. الناشر مركز البحوث بكلية الآداب جامعة الملك سعود ط . الأولى١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
[٥٨] معجم غريب ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ط . دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

[٥٩] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لأبي محمد عبد الله جمال الدين ابن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري . ط . دار الطلائع القاهرة .

[٦٠] مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي السكري الرازي الشافعي ٥٤٤ – ٦٠٦هـ ك دار الغد العربي .

[٦١] مقدمات في علم القراءات محمد أحمد مفلح القضاة ــ الناشر دار عمار – عمان – الأردن . ط. الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

[٦٢] المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النش للدكتور محمد سالم محيسن ط . مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة .

[٦٣] الميزان في تفسير القرآن تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ط دار مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان .

[٦٤] النكت والعيون تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ٣٦٤ – ٤٥٠هـ ط مؤسسة الكتب الثقافية

[٦٥] الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع لعبد الفتاح القاضي ط . الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ١٤٢٠ ـــ ١٩٨٢م .

[٦٦] الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى سنة ٤٦٨هـ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

[٦٧]- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)

اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ت سيد إبراهيم الناشر: دار الحديث، القاهرة - مصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

[٦٨]- الأسماء والصفات للبيهقي لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي الناشر: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

[٦٩] صحيح الجامع الصغير وزياداته لأبى عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) الناشر: المكتب الإسلامي.

[٧٠]- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها لأبى عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف) .

[٧١]- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصرالناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

[٧٢]- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

[٧٣]- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لإبى العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ) ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة الطبعة: ١٤١٩ هـ.

[٧٤]- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم لإبى محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ) المحقق: أسعد محمد الطيب الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

[٧٥]-السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ) الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة عام النشر: ١٢٨٥هـ.

[٧٦]- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م.

[٧٧]- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

[٧٨]- في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.

[٧٩]- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس .سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

[٨٠]- تفسير الشعراوي – الخواطر لمحمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) الناشر: مطابع أخبار اليوم.

[٨١]- تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

[٨٢]-الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيشالناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

[٨٣]- زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)دار النشر: دار الفكر العربي.

[٨٤]- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأبى العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراطالناشر: دار القلم، دمشق.

[٨٥]- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

[٨٦]- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

[٨٧]- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي لأبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

[٨٨]- المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

[٨٩]- المستدرك على الصحيحين لأبى عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.

[٩٠]- مسند أبي يعلى لإبى يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) المحقق: حسين سليم أسد الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ – ١٩٨٤.

[٩١]- مسند الإمام أحمد بن حنبل لأبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: دار الحديث – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

[٩٢]- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبى الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ) المحقق: حسام الدين القدسي الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

[٩٣]- ضعيف سنن الترمذي لمحمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش بتكليف: من مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض توزيع:المكتب الاسلامي – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

[٩٤]- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

[٩٥]- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

[٩٦]- مجمل اللغة لابن فارس لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

[٩٧]- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لأبى العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦ هـ) المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

[٩٨]- معاني القرآن لأبى زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ) المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة: الأولى.

[٩٩]- المفردات في غريب القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى:٥٠٢هـ) المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة:الأولى-١٤١٢هـ.

[١٠٠]- معاني القرآن وإعرابه لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) المحقق: عبد الجليل عبده شلبيالناشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

[١٠١]- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

[١٠٢]- معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني الناشر: دار القلم – دمشق .

فهرس الموضوعات

م	اسم الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	٤٦٥٩
٢	خطة البحث	٤٦٦١
٣	المبحث الأول : وجه الله	٤٦٦٢
٤	المطلب الأول : الورود	٤٦٦٢
٥	المطلب الثاني : المعنى	٤٦٦٣
٦	المطلب الثالث: قبس من السنة	٤٦٦٦
٧	المبحث الثاني : الوجوه الباسرة	٤٦٦٨
٨	المطلب الأول : الورود	٤٦٦٨
٩	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٦٦٨
١٠	المطلب الثالث : إشكال ورده	٤٦٦٩
١١	المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه	٤٦٧٠
١٢	المبحث الثالث : الوجوه الخاشعة	٤٦٧١
١٣	المطلب الأول: الورود	٤٦٧١
١٤	المطلب الثاني : شرح صفات هذه الوجوه ومعانيها	٤٦٧٢
١٥	المطلب الثالث : زمان هذه الصفات	٤٦٨٠
١٦	المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه	٤٦٨٣
١٧	المطلب الخامس : المسكن والمستقر	٤٦٩٠
١٨	المطلب السادس : السقيا والشراب	٤٦٩٤
١٩	المطلب السابع : الطعام و الغذاء	٤٦٩٦
٢٠	المطلب الثامن : تنبيه و تحذير	٤٧٠١
٢١	المطلب التاسع : احذر هذا التفسير	٤٧٠٢
٢٢	المبحث الرابع : الوجوه الخالية	٤٧٠٣
٢٣	المطلب الأول : الورود	٤٧٠٣
٢٤	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٠٣
٢٥	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٠٥
٢٦	المطلب الرابع : الأسباب والزمان	٤٧٠٦

٢٧	المبحث الخامس : الوجوه العانية	٤٧٠٩
٢٨	المطلب الأول : الورود	٤٧٠٩
٢٩	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٠٩
٣٠	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧١١
٣١	المبحث السادس : الوجوه القائمة	٤٧١٣
٣٢	المطلب الأول : الورود	٤٧١٣
٣٣	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧١٤
٣٤	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧١٦
٣٥	المبحث السابع : الوجوه المبيضة	٤٧١٧
٣٦	المطلب الأول : الورود	٤٧١٧
٣٧	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧١٨
٣٨	المطلب الثالث : اصحاب هذه الوجوه	٤٧٢٠
٣٩	المطلب الرابع : زمان الإبياض	٤٧٢١
٤٠	المطلب الخامس : المآل والمصير	٤٧٢٣
٤١	المبحث الثامن : الوجوه المتقلبة	٤٧٢٤
٤٢	المطلب الأول : الورود	٤٧٢٤
٤٣	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٢٤
٤٤	المطلب الثالث : اصحاب هذه الوجوه	٤٧٢٦
٤٥	المطلب الرابع : الحكمة من هذا التقلب	٤٧٢٨
٤٦	المطلب الخامس : صور هذا التقليب	٤٧٣١
٤٧	المطلب السادس : زمن هذا التقلب	٤٧٣٢
٤٨	المبحث التاسع : الوجوه المتقية	٤٧٣٤
٤٩	المطلب الأول : الورود	٤٧٣٤
٥٠	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٣٤
٥١	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٣٦
٥٢	المبحث العاشر : الوجوه المحشورة	٤٧٣٩
٥٣	المطلب الأول : الورود	٤٧٣٩
٥٤	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٣٩
٥٥	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٤٢
٥٦	المطلب الرابع : العقوبة والجزاء	٤٧٤٤

٥٧	المبحث الحادي عشر : الوجوه المساءة	٤٧٤٧
٥٨	المطلب الأول : الورود	٤٧٤٧
٥٩	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٤٧
٦٠	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٤٨
٦١	المطلب الرابع : زمنها	٤٧٤٩
٦٢	المبحث الثاني عشر : الوجوه المسحوبة	٤٧٥١
٦٣	المطلب الأول : الورود	٤٧٥١
٦٤	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٥١
٦٥	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٥٤
٦٦	المبحث الثالث عشر : الوجوه المسفرة	٤٧٥٦
٦٧	المطلب الأول : الورود	٤٧٥٦
٦٨	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٥٦
٦٩	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٥٧
٧٠	المطلب الرابع : الأسباب والدواعى	٤٧٥٨
٧١	المبحث الرابع عشر : الوجوه المسلمة	٤٧٦٠
٧٢	المطلب الأول : الورود	٤٧٦٠
٧٣	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٦٠
٧٤	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٦١
٧٥	المبحث الخامس عشر : الوجوه المسودة	٤٧٦٤
٧٦	المطلب الأول : الورود	٤٧٦٤
٧٧	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٦٥
٧٨	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٦٩
٧٩	المطلب الرابع : زمان هذا الاسوداد	٤٧٧١
٨٠	المبحث السادس عشر: الوجوه المشوية	٤٧٧٤
٨١	المطلب الأول : الورود	٤٧٧٤
٨٢	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٧٤
٨٣	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٧٥
٨٤	المطلب الرابع : كيفيته	٤٧٧٦
٨٥	المبحث السابع عشر : الوجوه المصكوكة	٤٧٧٨
٨٦	المطلب الأول : الورود	٤٧٧٨

٨٧	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٧٨
٨٨	المطلب الثالث : صاحبة هذا الوجه	٤٧٧٩
٨٩	المطلب الرابع : القصة السبب	٤٧٨١
٩٠	المطلب الخامس : إشكال ورده	٤٧٨٣
٩١	المطلب السادس : زمن الصك	٤٧٨٥
٩٢	المبحث الثامن عشر : الوجوه المضروبة	٤٧٨٧
٩٣	المطلب الأول : الورود	٤٧٨٧
٩٤	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٨٨
٩٥	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٩١
٩٦	المطلب الرابع : تخصيص الوجوه والأدبار بالضرب	٤٧٩١
٩٧	المطلب الخامس : زمن هذا الضرب ومكانه	٤٧٩٢
٩٨	المبحث التاسع عشر : الوجوه المطموسة	٤٧٩٤
٩٩	المطلب الأول : الورود	٤٧٩٤
١٠٠	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٧٩٤
١٠١	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٧٩٧
١٠٢	المطلب الرابع : زمن هذا الطمس	٤٧٩٩
١٠٣	المبحث العشرون : الوجوه المغبرة	٤٨٠٠
١٠٤	المطلب الأول : الورود	٤٨٠٠
١٠٥	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٠٠
١٠٦	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٠٢
١٠٧	المطلب الرابع : زمن الغبرة والقترة	٤٨٠٣
١٠٨	المبحث الحادي و العشرون : الوجوه المغسولة	٤٨٠٥
١٠٩	المطلب الأول : الورود	٤٨٠٥
١١٠	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٠٥
١١١	المطلب الثالث : أحاديث فى غسل الوجه	٤٨٠٧
١١٢	المطلب الرابع : حد الوجه المغسول	٤٨٠٨
١١٣	المطلب الخامس : أصحاب هذه الوجوه	٤٨١٠
١١٤	المبحث الثاني و العشرون : الوجوه المغشية	٤٨١٢
١١٥	المطلب الأول : الورود	٤٨١٢
١١٦	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨١٣

١١٧	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨١٥
١١٨	المبحث الثالث و العشرون : الوجوه المكبوبة	٤٨١٩
١١٩	المطلب الأول : الورود	٤٨١٩
١٢٠	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨١٩
١٢١	المطلب الثالث : تخصيص الوجوه بالكب	٤٨٢١
١٢٢	المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٢١
١٢٣	المبحث الرابع و العشرون : الوجوه الملفوحة	٤٨٢٣
١٢٤	المطلب الأول : الورود	٤٨٢٣
١٢٥	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٢٣
١٢٦	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٢٤
١٢٧	المبحث الخامس و العشرون : الوجوه الممسوحة	٤٨٢٧
١٢٨	المطلب الأول : الورود	٤٨٢٧
١٢٩	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٢٧
١٣٠	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٢٩
١٣١	المطلب الرابع : أسباب هذا المسح	٤٨٣٠
١٣٢	المطلب الخامس : ما يبيحه هذا المسح	٤٨٣١
١٣٣	المبحث السادس والعشرون : الوجوه المنقلبة	٤٨٣٢
١٣٤	المطلب الأول : الورود	٤٨٣٢
١٣٥	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٣٢
١٣٦	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٣٤
١٣٧	المطلب الرابع : أسباب هذا الانقلاب	٤٨٣٦
١٣٨	المطلب الخامس : زمن هذه الوجوه المنقلبة	٤٨٣٨
١٣٩	المبحث السابع و العشرون : الوجوه المنكبة	٤٨٤٠
١٤٠	المطلب الأول : الورود	٤٨٤٠
١٤١	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٤٠
١٤٢	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٤٢
١٤٣	المبحث الثامن والعشرون : الوجوه المنكرة	٤٨٤٤
١٤٤	المطلب الأول : الورود	٤٨٤٤
١٤٥	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٤٤
١٤٦	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٤٦

١٤٧	المطلب الرابع : زمن هذا الإنكار	٤٨٤٧
١٤٨	المبحث التاسع والعشرون : الوجوه الموجهة	٤٨٤٨
١٤٩	المطلب الأول : الورود	٤٨٤٨
١٥٠	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٤٨
١٥١	المطلب الثالث : صاحب هذا الوجه	٤٨٥٠
١٥٢	المطلب الرابع : زمن هذا التوجه	٤٨٥١
١٥٣	المبحث الثلاثون : الوجوه الموسومة	٤٨٥٣
١٥٤	المطلب الأول : الورود	٤٨٥٣
١٥٥	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٥٤
١٥٦	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٥٧
١٥٧	المطلب الرابع : زمن هذه السيمة	٤٨٥٩
١٥٨	المبحث الحادي والثلاثون : الوجوه المولية	٤٨٦٢
١٥٩	المطلب الأول : الورود	٤٨٦٢
١٦٠	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٦٣
١٦١	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٦٥
١٦٢	المبحث الثاني والثلاثون : الوجوه الناضرة	٤٨٦٧
١٦٣	المطلب الأول : الورود	٤٨٦٧
١٦٤	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٦٧
١٦٥	المطلب الثالث : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٦٩
١٦٦	المبحث الثالث والثلاثون : الوجوه الناعمة	٤٨٧١
١٦٧	المطلب الأول : الورود	٤٨٧١
١٦٨	المطلب الثاني : الاشتقاق والمعنى	٤٨٧١
١٦٩	المطلب الثالث : أسباب النعومة	٤٨٧٣
١٧٠	المطلب الرابع : أصحاب هذه الوجوه	٤٨٧٥
١٧١	الخاتمة	٤٨٧٦
١٧٢	المصادر والمراجع	٤٨٨١
١٧٣	فهرس الموضوعات	٤٨٩٣